



مكتبة
الفقيهين

تأليف
المؤلفين
مجمع علماء الإمام محمد
بن عبد الوهاب
جامعة الكويت



دار الكتاب اللبناني
بيروت

دار الكتاب المصرية
القاهرة

پیشانی
الفیرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلى مولانا وسيدنا رسول الله ﷺ الفاتح لما
أغلق وألغى الخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق
والهادى إلى صراط الله المستقيم
أقدم هذا الكتاب

منيع عبد الحلیم محمود

مكتبة
الأفندي

تأليف
الدكتور منيع عبد الحليم محمود
مدرس التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

دار الكتاب اللبناني
بيروت

دار الكتاب المصري
القاهرة

دارالكتاب اللبناني

شارع م كوري - مقابل فندق بريستول
ت : 735731 / 735732 ص.ب 11/8330
فاكسيل : 351433 (9611)
برقياً : داكليان - بيروت - لبنان
Att. Hassan El-Zeln

جميع
حقوق
الطبع
والنشر
م محفوظة
للمؤلفين

دارالكتاب المصري

33 شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع
ت : 3922168 / 3934301 / 3924614
فاكسيل : 3924657 (202) ص.ب 156 العتبة
الرمز البريدي 11511 القاهرة
Att. Hassan El-Zeln

2000 A.D - H. 1421 ————— ٢٠٠٠ م - ١٤٢١ هـ

I.S.B.N. 977 - 238 - 694 - 1 ————— رقم الايداع ٩٩ / ١٣٨٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

في تعريف التفسير وأنواعه

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين ، وبعد :
فلقد حظى القرآن الكريم وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تتريل من حكيم حميد - حظى بالتفاف أعلام الأمة الإسلامية حوله لفهم نصوصه المطهرة والعمل بما تتضمنه من أحكام عديدة فيها صلاح الحال والمآل لهذه الأمة الكبيرة .

[ما فرطنا في الكتاب من شئ] .

(سورة الأنعام الآية ٣٨)

ولقد تنوعت المصادر التي استقى منها المفسرون مناهجهم لفهم كتاب الله لمحاولة التعرف على فهم دقائقه وإبرازها في صورة لائقة لتكون في متناول الإنسان المسلم الذي يجب كتاب الله تلاوة وفهما والعمل بما يحويه هذا الكتاب من خيري الدنيا والآخرة ، ولقد اعتمد المفسرون على مصادر عديدة تحددت منها مناهجهم وتعددت بتعدد تلك المصادر .

وكان أهم تلك المصادر :

١ - ما أثر عن رسول الله ﷺ في بيان معنى الجمل من القرآن وإيضاح المعنى القرآني وتقريبه .

فعن ابن عباس قال : سأل رجل رسول الله ﷺ :

قال : أرأيت قول الله :

[كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ] . (سورة الحجر الآية ٩٠)

قال : اليهود والنصارى .

قال : [الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ] ! .

ما عِضِينَ؟

قال : «آمنوا ببعض وكفروا ببعض» .

وقد فسر رسول الله ﷺ الآية الكريمة :

[هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ] .

(سورة الرحمن الآية ٦٠)

بقوله : هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة .

ويروى أن أبا بكر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أيها الناس إنكم

تقرأون هذه الآية :

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ

إِذَا اهْتَدَيْتُمْ] . (سورة المائدة الآية ١٠٥)

وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه

أوشك أن يعمهم الله بعقابه . وأبو بكر رضى الله عنه يقول : يا رسول الله كيف

الصلاح بعد هذه الآية؟

[لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا .

يُجْزِيهِ] . (سورة النساء الآية ١٢٣)

فكل سوء عملنا يجزينا به؟

فقال رسول الله ﷺ :

غفر الله لك يا أبا بكر، ألسنت تمرض؟ ألسنت تنصب؟ ألسنت تمزن،
ألسنت تصيبك اللأواء؟

- قال: بلى.

- قال: فهو ما تجزون به.

ولقد عرف هذا النوع الذي برز في تفسير بعض المفسرين بالتفسير
بالمأثور، ومن أهم مصادره التي يعتمد عليها (الدر المنثور في التفسير بالمأثور)
للإمام جلال الدين السيوطي - حيث اعتمد على ما أثر عن رسول الله ﷺ،
وصحابه الأجلاء في تفرير المعاني لكثير من آيات القرآن الكريم. ومن
أبرزهم ابن عباس رضي الله عنهما الذي حظى بصحبة رسول الله ﷺ خادما
ومتعلما مع حظوته بدعاء الرسول ﷺ فكان فقيه الأمة وحبها الذي لا يجارى
علما وفقها في الدين ومعرفة بالتأويل.

ولقد كان القرآن الكريم، ولا يزال محورا للثقافة الإسلامية منذ أن
تألفت أمة بقيادة رسول الله ﷺ. جمعها على التوحيد لله سبحانه وتعالى
وخلافته في الأرض، فرأى المسلمون في آيات القرآن الكريم حثا على النظر
والتأمل فيه وتدبر آياته:

[كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته، وليتذكر أولوا

الألباب]. (سورة ص الآية ٢٩)

[أفلا يتدبرون القرآن]. (سورة محمد الآية ٢٤)

ومن ثم نشأ - زيادة على التفسير بالمأثور - (التفسير بالرأى) القائم على
التدبر والفهم لكتاب الله سبحانه وتعالى والاستعانة في ذلك بالعلوم الخادمة
لهذا الغرض الجليل وهي كثيرة تعددت وتنوعت فمنها علوم العربية نحوها
وصرفها وبلاغتها وما روى عن رسول الله ﷺ قولا وعملا وغير ذلك من
العلوم الكثيرة.

واختلفت أنظار المفسرين وطرقهم ومناهجهم في التفسير تبعاً لاختلاف مشاربيهم ، فمنهم من غلبت عليه النزعة الفكرية العقائدية فتوسع توسعاً كبيراً في شرح الآيات المتصلة بهذه المعاني ، ومنهم من غلبت عليه النزعة الفقهية الشرعية فتوسع توسعاً كبيراً في هذه النواحي وهكذا من توسع في القصص والأخبار ومن توسع في الأخلاق والتصوف والمواعظ وآيات الله في الأنفس والآفاق وغير ذلك .

كذلك كان من المفسرين من أطلال ومنهم من أوجز واختصر ومنهم من توسط بين هذا وذاك .

ولقد ترك هؤلاء وهؤلاء ثروة علمية ضخمة . أبانت عن جهود أمة . . . خدمت كتاب ربها وعנית به عناية فائقة . . . لا يسبقها في ذلك أمة . . . حفظاً وضبطاً وشرحاً واستنباطاً لمسائل الشريعة الغراء لتكون الأمة الإسلامية كما أراد الله لها خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر وتؤمن بإيماناً حقيقياً بالله سبحانه وتعالى .

ولم تقف الحركة الفكرية عند المسلمين يوماً بالنسبة لكتاب الله سبحانه بخاصة في هذا العصر الحديث الذي امتاز بالتقارب بين الأجناس ، وتكاثر وسائل الاتصال فيه بين الأمم والشعوب وانتعشت فيه وسائل العمران البشري على وجه العموم ، وما زالت هذه المناهج في تفسير القرآن إلى الآن على ما كانت عليه في السابق من تفسير بالمأثور ، وتفسير بالرأى ، وتفسير جامع بين المأثور والرأى ، وما زال القرآن هو الكوكب الدرّي الذي يضيء الطريق للسالكين ، وينشر ضياءه في الخافقين ، أما ما أضافه العلماء في العصر الحاضر إلى ذلك ، فهو ما يتصل بما أشار إليه القرآن الكريم من أفكار علمية ، وحقائق كشف عنها التقدم في عصرنا الحاضر ، ويسرف بعض الناس في ذلك فيحملون القرآن ما لا يحتمل أو يخرجون باللفظ عن معناه الذي يتطلبه السياق .

وعلى كل حال فهي - إن حسنت النية - محاولات فيها اجتهاد يسير في إطار الآية القرآنية الكريمة :

[سُرِّيَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِينَ لَهُمْ أَنَّهُ
الْحَقُّ]

(سورة فصلت الآية رقم ٥٣)

وسنعرض في أحاديثنا التالية لجهود العلماء في كشف أسراره وتوضيح معانيه ، وتوجيه الأبصار إلى النور الذي يحتويه .
ولا يسعنا في ختام هذه المقدمة إلا التوجه بالشكر لفضيلة الامام الأكبر
دكتور عبد الحلیم محمود شیخ الأزهر حیث كان لی عظیم الشرف أن یرسب فی
مناهج المفسرین عن :

١ - الإمام سفيان الثوري وتفسيره

٢ - الإمام القشيري وتفسيره .

٣ - الإمام ابو الحسن الشاذلي وتفسيره

٤ - الإمام ابو العباس المرسي وتفسيره

فه عظیم الشکر وجزیل الإمتنان

دكتور: منيع عبد الحلیم محمود

مدرس التفسیر وعلوم القرآن

كلية أصول الدين - جامعة الأزهر

الإمام سفيان الثوري وتفسيره

ولد سنة سبع وتسعين ، وخرج من الكوفة إلى البصرة سنة خمس وخمسين ومائة وتوفي بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة .

وكان عالم هذه الأمة وعابدها وزاهدها .

وكان لا يعلم أحدا العلم حتى يتعلم الأدب ولو عشرين سنة .

وامتنع مرة من الجلوس للعلم ، فقيل له في ذلك ، فقال :

والله لو علمت أنهم يريدون بالعلم وجه الله لأتيهم في بيوتهم وعلمتهم ،

ولكن إنما يريدون به المباهاة ، وقولهم حدثنا سفيان .

وكان إذا جلس للعلم وأعجبه منطقته يقطع الكلام ويقوم ويقول :

أخذنا ونحن لا نشعر : وهذه منزلة في الأخلاق ومحاسبة النفس تعز على من رامها وتطول .

برز سفيان في الحديث حتى وصل إلى أعلى مراتبه فكان : أمير

المؤمنين في الحديث - وكما أن للمؤمنين أميراً في مسائل الدنيا فان للمحدثين

أمرء وكان منهم سفيان .

كان أبوه من ثقات المحدثين ، وكان من غير شك أول من لقن سفيان

العلم ، فنشأ سفيان - دون اختيار منه - بين كتب الحديث ، وتفتحت عيناه

على جو من العلم يتسم بعبير النبوة وتسوده جوامع الكلام ، واتجه آلياً في

دراسته وجهة أبيه ، وفي ذلك يقول هو :

(طلبت العلم فلم تكن لي نية ثم رزقني الله النية) .

أى أنه طلب العلم أولاً بحكم العادة البحتة ، ثم وفقه الله سبحانه لأنه

يقصد به وجه الله .

ولكن مما يجدر ملاحظته أن المحدثين إذ ذاك ما كانوا يأخذون على تدریس الحديث أجراً فلقد كانوا يتمثلون قوله تعالى :

[قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ] .

(سورة الأنعام الآية ٩٠)

وفي سبيل طلب العلم قدم له أهله كل معونة وهيثوا له ما يمكن - وهو نزر يسير - من المساعدة ، وفي ذلك تقول أمه :

(يا بني ، أطلب العلم وأنا أعولك بمغزلي ، وإذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى في نفسك زيادة في الخير فان لم تر ذلك فلا تتعبن نفسك) .
ويكفيها في هذه الكلمة أن تأخذ منها :

١ - أن الجو الذي كان يعيش فيه سفيان كان جو تقشف .

٢ - أن هذا الجو كان يتسم بالتقوى والصلاح .

ونشأ سفيان بين « أب » من ثقاة المحدثين ، وأم تريد أن تعوله بمغزلهما ليطلب العلم . من أجل زيادة النور في قلبه .

وبدأ سفيان يتعلم اتباعاً لأبيه ، واستجابة لرغبة أمه .

وما إن دخل دور الشباب حتى بدأ يفكر جدياً في أمر معيشته ، يقول سفيان :

لما همت بطلب الحديث ، ورأيت العلم يدرس ، قلت : أي رب ، إنه لا بد لي من معيشة ، فاكفني هم الرزق ، وفرغني لطلبه ، فتشاغلت بالطلب فلم أر إلا خيراً وأعلنها في صراحة صريحة :

عليك بعمل الأبطال : الكسب من الحلال ، والإنفاق على العيال .

ولما سئل عن الحلال ما هو؟ قال :

تجارة برة ، أو عطاء من إمام عادل ، أو صلة من أخ مؤمن ، أو ميراث

لم يخالطه شيء .

ويوصي سفيان من عنده قدر من المال أن يصلحه أى يشره ، فيقول :
من كان فى يده من هذه التجارة شىء فليصلحه ، فإنه زمان من احتاج
كان أول ما بذل ديه .

ومن أجل كل ذلك طلب سفيان المال عن طريق التجارة ، وسافر
متاجراً .

وبمع كل ذلك فما كان سفيان صاحب ثراء عريض ، وما كان ليتمنى أن
يكون صاحب ثراء عريض لقد وهب نفسه للعلم ووهبها للعلم لوجه الله
سبحانه وتعالى ، وما كان هدفه من المال إلا حفظ ماء وجهه ومن أجل ذلك
لم يكن يستغرق فى التجارة وإنما كان يتاجر بقدر كسب ما يكفيه ثم يكرس
باقى وقته للعلم .

كان سفيان الثورى معنياً بالقرآن عناية كبيرة ، ولا يتأتى أن يكون الأمر
على غير ذلك ، فالقرآن فى حياة المسلم هو الأساس الأصيل الذى بدونه لا
يكون إسلام ، يقول الوليد بن عقبة :

كان سفيان الثورى يديم النظر فى المصحف ، فيوم لا ينظر فيه يأخذه
فيضعه على صدره .

ويقول عبد الرازق :

كان الثورى جعل على نفسه ، لكل ليلة جزءاً من القرآن وجزءاً من
الحديث فيقرأ جزءاً من القرآن ثم يجلس على الفراش فيقرأ جزءاً من الحديث
ثم ينام .

وكان سفيان يقول : سلونى عن التفسير والمناسك فإنى بهما عليم .

ومن أجل عناية الثورى بالقرآن يقول الأوزاعى :

لو قيل لى اختر رجلاً يقوم بكتاب الله وسنة نبيه صلوات الله عليه لأخترت لها

الثورى .

ومع عنابة الثورى بالتفسير فانه لم يفسر القرآن على الطريقة المعروفة الآن
وهى تتبع القرآن من أوله سورة سورة . وآية آية ، حتى ينتهى إلى آخره ، دون
أن يترك آية بدون تفسير.

كان سفيان - إذن - يفسر آية من هنا وآية من هناك . . . إنه كان يفسر
الآية التى تحتاج إلى نوع من الشرح والإيضاح الذى يحتاجه بعض الناس
لقصورهم فى اللغة ، أو لقصورهم فى الثقافة .

وإذا فسر الإنسان القرآن كلمة كلمة ، وآية آية . . . وسورة سورة ، على
هذا النسق الحالى ، فقد قيد القرآن - فى وهمه وفى وهم من اتبعه - بفكرته
بثقافته ، بعقليته ، بهواه إن كان صاحب هوى . . .

وما من شك فى أن أسلوب القرآن يتحكم فى المفسر ، ولكن المفسر مهما
حاول أن يستجيب إلى أسلوب القرآن فانه يجد مجالاً للتأويل حتى يصل إلى ما
يرى - بحسب مستواه - أنه حق .

ومع ذلك ومع كل ما قاله المفسرون مع قدماء ومن محدثين ، ورغم
مئات الشروح التى وضعت للقرآن فان القرآن مازال غصاً نضراً جديداً ،
فياضاً بالمعاني ، سيلاً بالإلهامات ، ومن أجل هذه النضرة ، ومن أجل ترك
أبواب الإلهامات يوحىها القرآن كل يوم لقارته ، لم يفسر رسول الله ﷺ القرآن
كلمة كلمة ، وسورة سورة ، وإنما هى كلمة من هنا وآية من هناك ، بحسب
الظروف والمقتضيات . . . وانظر مثلاً كتاب التفسير فى صحيح البخارى أوفى
صحيح مسلم أوفى غيره من كتب الصحاح فستجد أن تفسير رسول الله ﷺ
إنما هو على ما ذكرنا . . .

ولم يحاول كبار الصحابة تفسير القرآن على الوضع المألوف عندنا الآن ،
ذلك لأنهم كانوا يرون أن القرآن فى انطلاقه الموحى وفى نظرتة الملهمة
باستمرار ، وفى تأثيره الروحى والأخلاقى يجب أن لا تحده حدود ، وأن لا
تقيده قيود ذهنية بشرية .

ومن أجل بقاء استمرار القرآن فياضاً بالهداية ، لا يحجب نبعه الصافى

حجاب من وراء أو من جدل ، إلترم سلفنا الصالح الحنطة المحكمة : تفسير كلمة من هنا أو آية من هناك ، بحسب الظروف والأحوال ...

وسار سفيان الثوري على نسقهم ، بل إنه في الأغلب الأعم من تفسيره التزم أن يعزو كل رأى الى صاحبه ، وأحب من الذين تحدثوا في التفسير طائفة معينة ، وآثر من بين هذه الطائفة «مجاهد» ...

ولم يكن للثوري تفسير للقرآن معروف منشور ، وكان الذين يتحدثون عن الثوري فيما يتعلق بتفسيره للقرآن إنما يأخذون من ذلك متناثرات في مختلف الكتب .

ولكن توفيق الله سبحانه وتعالى لصاحب الأستاذ «إمياز على عرشي» مدير مكتبة رضا ببلدة رامبور بالهند ، فعثر على تفسير القرآن الكريم للثوري ، رواه أبو جعفر محمد عن أبي حذيفة النهدي عن الثوري فصححه ورتبه وعلق عليه ...

بيد أن هذا التفسير الذي نشر في سنة ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م لم يستوعب آراء الثوري في التفسير في جليلة الأولياء وفي تفسير الطبري وفي غير ذلك من الكتب كثير من آراء الثوري في التفسير .

ولعلنا في المستقبل نجد شبابنا الذين يشرعون في كتابة رسائل الدكتوراه ، أو يحبون البحث العلمي الجاد ينقبون عن آراء الثوري في التفسير ، وينشرون قدر المستطاع كل آراء الثوري في التفسير سواء صدرت عنه شخصيا أو اختارها من بين آراء الصحابة أو التابعين رضوان الله عليهم .

والثوري له جوانب كثيرة خصبة تحتاج الى دراسة ، فهو صاحب مذهب فقهي لا يقل في عمقه وفي صدقه عن المذاهب المشهورة ، وهو مذهب لم يجد من تلاميذ الثوري من يقوم على نشره وهو منشور أيضا في ثنايا كتب الفقه والتفسير والحديث .

ولعلنا نجد من شبابنا من يقوم بمهمة جمع آراء الثوري في الفقه ، فيكون لنا مذهب اتباعي من أصدق المذاهب وأخلصها .

وكان للثوري مسند في الحديث يحتوي على آلاف من أحاديث رسول الله ﷺ. والثوري ثقة في الحديث ، ولعلنا نجد أيضا من شبابنا من يتفرغ - ابتغاء مرضاة الله تعالى - لجمع أحاديث الثوري ، وإعادة مسنده من جديد...

نموذج من تفسيره :

عن مجاهد في قوله عز وجل :

[وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ] . (سورة البقرة الآية ١٦٦)

قال : توصلهم في الدنيا .

وعن أبي جعفر في قول الله تعالى :

[وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ] [سورة التوبة الآية ٦٠]

قال : الغارمين المستدينين بغير فساد .

وابن السبيل المجتاز من الأرض إلى الأرض .

وعن ابن عباس في قوله تعالى :

[أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِثِيًّا] . (سورة مريم الآية ٧٤)

قال : الأثاث المال ، والرثي المنظر .

وعن عكرمة قال : سئل ابن عباس :

أكان الليل قبل أو النهار..؟ فقرأ :

[أُولَئِكَ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا

فَفَتَقْنَاهُمَا] . (سورة الأنبياء الآية ٣٠)

ثم قال : هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك ليعلموا أن الليل قبل النهار .

وعن مجاهد في قوله :

[سِيَّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ] . (سورة الفتح الآية ٢٩)

قال : الخشوع والتواضع .

الإمام ابن قتيبة وتفسيره

هو الإمام العالم الفاضل أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري وقيل الروزي ، الإمام النحوي اللغوي المصنف في فنون التفسير والحديث وغيرهما من الفنون . ولد سنة ٢١٣ هـ

وسكن بغداد ، وحدث بها عن ابن راهويه ، وتلمذ للكثير من المشاهير كمسلم بن قتيبة والده ، والقاضي يحيى بن أكثم وأبي حاتم السجستاني وشيابة بن سوار والجاحظ .

وروى عنه ابنه أحمد وابن درستويه وغيرهما ، وأخذ عنه العلم كثير من العلماء كأحمد بن مروان المالكي . وقاسم بن إصبع الأندلسي وأبو القاسم عبد الله بن محمد الأزدي وغيرهم .

تولى ابن قتيبة قضاء الدينور مما يدل على غزارة علمه وسعة فضله وتفرغ للبحث والدراسة والجمع والتحصيل ، ثم مارس التأليف فطال فيه بابه ، وظهر به فضله ، وكان من كبار المجتهدين ، ومن مؤلفاته الهامة مايلي :

أدب الكاتب .

عيون الأخبار .

تأويل الحديث .

تأويل مشكل القرآن .

غريب القرآن .

المعارف .

الشعر والشعراء .

الإختلاف في اللفظ والرد على الجهمية .

وبهنا من هذه الكتب ما يتصل بالتفسير وعلومه حيث تبدو خدمته
للقرآن واضحة ، ومنهجه في تأويل الكتب المتصلة بعلومه سليما غاية
السلامة ، نافعا كل النفع .

وقد تحدث ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن عن القرآن فقال : -
الحمد لله الذي نهج لنا سبيل الرشاد ، وهدانا بنور الكتاب ، ولم يجعل
له عوجا ، بل نزله قويا ، مفصلا بينا .

[لَأَيَاتِهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ
حَكِيمٍ حَمِيدٍ] . (سورة فصلت الآية ٤٢)

وشرفه وكرمه ، ورفعه وعظمه ، وسماه روحه ورحمة ، وشفاء ، وهدى
ونورا .

وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين ، وأبانه بمعجيب النظم عن
جيل المتكلفين وجعله متلوا لا يمل على طول التلاوة ، ومسموعا لا تمجه
الآذان ، وغضا لا يخلق على كثرة الرد وعجيبا لا تنقضى عجائبه ، ومفيدا
لا تنقطع فوائده . . . ونسخ به سالف الكتب ، وجمع الكثير من معانيه في
القليل من لفظه ، وذلك معنى قول رسول الله ﷺ :
(أوتيت جوامع الكلم) .

فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر قوله سبحانه :

« خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » .

كيف جمع له بهذا الكلام كل خلق عظيم ، لأن في أخذ العفو صلة
القاطعين والصفح عن الظالمين ، وإعطاء المانعين .

وفي الأمر بالعرف تقوى الله ، وصلة الأرحام ، وصون اللسان عن
الكذب وغض الطرف عن الحرمات .

وانما سمي هذا وما أشبهه عرفاً ومعروفاً لأن كل نفس تعرفه ، وكل قلب يطمئن إليه .

وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم ، وتتزيه النفس عن ممارسة السفيه ، ومنازعة اللجوج . .

ويستطرد في التمثيل لإيجاز القرآن في اللفظ مع وفرة المعاني التي تدل عليها الألفاظ القليلة . . وما ذكره في ذلك قوله تعالى :

[وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ؟ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ؟ . (سورة يونس الآية ٤٢ ، ٤٣)

كيف دل على فضل السمع على البصر ، حين جعل مع الصمم فقدان العقل ولم يجعل مع العمى إلا فقدان النظر .

وكان من المنافحين عن لغة العرب ، الكاشفين عن أسرارها ، الموضحين لمزاياها وخصائصها وانه يقول عن العرب وما خصهم الله به من العارضة والبيان واتساع المجال .

وانما يعرف فضل القرآن من كثرة نظره ، واتساع علمه ، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب : وما خص الله به لغتنا دون جميع اللغات ، فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان ، واتساع المجال ما أوتيته العرب خصيصاً من الله لما أَرهضه في الرسول ، وأراده من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب ، فجعله علمه ، كما جعل علم كل نبي من المرسلين من أشبه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه :

ويطول بنا المقام لو استعرضنا ما ذكره من أمثلة على ذلك ، ويكفيها هنا

قوله :

ولو أن قائلًا قال : هذا قاتل أخى بالتنوين ، وقال آخر : هذا قاتل أخى بالإضافة لدل التنوين على أنه لم يقتله ، ودل حذف التنوين على أنه قد قتله :

ويتعرض ابن قتيبة لبعض المعاني المقصودة من الآيات التي عجز عن فهمها كثير من الناس ، وظن البعض أنها تعارض العقل .

ومن أجمل ما ذكره في ذلك ردا على ما قيل عن تكرار الكلام والزيادة ، وما يقوله في ذلك .

وأما تكرار الأنبياء والقصص ، فإن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوما « أجزاء متفرقة » في ثلاث وعشرين سنة ، بفرض بعد فرض تيسيراً منه على العباد ، وتدرجاً لهم إلى كمال دينه ، ووعظ بعد وعظ ، تنبيهاً لهم من سنة الغفلة ، وشحذاً لقلوبهم بمتجدد الموعظة ، وناسخ بعد منسوخ ، استعباداً لهم ، واختباراً لبصائرهم يقول الله عز وجل :

[وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً] .

(سورة الفرقان الآية ٣٢)

الخطاب للنبي ﷺ والمراد والمقصود به بالثبوت أنه هو والمؤمنون . وكان رسول الله ﷺ يتخول أصحابه بالموعظة مخافة السامة عليهم أي يتعهدهم بها عند الغفلة ودثور القلوب .

ولو أتاهم القرآن نجماً واحداً لسبق حدوث الأسباب التي أنزله الله بها ، ولثقلت جملة الفرائض على المسلمين ، وعلى من أراد الدخول في الدين ، ولبطل معنى التنبيه ، وفسد معنى النسخ ، لأن المنسوخ يعمل به مدة ثم يعمل بناسخه بعده .

وكيف يجوز أن ينزل القرآن في وقت واحد . افعلوا كذا ولا تفعلوا . . ولم يفرض الله على عباده أن يحفظوا القرآن كله ، ولأن يختموه في التعلم ، وإنما أنزله ليعملوا بحكمه ، ويؤمنوا بمتشابهه ، ويأتمروا بأمره ، وينتهوا بجزره ، ويحفظوا للصلاة مقدار الطاقة ويقرأوا فيها الميسور .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم وهم مصابيح الأرض ، وقادة الأيام بمنتهى العلم ، إنما يقرأ الرجل منهم السورتين والثلاث والأربع ، والبعض والشطر من القرآن الا انفرا منهم وفقهم الله لجمعه ، وسهل عليهم حفظه . .

وكانت وفود العرب ترد على رسول الله ﷺ ، فيقرئهم شيئا من القرآن فيكون ذلك كافيا لهم .

وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة ، فلم تكن الأنبياء والقصص مثناة ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى قوم ، وقصة نوح إلى قوم ، وقصة لوط إلى قوم .

فأراد الله بلفظه ورحمته أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ، ويلقيها في كل سمع ويثبتها في كل قلب ، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير . .

وليست القصص كالفروض ، لأن كتب رسول الله ﷺ كانت تنفذ إلى كل قوم بما فرضه الله عليهم من الصلاة ، وعددها وأوقاتها والزكاة وسننها ، وصوم شهر رمضان وحج البيت ، وهذا ما لا تعرف كيفية من الكتاب . . ولم تكن تنفذ بقصة موسى وعيسى ونوح وغيرهم من الأنبياء ، وكان هذا في صدر الإسلام قبل إكمال الله الدين ، فلما نشره الله عز وجل في كل قطر ، وبثه في آفاق الأرض ، وعلم الأكابر الأصاغر ، وجمع القرآن بين الثقيلين زال هذا المعنى واجتمعت الأنبياء في كل مصر ، وعند كل قوم . .

هذه بعض الملامح لتفكير ابن قتيبة وعلمه فيما يتصل بالقرآن . وكل

ما صدر منه في ذلك نبئ عن فكر ناضج ، وعلم واسع ، وحرص على الروح العلمية السليمة ، العاملة على كشف الشبهات ، وإزالة الأباطيل ، وبيان وجه الحق فيما تعرض له من شئون

وكان ابن قتيبة معنيا بالرد على الشبه التي تثار حول النصوص الدينية وخاصة من المعتزلة ونحوهم ملتزما للمنهج العلمي في ذلك ، فاستحق ثناء العلماء عليه .

قال ابن خلكان :

كان فاضلا ثقة سكن بغداد ، وحدث بها عن اسحاق بن راهويه وأبي اسحاق إبراهيم بن سفيان بن سليمان وأبي حاتم السجستاني وتلك الطبقة وتصانيفه كلها مفيدة .

وقال الذهبي في المغني عنه : صدوق .

وقال الخطيب : ثقة .

وكانت وفاته فجأة سنة ٢٧٦ هـ ، إذ أكل هريسة فأصابته حرارة فصاح صيحة شديدة ثم أغمى عليه ، ثم أفاق ، فإزال يتشهد حتى مات --
الله ونفع بعلمه ..

معاني القرآت لأب زكريا الفراء

كان والده زياد الأقطع محبا لآل البيت ، متفانيا في حبهم .
وكلمة « الأقطع » في إسم والده هي وسام شرف ألحق باسمه بسبب حبه
لآل البيت ، فقد قطعت يده في حربه مع سيد الشهداء الإمام الحسين رضي
الله عنه :

وإذا كان هناك من يسمى : أمير المؤمنين في الحديث - كسفيان
الثوري - فإنه كان يحلو لثعلب العالم الكوفي الكبير أن يسمى الفراء : أمير
المؤمنين في النحو وهو لقب استحقه الفراء يجدارة .

وإذا كان قد بلغ القمة في النحو ، فإن ابن خالته هو محمد بن الحسن
الفقيه الشيباني صاحب أبي حنيفة كان قمة في الفقه .

ومن أظهر أساتذة الفراء : علي بن حمزة الكسائي - في النحو ،
وسفيان بن عيينة في الفقه والحديث .

وكان الفراء معنيا بعلم القراءات - واجاده إجابة كبيرة وقد أخذه عن
الكسائي ، ومحمد بن حفص .

وهذه العقلية التي تمحضت - أو كادت - لدراسة علوم اللغة والنحو
وما إليها لا يأتي أن يكون عندها الاستعداد الفطري لعلم الكلام ولكن طموح
الفراء أبي إلا أن يحاول إتقان علم الكلام فإخفق وذلك لأن طبيعته هي طبيعة
النحويين ، وعن ذلك يقول أديب العربية أبو عمرو الجاحظ :

« دخلت بغداد سنة أربع ومائتين حين قدم إليها المأمون - وكان الفراء
يحبني ، ويشتهي أن يتعلم شيئا من علم الكلام ، فلم يكن له فيه طبع .

لقد أخفق في دراسة علم الكلام ، ولكنه كان يحب أن يشتهر بالإعترال
والفلسفة ، وليس له فيها قدم .

وأما تظاهره بذلك ، فإنما كان تقربا للمأمون . فإنه ما كان أحد يتقرب
منه إلا إذا كانت له ميول إعترالية ، ومرن لسانه على استعمال مصطلحات
فلسفية .

ومع إخفاقه في علم الكلام ، فإنه برع في علوم كثيرة ، يقول ثمامة بن
اشرس - وهو من أئمة المعتزلة ، وكان مقربا من المأمون - يقول عن الفراء :
رأيت له أبهة أدب فجلست إليه ، فناقشته عن اللغة ، فوجدته بحرا
وعن النحو ، فشاهدته نسيجا وحده ، وعن الفقه : فوجدته فقيها عارفا
باختلاف القوم ، وفي التجويز : ماهرا ، وبالطب : خبيرا ، وبإيام العرب
واشعارها : حاذقا .

واشتهر الفراء وذاع صيته ، فاستدعاه الرشيد ، وأنس له ، وجنى الفراء
من وراء ذلك ثروة ومنزلة فألف التردد على أبواب الأمراء والملوك فقد اتصل
بالمأمون ، ويروى المؤرخون له أن المأمون عهد إليه أن يؤلف ما يجمع به أصول
النحو ، وما سمع من العرب ، فأمر أن تفرد له حجرة من حجر الدار . ووكل
بها جوارى ، وخدمها للقيام بما يحتاج إليه حتى لا يتعلق قلبه ، ولا تشوق نفسه
إلى شيء حتى أنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلاة ، وصير له الوراقين ، والزمه
الأمناء والمنفقين ، فكان الوراقون يكتبون حتى صنف كتاب الحدود ، وأمره
المأمون بكتبه في الخزائن .

وأنس المأمون به كما أنس الرشيد ، وأدناه المأمون إلى درجة أن وكل إليه
تعليم أبنائه ومع أنه كان يتردد على أبواب الأمراء والوجهاء والملوك ، فقد
كانت له ميزات حسنة نذكر منها :

أنه كان متقشفا بطبيعته ، وكان المال الذي يأتيه في أثناء العام يجمعه إلى
موعد معين يفارق فيه بغداد إلى الكوفة ، حيث أهله وعشيرته فيمكث بالكوفة

أربعين يوماً بين أهله وعشيرته يتفقد أحوالهم ويتودد إليهم وينفق عليهم ما دخره أثناء العام ، ثم يعود من جديد إلى بغداد . . .

وصلة الأرحام من أنفس القربات في دين الإسلام الحنيف ومن الأمور التي تذكر بالخير للفراء هذا الموقف الكريم .

يروى ابن التديم خبراً يحكيه أبو العباس ثعلب أن السبب في إملاء الفراء « الحدود » هو أن جماعة من أصحاب الكوفيين صاروا إليه وسألوه أن يمل عليهم أبيات النحو ففعل ، فلما كان المجلس الثالث قال بعضهم لبعض : إن دام هذا على هذا علم النحو الصياني والوجه أن يقعد عنه :

فغضب وقال : سألوني القعود - يعني للمحاضرة والأملاء - فلما قعدت تأخروا ، والله لأملين النحو ما اجتمع اثنان - فأملى ذلك ست عشرة سنة ! ووثق به المأمون وبعلمه ، فاعذبه معلماً لاولاده .

ونأتي الآن إلى (كتاب المعاني) ويذكر ثعلب أن السبب في تأليفه أن عمر بن بكير كان من أصحابه ، وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل ، فكتب إلى الفراء أن الأمير الحسن بن سهل ربما سألتني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرنى فيه جواب ، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً ، أو تجعل في ذلك كتاباً أرجع إليه فعلت !

فقال الفراء لأصحابه :

اجتمعوا حتى أملى عليكم كتاباً في القرآن - وجعل لهم يوماً حضروا فخرج إليهم ، وكان في المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة وكان يكتب عن الفراء الوراقون - وهم تجار الكتب - ومع أن عدد من كان يحضر الدرس لا يكاد يحصى فإن الذي حرص على الكتابة هم : الوراقون ولما انتهى الفراء من الإملاء خزن الوراقون الكتاب لبيعوه بثمن مرتفع جداً ، وشكا الناس إلى الفراء فاحضر الوراقين وأخذ يتحدث معهم في خفض ثمن النسخ فلم يفلح معهم وذلك لجشعهم .

لقد أعلنوا أنهم ينسخون الخمس ورقات بدرهم ، ولم يجد معهم الحديث الإنساني !

وعند ذلك أعلن الفراء أنه سيملى من جديد ، وبدأ فعلا ، وجاء الناس باقلامهم ومحابرهم ولما رأى الوراقون ذلك أتوا إلى الفراء ورضوا أن ينسخوا كل عشر ورقات بدرهم ، وتم الاتفاق على ذلك .

وعن هذا التفسير بقول ثعلب :

« لم يعمل أحد قبله مثله . ولا أحسب أن أحدا يزيد عليه » .

وقد كان من الطبيعي أن الفراء كان مهتما - وفي الدرجة الأولى - بالنحو كعلم له خطره . من بين العلوم ، ثم استخدمه في تفسير القراءات وتعليل وجوهها من العربية ويمكن أن يقال إن اهتمامه الزائد بالقراءات هو الذي جعله يهتم اهتماما مماثلا بالنحو ! والقراءات ليست علما للعلم فقط . وإنما هي مرتبطة بالمعنى ارتباطا وثيقا ، ومن هنا كان اهتمام كثير من المفسرين بها .

وكما اهتم بالقراءات وبالنحو ، فإنه اهتم بأسباب النزول واهتم من قبل ذلك ومن بعد يجال الأسلوب القرآني ، وبالمعنى اهتماما كبيرا ، وما كان ذلك إلا من أجل الدققة في بيان المعنى لتقريره .

نماذج من تفسيره :

ونذكر هنا عددا من النماذج المختصرة :

ففي مجال اهتمامه بتوجيه القراءات وماتدل عليه من معنى يذكر في تفسير قوله تعالى من سورة النجم .

[الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ] .

(الآية ٣٢)

يقول : قرأ يحيى بن وثاب « كبير » وفسر عن ابن عباس أن كبير الإثم هو : الشرك فهذا موافق لمن قرأ « كبير الإثم » بالتوحيد - بمعنى : الإفراد دون

الجمع «كباثر» - ... ثم يقول الفراء : وقرأ العوام : كباثر الإثم
والفواحش - فيجعلون كباثر كأنه شيء عام وهو في الأصل واحد ، وكافي
استحب لمن قرأ «كباثر» أن يخفض «الفواحش» ... قال الفراء : وما
سمعت أحدا من القراء خفض «الفواحش» ...
وعن جمال الأسلوب القرآني الذي يكشف عنه الفراء نجد تفسيراً لقوله
تعالى :

[وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا . . . فَأَثَرْنَ بِهِ
نَقْعًا . . .] (سورة العاديات الآية ١ ، ٢ ، ٤)

قال : يريد به الوادي - ولم يذكر «الوادي» قبل ذلك وهو جائز لأن
الغبار لا يثار إلا من موضع . وإن لم يذكر إذا عرف اسم الشيء كفى عنه ، وإن
لم يجر له ذكر .

قال الله تعالى :

[إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ] (سورة القدر الآية ١)

يعني القرآن وهو مستأنف سورة ، وما استأنفه في سورة إلا كذكره في آية
قد جرى ذكره فيما قبلها كقوله [حَمَّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ] .

وقال تبارك وتعالى :

[إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ
بِالْحِجَابِ] (سورة ص الآية ٣٢)

يريد : الشمس ، ولم يجر لها ذكر .

وفي مجال اهتمام الفراء بالصناعة النحوية نجد له بعض النواذر الجميلة .
في قوله تعالى :

[وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ] .

(سورة الزمر الآية ٨٠)

يقول الفراء : نسي ما كان يدعو إليه : ترك الذي كان يدعوه إذا مسه الضر ، يريد الله تبارك وتعالى .

فإن قلت فهلا قال : نسي من كان يدعوه ، قلت : إن « ما » قد تكون في موضع « من » قال الله تبارك وتعالى :

[قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ .

مَا أَعْبُدُ] . (سورة الكافرون الآية ١ ، ٢ ، ٣)

يعني الله تبارك وتعالى .

وقال عز وجل .

[فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ] .

(سورة النساء الآية ٣)

فهذا وجه وبه جاء التفسير - ومثيله : « أن تسجد لما خلقت بيدي » وقد يكون نسي ما كان يدعو إليه يراد به :

نسي دعاءه إلى الله عز وجل من قبل ، فإن شئت جعلت الهاء في قوله « إليه » .

وإن شئت جعلتها لله عز وجل ، وكل مستقيم . . .

نفع الله الناس بتفسير الفراء وبعلمه الغزير .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه .

الإمام سهل بن عبد الله التستري وتفسيره

من أعلام العلماء ، وائمة التصوف . الزاهد الورع . والعايد المتقشف ،
أبو محمد سهل بن عبد الله التستري ، ولد في تستر بالأهواز سنة ثلاث ومائتين
من الهجرة وعاش في القرن الثالث الهجري ، ذلك القرن الذي حفل بالأئمة
الكبار في كل فن من الفنون .

نشأ سهل فوجد امامه في جنح الليل خاله محمد بن سوار ، قائما يتبتل
إلى الله ويضرع إليه ويناجيه ، يصلي في خشوع ، ويدعو في خضوع ، ويقضي
الليل ساهرا في عبادة خاشعة آسرة ، جذبت سهلا إليه ، وربطته به ، وحببته
فيه .

ومرت أيام فإذا بالخال يقول :

يا سهل : ألا تذكر الله الذي خلقك ؟

قال سهل : يا خال ، كيف أذكره ؟

فقال الخال : قل بقلبك عند قلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن

تحرك به لسانك : « الله شاهدي ، الله معي ، الله ناظر إلي »

يقول سهل : فقلت ذلك ثلاث ليال ثم أعلمته به ، فقال لي : قل في

كل ليلة سبع مرات فقلت ذلك ثم أعلمته ، فقال : قل في كل ليلة : احدى

عشرة مرة ، فقلت ذلك ، فوضع في قلبي له حلاوة ، فلما كان بعد سنة قال

لي خالي :

إحفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا

والآخرة .

واستمر سهل على ذلك سنين ، ووجد حلاوة للعبادة . وأحسن بهذه الحلاوة تملأ جوانحه وتسرى بين كل ثنايا شعوره ، وتملك عليه جميع أقطار نفسه ، ولما تعود الذكر وتمرس به وأصبح له وردا ، وأصبح له غذاء ، توجه إليه خاله قائلا :

ياسهل : من كان الله معه . وهو ناظر إليه . وشاهده . أيعصيه ؟
إياك والمعصية ؟

ولكن كيف يتجنب المعصية وهي أمامه في كل شيء إنها في الطريق ، إنها في العمل إنها في كل مجال . إن عليه أن يهيئ نفسه ويعدها اعدادا كاملا للخير ، ومن أجل ذلك اعتزل ، وتفرغ للعبادة والتهجد والذكر وكان لا يزال صغيرا لم يذهب إلى الكتاب بعد . . .

وأرسلوه إلى الكتاب ، فاشترط ان يكون ذهابه ساعة من نهار حتى لا ينفرد عقد عبادته ، ولا يتشتت ذهنه .

وذهب إلى الكتاب . وضم إلى العمل العلم ، وإلى الذكر فيوضات الخير النابعة من داخل القلب ، لقد حفظ القرآن ، وتفقه في امور الشرع

لقد حفظ القرآن وهو ابن ست سنين ، وشغله الذكر والاستغراق في العبادة عن متطلبات الحياة المادية العادية .

لقد تغذى بالذكر فخف احتياجه إلى ماسواه ، وكان يكتفي بخبز الشعير ، وكان يأكل أقل القليل منه .

يقول الإمام ابن عربي ، صاحب الفتوحات المكية . . .

رحل إلى عبادان ، وتوجه إلى شيخ من كبار الشيوخ ، فسأله عن مسألة فأجابه ، فأعجب به ، ولزم خدمته ، وأقام عنده مدة ينتفع بكلامه ويتأدب بأدابه ، ولما حصل ماشاء الله له من علوم الشيخ عاد إلى تستر ، واشتهر في مقام الزهد والتهجد والعبادة .

ثم أخذ في السياحة إلى شتى الأقطار ، وزحل إلى كثير من البلدان ،
وقابل العديد من الأولياء والعلماء .

لقد حصل العلم بسلوكه ، وحصل العلم بتلقيه ومدارسته . لقد ضم إلى
الشريعة الحقيقة ، واستمرت سياحته سنين ، وعاد إلى تستر . . . عاد إليها على
نور من ربه ، وبدأ دعوته إلى الله على هدى وبصيرة ، ولم يبدأ الدعوة إلى الله
إلا بعد أن أذن الله له .

يقول صاحب كتاب صفة الأولياء ومراتب الأصفياء :

ذكر سهل التستري ، وهو ابن سبع سنين وساح في طلب العلم وهو ابن
تسع سنين وكالت تلقى مشكلات المسائل على العلماء ثم لا يوجد جوابها إلا
عنده وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وحينئذ ظهرت عليه الكرامات .

وبلغ سهل النضوج العلمي والنضوج الروحي بتوفيق الله تعالى بعد جهاد
ومجاهدة بعد ذكر وعبادة ، بعد صوم وسياحة ، وحينما أذن الله له في الدعوة
إليه ، أخذ يدعو إلى الله على بصيرة ، ويرسم الطريق إليه على هدى .

ولم تقتصر دعوته إلى الله على التربية وتعليم السلوك ، ولم تقتصر دعوته على
القول والموعظة الحسنة ، لقد ترك مؤلفات قيمة في مجالات متعددة ،
وشارك في أنواع من العلوم - ومن أشهر كتبه . . .

رقائق المحيين .

مواظع العارفين .

جوابات أهل اليقين .

قصص الأنبياء .

هذا فضلا عن تفسيره المشهور .

ولقد امتاز سهل بتعظيمه للسنة ، وبتعظيمه للشريعة .

لقد ذهب إلى أبي داود - صاحب السنن زائرا - واستقبله أبو داود في

احترام واعزاز . وقبل سهل فم أبي داود ، لأنه ينطق بالسنة ويبلغها للناس .
وأبان سهل بذلك عن تواضع جم ، واحترام عميق للسنة ولمن يخدمون
السنة .

ومن كلماته الحكيمه الدالة على كمال الاقتداء :

« ما عبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى »

« ما أعطى أحد شيئاً أفضل من علم يستريد افتقاراً إلى الله »

وكانت وفاته بالبصرة سنة ثلاث وثمانين ومائتين بعد حياة مباركة ،

رحمه الله ونفع به .

« تفسير سهل بن عبد الله التستري »

هذا التفسير من التفاسير التي تمثل بحق التفسير الصوفي للقرآن الكريم .
فؤلفه له القدم الثابتة في مجال السلوك الصوفي القائم على أساس من الشريعة
والاقتداء بالرسول ﷺ .

وقد تكلم على بعض آيات من القرآن مبينا ما ألهمه بشأنها .

وقد جمع أقواله أبو بكر بن أحمد في كتاب « عرف » بتفسير التستري ،
وهو هذا التفسير الذي نعرفه الآن ، والذي طبع في كتاب متوسط الحجم
باسم . . « تفسير القرآن العظيم » .

والناظر في هذا التفسير - يلمح عليه دلائل التفسير الصوفي المستقيم -
ويرى فيه تحقيق قول المؤلف . .

« أصولنا سبعة . . التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسول الله
ﷺ وأكل الحلال . وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء
الحقوق .

لقد سار سهل في إطار القرآن ، وعرف مقاله الأئمة أو كثير من الأئمة في
تفسير الآيات ، ولكن القرآن لا يمكن أن يحيط أحد بأقطاره ، ولا يمكن أن
تكون المعاني اللغوية الضيقة هي كل ما عبر عنه القرآن ، إنها - إن عبرت -
فإنها تعبر عن ظاهر .

ولكن القرآن الكريم ليس هو ما يظهر للناظر منذ الوهلة الأولى .

إن وراء ظاهره أسراراً لا تتعارض مع هذا الظاهر ، ولكنها توضحه
وتجعله نافذاً إلى القلوب جاذباً للنفوس ، أسراً للأرواح . إنها ما عبر عنه
الرسول ﷺ بقوله :

(لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حرف ، حد ومطلع)

ويرى سهل أن ظاهر الآية التلاوة ، وباطنها الفهم ، وحدها الحلال والحرام ومطلعها : اشراق القلب على المراد بها فقها من الله عز وجل ، فالعلم الظاهر علم عام والفهم لباطنه ، والمراد به خاص ، قال تعالى :
[فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا]

(سورة النساء الآية ٧٨)

« أى لا يفقهون خطابا . وتفسيره على هذا الأساس يتجه إلى بيان بعض ما تشتمل عليه الآيات من إشارات ، وما تدل عليه من الهامات . فيبرز بعض ما يفهمه من دلائل هذه الآيات .

وقد تحدث كثير من العلماء عن هذا النوع من التفسير .

ويرى إمام ابن الصلاح أن ماورد عن الصوفية المعتبرين من التفسير لم يذكره الصوفى على أنه تفسير للآية ولا ذهب به مذهب الشرح لها ، وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ماورد به القرآن فإنه النظير يذكر بالنظير .

أما ابن عطاء السكندرى الصوفى الشهير فإنه يوضح المفهوم الحقيقى لهذا النوع من التفسير « التفسير الصوفى » فيقول :

إعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني الغريبة ليس إحالة لظاهر عن ظاهره ، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ، ماجلبت له الآية ودلت في عرف اللسان ، وثم افهام باطنه تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه ، وقد جاء في الحديث :

« لكل آية ظهر وبطن »

ثم يرد على من يقول :

إن في هذا النوع من التفسير إحالة لكلام الله وكلام رسوله وصرفا لها عن معانيها وما يقصد بهما ، فيقول :

ليس ذلك بإحالة ، وإنما يكون إحالة لو قالوا :

لا معنى للآية إلا هذا وهم لم يقولوا ذلك ، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مرادا بها ، موضوعاتها ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم .

هذا هو الذى نراه فى هذا النوع من التفسير كتفسير سهل بن عبد الله . إن سهلا لم يقم بتفسير تقليدى ، يتبع فيه القرآن ، ويؤلف فيه تفسيرا شاملا يجمع ما استطاع جمعه من المعانى اللغوية والشريعة والأخلاقية والكونية ، وما إلى ذلك من المجالات التى تحدث عنها القرآن .

لقد تحدث عما أحس به من آثار وقوع الآية على قلبه ، وما نضح به شعوره المؤمن فى هذا المجال ، ولم يقل إن هذا تفسير كما يقول المفسرون ولم يقل إنه التفسير الوحيد الذى لا تقبل الآية سواه .

على أن سهلا - رحمه الله - لم يقتصر فى تفسيره على الجانب الإشارى من القرآن الكريم .

لقد ذكر فى أحيان كثيرة المعنى الظاهر للآية ، والذى شاركه فيه أكثر المفسرين قبل أن يذكر المعنى الإشارى أو بعض ما يرى أنه المعنى الإشارى ؟ ولقد اقتصر فى أحيان أخرى على المعنى الظاهر ، ولم يتحدث عن معنى إشارى وفى أحيان أخرى اقتصر على المعنى الإشارى لوضوح المعنى الظاهر أو شهرته متداولاً بين الناس .

أنظر إليه عند تفسير قوله تعالى :

[ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي

النَّاسِ] . (سورة الروم الآية ٤١) يقول :

« مثل الله الجوارح بالبر ، ومثل القلب بالبحر وهو أعم نفعا وأكثر خطرا » هذا هو باطن الآية ، ألا ترى أنه سمى قلبا لتقلبه وبعد غوره .

وهذا التفسير صغير الحجم ، سهل المأخذ ، يحوى الكثير من الإشارات

اللطيفة التي لا تخالف ظاهر القرآن ، ومن الممكن أن تكون مما يشير إليه لفظ الآية ، ويحتمله معناها .

وقد جمع فيه كثيراً من حكايات الصالحين وأخبارهم ، ووجه الأنظار كثيراً إلى ما يذكر النفوس ويطهر القلوب ويسوق إلى الصلاح ومن نماذجه الطيبة :

سئل سهل عن قوله تعالى :

[وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ

تَدْرُسُونَ] . (سورة آل عمران الآية ٧٩)

قال محمد بن سوار :

الرباني الذي لا يختار على ربه أحداً سواه وهو اسم مشتق من الربوبية :

وقال سهل : الربانيون هم العالون في الدرجة من العلم بالعلم كما قال محمد بن الحنفية لما مات عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : لقد مات هذا اليوم رباني هذه الأمة وإنما نسب إلى الرب لأنه عالم من علمه ، كما قال : « من أنباك هذا ؟ » قال : نبأني العليم الخبير فنسبه إلى النبوة بما علمه الله عز وجل ، وكل من أنباك بنجر موافق للكتاب والسنة فهو مبنئ .

وقال عمر بن واصل : الربانيون هو المجموعون من العلماء ، كما قال علي رضي الله عنه :

الناس ثلاثة : عالم وباني ، ومتعلم على سبيل النجاة . وهمج رعاع أتباع كل ناعق .

قوله سبحانه :

[وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوت] .

(سورة الفرقان الآية ٥٨)

سئل ابن سالم عن التوكل والكسب بأيهما تعبد الخلق؟

قال : التوكل حال رسول الله ﷺ والكسب سنته ، وإنما سن الكسب لهم لضعفهم حين أسقطوا عن درجة التوكل الذي هو حاله . فلم يسقطهم عن درجة طلب المعاش بالكسب الذي هو سنته . ولولا ذلك لهلكوا . . .
قال سهل : من طعن في الكسب فقد طعن في السنة . ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان .



الإمام الطبري وتفسيره

إذا ماجئنا بالحديث عن ابن جرير الطبري وتفسيره فقد جئنا شيخ المفسرين بلا منازع لقد كان ابن جرير أدبياً ذا أسلوب - يندر أن يصل إليه فحول الأدباء ، لا تحس حينما تقرأه بتكلف أو تصنع بل تحس بالبلاغة والفصاحة تناسب إنسياب الماء الرقاق ، أو تهدير هدير الأعصار المحتاح ، وفي كلا الأمرين تكون بصدد الأسلوب المتقن الأسر .

وكان ابن جرير فقيها . صاحب مذهب في الفقه ، يؤسفنا أن لم يعن به أحد

وهذا المذهب الفقهي يصلح أن يعنى به أحد طلبة الدكتوراه فيكون رسالة نفيسة تفيد العلم وتلقى بأضواء نفاذة في الفقه الإسلامي .
وكان ابن جرير مؤرخاً من كبار المؤرخين ، وله تاريخه المستفيض المشهور ، وكان محدثاً من كبار المحدثين ، لقد كان أمة وحده .
ولنسر معه في تسلسل حياته وفي أقوال العلماء عنه وعن تفسيره ، فيكون ذلك تفصيلاً لما ذكرناه .

هو الإمام المفسر المؤرخ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري
ولد بأمل سنة خمس وعشرين ومائتين ، واتجه منذ بواكير حياته إلى طلب العلم ودراسة علوم الدين ، فحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وكتب الحديث وهو ابن تسع سنين ، ورحل في طلب العلم إلى كثير من مدن الإسلام ملتقياً بعلمائها ، متعرفاً على أخبارها ، متزوداً مما تذخر به من ألوان الثقافة ، حتى توفر له من المراجع والمعارف ما يمكنه من تأليف الكتب النافعة الجامعة التي خلدت اسمه ، ورفعت ذكره ، ووضعته في مكانه البارز بين علماء الإسلام .

لقد رحل إلى الري فسمع بها محمداً بن حميد الرازي وغيره من مشاهير
المحدثين .

ثم انتقل عنها إلى البصرة فسمع محمداً بن نعل . ومحمداً بن بشار
المعروف ببندار . .

ثم رحل إلى الكوفة فسمع من هناء بن السري . وأبي كريب محمد بن
العلاء الهمداني وانتهى به المسير في بلاد العراق إلى بغداد فنهل مما تذخر به من
علم . واستفاد مما تجتوى عليه من ألوان الثقافة الدينية .

وتجاوز بغداد إلى الشام فقرأ القرآن على العباس بن الوليد البيروني بقراءة
الشاميين واستفاد منه . . .

ثم انتهى به المسير إلى مصر فلقى بها من مشاهير العلماء محمداً بن
عبد الله بن الحكم والمزني ومحمداً بن اسحاق بن خزيمه وتلاميذ بن وهب .
وعاود رحلة العودة إلى طبرستان ثم انقطع للتدريس ببغداد حتى وافته منيته في
عشية الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلثمائة . دفن في داره برحبة
يعقوب ولم يغير شيه . .

صنف الكثير من الكتب مثل .

كتاب التفسير .

وكتاب التاريخ .

وكتاب اختلاف الفقهاء .

وكتاب تهذيب الآثار

وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار وهو الذي سماه القفطي شرح
الآثار .

وكتابه ذيل المذيل . .

وقد طبع تفسيره وتاريخه وشطر من كتاب اختلاف الفقهاء ومختارات من
ذيل المذيل . . .

وقد استفاد العناء في الحديث عن ملامح شخصيته ومعالم حياته في
شئى الجوانب ومختلف الاتجاهات .

وقال الخطيب :

كان ابن جرير أحد الأئمة . يحكم بقوله . ويرجع إلى رأيه . لمعرفة
وفضله . جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره . فكان حافظاً
لكتاب الله بصيراً بالمعاني فقيهاً في أحكام القرآن . عالماً بالسنن وطرقها .
صحيحها وسقيمها . وناسخها ومنسوخها . عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين .
ومن بعدهم من المخالفين في الأحكام . ومسائل الحلال والحرام عارفاً بأيام
الناس وأخبارهم .

وقال أبو العباس بن سريج :

(محمد بن جرير الطبري فقيه العالم) : أما عن تفسيره فقد ظهر فيه :

١ - تحرزه قبل تأليفه .

٢ - ونشاطه في إعداده .

٣ - وسروره بإتمامه .

لقد ظهر تحرزه في قوله استخرت الله تعالى في عمل كتاب التفسير .
وسأله العون على ما نويته ثلاث سنين قبل أن عمله . فأعانتى . . .

وذكر المؤرخون أنه حدث نفسه بهذا التفسير وهو صبي . واستخار الله في
عمله . وسأله العون على ما نواه ثلاث سنين قبل أن يعمل . فأعانه سبحانه .

ثم لما أراد أن يملئ تفسيره قال لأصحابه :

(أنتشطون لتفسير القرآن ؟) . . .

قالوا وكم يكون قدره ؟ . . .

فقال : ثلاثون ألف ورقة .

فقالوا : هذا مما تفتى الأعمار قبل تمامه ،

فاختصره لهم في ثلاثة آلاف ورقة . . .

والناظر في هذا التفسير يلمح ما بذله ابن جرير من جهد كبير في إتمامه ،
لقد اعتنى فيه بجمع الآثار ، وتحقيق الأخبار ، ومدلولات اللغة ، وأحكام
الشرع ، وأبدى رأيه مرجحاً وموضحاً وفتحاً المجال للاجتهد والاختيار . . .

وقد قدم لتفسيره بعد الحمد والثناء والصلاة على خاتم الأنبياء فقال : ثم
أما بعد : فإن من جسيم ما خص الله به أمة نبينا محمد ﷺ من الفضيلة ،
وشرفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة ، وحباهم به من الكرامة
السنية ، حفظه ما حفظ عليهم - جل ذكره وتقدس أسماؤه - من وحيه
وتزويله ، الذي جعله على حقيقة نبوة نبيهم ﷺ دلالة ، وعلى ما خصه به من
الكرامة علامة واضحة ، وحجة بالغة ، أبانه به من كل كاذب ومفتر ،
وفصل به بينهم وبين كل جاحد وملحد وفرق بينهم وبين كل كافر ومشرک ،
الذي لو اجتمع جميع من بين أقطارها جنها وانسها ، وصغيرها وكبيرها ، على
أن يأتوا بسورة من مثله لم يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . . . فجعله
لهم في دجى الظلم نوراً ساطعاً ، وفي سدف الشبه شهاباً لامعاً وفي مضلة
المسالك دليلاً هادياً وإلى سبل النجاة والحق حادياً . . .

[يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم
مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] .

(سورة المائدة الآية ٦١)

حرسه بعين منه لاتنام ، وحاطه بركن منه لا يضام ، لا تهى على الأيام
دعائمه ولا تبيد على طول الأزمان معالمه ، ولا يجوز عن قصد المحجة
تابعه . ولا يضل عن سبل الهدى مصاحبه ، من اتبعه فاز وهدى ومن حاد
عنه ضل وغوى ، فهو موئلهم الذي إليه عند الاختلاف يثلون ومعقلهم الذي

إليه في النوازل يعقلون ، وحصنهم الذي به من وساوس . الشيطان يتحصنون
وحكمة ربهم التي إليها يحتكمون ، وفصل قضائه بينهم الذي إليه ينتهون ، وعن
الرضا به يصدررون وحبله الذي بالتمسك به من الهلكة يعتصمون . . .

ثم تحدث عن بعض مهات تتعلق بالقرآن بين يدي تفسيره . . .

فتحدث عن إتقان معاني اى القرآن ومعاني منطق من نزل بلسانه القرآن
من وجه البيان والدلالة على أن ذلك من الله تعالى ذكره هو الحكمة البالغة ،
مع الإبانة عن فضل المعنى الذي به باين القرآن سائر الكلام .

ثم فصل القول في البيان عن الأحرف التي اتفقت فيها ألفاظ العرب
وألفاظ غيرها من بعض أجناس الأمم . . .

ثم تكلم عن اللغة التي نزل بها القرآن من لغات العرب .

ثم تحدث عن قول رسول الله ﷺ : أنزل القرآن من سبعة أبواب الجنة
وذكر الأخبار الواردة بذلك . . . ثم فصل القول في الوجوه التي من قبلها يوصل
إلى معرفة تأويل القرآن .

ثم ذكر بعض الأخبار التي رويت بالنهي عن القول في تأويل القرآن
بالرأى .

ثم ذكر الأخبار التي رويت في الحض على العلم بتفسير القرآن ومن كان
يفسره من الصحابة . . .

ثم ذكر الأخبار التي غلط في تأويلها منكرو القول في تأويل القرآن .

ثم ذكر الأخبار عن بعض السلف فيمن كان من قدماء المفسرين محموداً
علمه بالتفسير ومن كان منهم مذموماً علمه به فن الحمودين ابن عباس يقول
عبد الله بن مسعود : « نعم ترجمان القرآن ابن عباس » . ومن المحمودين أيضاً
مجاهد يقول الثوري : « إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به » أما الذين لم
يكن لهم في التفسير قدم راسخة فمنهم الكلبي وكنت أمر عليه طرفي النهار

ولم أكتب عنه ومنهم ابو صالح باذان . كان الشعبي رضى الله عنه يمر به .
فياخذ بأذنه فيحركها ويقول :

[تفسر القرآن وانت لا تقرأ القرآن] .

ثم ذكر القول في تأويل أسماء القرآن وسوره وآيه .

وانتقل بعد ذلك إلى التفسير .

وهو في تفسيره يبدى رأيه ثم يستشهد عليه بالآثار والأخبار مستعينا في
ذلك بقواعد وأقوال السابقين . . .

فمن تأويل قوله تعالى :

[يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ] . (سورة البقرة الآية ٢١)

قال : فأمر جل ثناؤه الفريقين اللذين أخبر الله عن أحدهما أنه . . .
[سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ] .

(سورة البقرة الآية ٦)

لطبعه على قلوبهم وعلى سمعهم .

وعن الآخر أنه يخادع الله والذين آمنوا بما يبدى بلسانه من قبله : آمنا
بالله وباليوم الآخر ، مع استبظانه خلاف ذلك . ومرض قلبه . وشكه في
حقيقة ما يبدى من ذلك وغيرهم من سائر خلقه المكلفين . . . بالاستكانة
والخضوع له بالطاعة ، وأفراد الربوبية له والعبادة دون الأوثان والأصنام
والآلهة ، لأنه جل ذكره هو خالقهم وخالق من قبلهم من آباءهم وأجدادهم ،
وخالق أصنامهم وأوثانهم وآلهتهم فقال لهم جل ذكره : فالذى خلقكم وخلق
آباءكم . أجدادكم وسائر الخلق غيركم وهو يقدر على ضرركم ونفعكم أولى
بالطاعة ممن لا يقدر لكم على نفع ولا ضرر .

وكان ابن عباس فيما روى لنا عنه يقول في ذلك نظير ما قلنا فيه ، غير أنه

كان يقول في معنى « اعبدوا ربكم » . : وحدوا ربكم . . وقد دللنا على أن معنى العبادة الخضوع لله بالطاعة والتذلل بالاستكانة . . . والذي أراد ابن عباس - ان شاء الله - بقوله في تأويل قوله (اعبدوا ربكم) وحدوه . أى أفردوا الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه .

حدثنا محمد بن حميد قال حدثنا سلمة عن ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال الله :
[يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ] للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين ، أى وحدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم . .

ثم قال :

وهذه الآية من أدل دليل على فساد قول من زعم أن تكليف ما لا يطاق إلا بمعونة الله غير جائز إلا بعد إعطاء الله المكلف المعونة على ما كلفه . وذلك أن الله أمر من وصفنا بعبادته والتوبة من كفره بعد إخباره عنهم أنهم لا يؤمنون . وانهم عن ضلالتهم لا يرجعون .

وقوله (لعلكم تتقون) تأويله : لعلكم تتقون بعبادتكم ربكم الذى خلقكم وطاعتكم إياه فيما أمركم به ونهاكم عنه وافرادكم له العبادة لتتقوا . سخطه وغضبه أن يجعل عليكم ، وتكونوا من المتقين الذين رضى عنهم ربهم : وكان مجاهد يقول في تأويل قوله : « لعلكم تتقون » تطيعون . .

حدثنا ابن وكيع قال : حدثني أبي عن سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله (لعلكم تتقون) قال : لعلكم تطيعون . .

قال أبو جعفر : والذي أظن أن مجاهداً أراد به بقوله هذا لعلكم أن تتقوا ربكم بطاعتكم إياه ، وإفلاعكم عن ضلالتكم

من هنا استحق كتاب جامع البيان عن تأويل القرآن للطبرى ثناء العلماء . فقال ابن خزيمة :

نظرت فيه من أوله إلى آخره وما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير ولقد ظلمته الحنابلة .

وقال أبو حامد الاسفراييني :

لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً

وقال القفطي :

لم ير أكبر من تفسير الطبري ولا أكثر فوائد .

وقال السيوطي :

كتاب الطبري في التفسير أجل التفاسير وأعظمها فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض وثلاعراب وللاستنباط ، فهو يفوق بذلك تفاسير الأقدمين .

وقال السيوطي :

(جمع في تفسيره بين الرواية والراي) ولم يشاركه في ذلك أحد قبله ولا بعده .

وانتهت به الحياة كما قال ابن كامل عشية الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلثمائة ، ودفن في دار برجة يعقوب ، ولم يغير شبيهه ، وكان السواد في رأسه ولحيته كثيراً ، وكان أسمر إلى الأدمة أعين ، نحيف الجسم مديد القامة فصيحاً ، واجتمع عليه من لا يحصيه إلا الله تعالى ، وصلى على قبره عدة شهور ليلاً ونهاراً ، ورثاه خلق كثير من أهل الدين والأدب قال ابن دريد :

إن المنية لم تلتف به رجلا بل أتلفت علماً للدين منصوبا
كان الزمان به تصفو مشاربه والآن أصبح بالتكدير مقطوبا
كلا وأيامه الغر التي جعلت للعلم نوراً وللتقوى محاربا

رحم الله ابن جرير الطبري ، ونفع بعلمه :

معاني المترآت للزجاج

بدأ القرآن بالبحث عن العلم ، وكانت أول كلمة في الوحي هي :
« اقرأ » .

وأخذ المسلمون يندفعون حول العلم اتباعاً لتوجيه القرآن الكريم ، حتى ولو لم يكن عند البعض منهم الجو المهيأ لدراسة العلم .

وهذا واحد هو نموذج لفئة كبيرة من أمثاله ، لم تكن ظروفهم الأولى مواتية للتفرغ للعلم ، ولكنه جامد وثابر ، وبذل كل ما يستطيع حتى احتل المكانة التي يتمتع بها العلماء من جاه وثناء .

إنه أبو إسحاق الزجاج :

نشأ في بيئة متواضعة في القرن الثالث ، الهجري سنة إحدى وأربعين ومائتين من الهجرة ، ولكنها ذات خلق كريم فاضل ، وهيأته البيئة الأولى إلى أن يعمل في الزجاج . ومن هنا كانت نسبه المشهورة « الزجاج » التي يعرف بها بين كبار العلماء والأعلام .

كان يخرط الزجاج ، وقبل ذلك كان قد حصل شيئاً من العلم ، فكان يشتغل أثناء فراغه بالتعليم ، ولاحظ في نفسه ميلاً شديداً إلى دراسة النحو فكان يقتصد من قوته ، ويشتري من الوراقين بعض ما يمكنه من إرواء رغبته في كتب النحو ، يسهر في دراستها ليله ، ويقرأ فيها أثناء فراغه نهاراً .

ولما رأى نفسه معدة للفهم والتلقى عن العالم الكبير أحمد بن يحيى المعروف بثعلب « النحو » على مذهب أهل الكوفة - فأخذ الزجاج ينظم وقته بحيث يحضر درس هذا العالم الشهير .

ثم بعد ذلك انتقل إلى عالم كبير هو أبو العباس المبرد صاحب كتاب

الكامل الذي صارت شهرته في الآفاق - وثقف الزجاج من ثقافته الواسعة حتى أخذ في الظهور واتسعت شهرته لعلمه الغزير وخلقته الكريم ، وأدبه الجيم ، وعقيدته السليمة .

وقد استدعاه الوزير عبيد الله سليمان بن وهب ، وتحدث إليه فرأى علماً غزيراً ، وأدباً رفيعاً ، ونفساً متواضعة فلم يزدده علمه إلا تواضعاً وأدباً . إنه العلم النافع .

وأخذ الوزير يستدعيه من آن لآخر ، وفي كل مرة يزداد إعجابه حتى إذا ما وثق به تماماً وكل إليه تعليم ابنه القاسم - فن الأدب العربي .

ومضت السنوات ، وجاء الوقت الذي تولى الوزارة فيه : القاسم بن عبيد الله تلميذ الزجاج الوفي - فأغدق على الزجاج ما جعله ينعم بحياة أكثر ترفاً ونعيماً .

ولم تصرف هذه الحياة الزجاج عن الإستمرار في طلب العلم ، بل ربما مكنته من الإزدياد في طلبه . وكان شعاره هو الشعار الإسلامي :

[رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا] . (سورة طه الآية ١١٤)

وأخذت - لذلك - شهرته تنتشر وتذيع ، حتى طلبه الخليفة العباسي المكتفي بالله وانخرط الزجاج في مجلس المكتفي بالله ، ورأى المكتفي منه ما رآه الوزير من علم غزير وأدب كريم فجعله نديماً من ندمائة .

وأقبلت على الزجاج الدنيا من أوسع أبوابها ، ولكن ذلك لم يصرف الزجاج عن وجهته ، وإنما كان يجلس مدرساً ، والتف حوله العلماء يسمعون ويستفيدون ، وتعلمذ له كبار العلماء .

وكان من تلاميذه : أبو علي الفارسي ، صاحب الشهرة الكبيرة في اللغة والأدب ، وتعلمذ عليه الكثيرون الذين كان لهم الأثر البالغ في النحو واللغة . ومن أنفس ما ألفه الزجاج هو كتابه في تفسير القرآن :

لقد كتبه في فترة بلغ فيها قمة النضج الفكري من حياته ، واستغرق هذا التفسير حوالي ست سنوات وتفسيره هذا يمتاز بأمرين :

أحدهما : أنه تفسير بالمأثور ، وذلك أن الزجاج يذكر الآية . ثم يروى فيها ما أثر عن أسلافنا رضوان الله عليهم ، ولكنه لا يذكر ما روى فيها دون اختيار وانتقاء ، وإنما يختار الأحسن والأوفق الذى يتفق مع ما يراه يتمشى مع الأسلوب العربى السليم ومع الجوى الإسلامى العام ، فتفسيره بالمأثور لم يكن مجرد جمع عن السابقين ، وإنما كان إيراداً على روية وتدبير وتفكير .

أما الأمر الثانى الذى برع فيه الزجاج فهو : التخريج النحوى للآيات الكريمة التى تحتاج إلى إيضاح نحوى ، ومن هنا كان الزجاج يروى رغبته فى استمتاع بآدابها . .

والكتاب يطبع الآن لأول مرة فى طبعة محققة تحقيقاً متقناً ، وذلك ما يقوم به الدكتور عبد الجليل شلبى من علماء الأزهر ، وقد أخرج منه جزأين كبيرين ، وسيخرج الباقي تبعاً إن شاء الله وكان لهذا التفسير أثره الكبير فى من أتى من المفسرين من بعد :

لقد تأثر به مثلاً صاحب كتاب « الكشاف » الذى كان معنياً بالنحو والبلاغة .

وكما ناقش الزجاج من كتبوا قبله من معانى القرآن ، أو كتبوا فى مجازه وبلاغته ، فإن تلميذ الزجاج الامام : أبو على الفارسى قد أخذ نفسه - مع إعجابه باستاذة - يتبع كل ما أرى أن استاذة أخطأ فيه ، سواء كان الخطأ صريحاً أو خلاف الأرجح .

ثم أخذ يعرضها مسألة مسألة . ثم يعرض رأيه هو فيها محللاً وناقداً لها . وقد سمي كتابه اسماً له مغزاه . لقد سماه : « الاغفال » وكان مؤدباً فى التسمية مراعاة إلى استاذة ، أنه يريد أن يقول :

إن ملاحظه مجرد إغفال من استاذة ، وقال فى أوائل هذا الكتاب « الاغفال » هذه الكلمات المهذبة :

هذه مسائل من كتاب أبى اسحق فى اعراب القرآن ذكرناها لما اقتضت

عندنا من الايضاح عنها للإغفال الواقع فيها . . . ، ونحن نقل كلامه في كل مسألة من هذه المسائل بلفظه وعلى جملته عن النسخة التي سمعناها منه فيها ثم نتبعه بما عندنا . . . »

ومع هذا الأسلوب المهذب قد يتساءل إنسان فيقول :

مادام أبو علي الفارسي سمع التفسير من الزجاج فلم لم يناقشه اثناء الشرح والسماع ؟ والجواب عن ذلك :

قد تكون هبة الزجاج هي التي منعتة من ذلك ولكن الأقرب في الإجابة أن الفارسي لم يكن إذ ذاك قد وصل في النضج العلمي إلى الدرجة التي تمكنه من الملاحظات على استاذة فلما نضج بمرور الزمن رأى من الوفاء عليه لاستاذة أن ينبه على « الاغفال »

وهاهي نماذج من تفسيره : لقوله عز وجل :

[يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ] (سورة البقرة الآية رقم ٢٦٩)

معنى « يؤتي » يعطى ، والحكمة فيها قولان : قال بعضهم هي النبوة ، ويروى عن ابن مسعود أن الحكمة هي القرآن ، وكفى بالقرآن حكمة ، لان الأمة به صارت علماء جيلا بعد جيل ، وهو وصلة إلى كل علم يقرب من الله عز وجل ، وذريعة إلى رحمته ، ولذلك قال الله تعالى :

[وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا]

(سورة البقرة الآية رقم ٢٦٩)

ومعنى
[وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ]

أي مايفكر فكرا يذكر به ماقص من آيات القرآن إلا أولوا الألباب ، أي ذؤوا العقول .

وقوله عز وجل : [الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ]

هذا من نعت أولى الألباب ، أى فهؤلاء يستدلون على توحيد الله -- عز وجل -- بخلقه السموات والأرض وأنهم يذكرون الله فى جميع أحوالهم « قياما وفعودا وعلى جنوبهم » .

معناه ومضطجعين ، وصلح فى اللغة أن يعطف بعلى على « قياما وفعودا » لان معناه ينبئ عن حال من أحوال تصرف الإنسان ، تقول :

أنا أسير إلى زيد ماشيا وعلى الخيل . المعنى ماشيا وراكبا فهؤلاء المستدلون على حقيقة توحيد الله يذكرون الله فى سائر هذه الأحوال .

وقد قال بعضهم : [يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى

جُنُوبِهِمْ] (سورة آل عمران الآية ١٩١) . أى يصلون على جميع

هذه الأحوال على قدر امكانهم فى صحتهم وسقمهم .

وحقيقته عندى - والله أعلم - انهم موحدون الله فى كل حال .



تحصيل نظام القرآن

للحكيم الترمذى

إننا نعجل فنورد في مطلع الحديث عن الحكيم الترمذى قوله :
(ما صنعت حرفاً عن تدبير ، ولا لينسب إلى شيء من المؤلفات ،
ولكن كان إذا اشتد على وقتى اتسلى به . .) .

لقد تثقف في اللغة والدين والحكمة كأحسن ما يكون الثقيف ، والترم
العبودية لله سبحانه وتعالى أخلص ماتكون العبودية ، لما توفر له العاملان
الأساسيان لكل مرب ومصلح : الثقافة وتزكية النفس ، وأخذ يجاهد في
سبيل الله ، داعياً العبيد الآبقين إلى الدخول من جديد في ساحة الرضوان ،
ليتكفل الله بهم ، وليرعاهم ، ويسعدوا في دنياهم وفي آخرتهم :
وقاضت عنه الحكمة جذابة وضاعة زكية ، فاضت عنه حديثاً ،
وقاضت عنه سلوكاً وقاضت عنه كتابةً وبحثاً وتأليفاً في مختلف الميادين الدينية .
يقول عنه الإمام الشعراني : وهو من كبار مشايخ خراسان . وله التصانيف
المشهورة وكتب الحديث . . .

ثم يروى الإمام الشعراني بعض أقواله : نذكر منها قوله : دعا الله
الموحدين للصلوات الخمس رحمة منه عليهم ، وهياً لهم فيها ألوان الضيافات
لينال العبد من كل قول وفعل شيئاً من عطاياه سبحانه وتعالى ، فالأفعال
كالأطعمه والأقوال كالأشربة ، وهم عرش الوجدانية .

وكان رضى الله عنه يقول :

(صلاح الصبيان في المكتب ، وصلاح قطاع الطريق في السجن ،
وصلاح النساء في البيوت) .

أما الإمام القشيري فإنه يقول عنه :

(من كبار الشيوخ ، وله تصانيف في علوم القوم) .

الواقع أنه لم يكن له التصانيف في علوم القوم (والقوم هنا هم الصوفية)
فحسب ، وإنما كانت له كتب كثيرة في كثير من الفنون المختلفة .

ومنذ زمن بعيد والناس - كباراً وصغاراً - متأثرون به نقداً أو إعجاباً .
ومن الكتب التي كان يدرسها الإمام أبو الحسن الشاذلي والإمام أبو
العباس المرسي كتاب : « ختم الأولياء » .

وكتاب ختم الأولياء للمكيم الترمذي ، كتاب أقام الجو الثقافي وأقعه
حين صدوره وكان سبباً في صعوبات كثيرة اعترضت المؤلف بسبب الآراء التي
احتوى عليها .

وهو كتاب أثار اهتمام الإمام الأكبر محيي الدين بن عربي اثارة كبرى .
فأفرد له كتاباً خاصاً ثم أفرد له صفحات من كتاب الفتوحات وحاول ان
يجيب على ماورد فيه من اسئلة ووضع نفسه بهذا موضع الاختبار وهو من هو
فلسفة وحكمة وعلمها وتصوفا ، ووضع نفسه بهذا موضع التحدي وكأنه يقول :
هأنذا أجيب على الاسئلة متحدياً فيما يتعلق بصحة الإجابة .

لقد كان الشاذلي يلقي دروساً في شرح هذا الكتاب ولقد بلغ من روعة
هذه الدروس ان كان أبو العباس المرسي يحرص كل الحرص على حضورها لما
كان لها في نظره من الأهمية وحينها يكون على سفر في شأن من شئون الدعوة ،
فإنه يلتمس كل وسيلة تمكنه من حضورها .

ولقد كان كتاب ختم الأولياء مفقوداً إلى عهد قريب ، ثم عثر الأستاذ
عثمان يحيى عليه فطبعه في بيروت طبعة محققة مع دراسة عن الترمذي .
ويقول ابن عطاء الله السكندري - رضي الله عنه - عن أبي العباس
المرسي :

(وكان هو والشيخ أبو الحسن كل مهبا يعظم الإمام الرباني محمد ابن
علي الترمذي ، وكان لكلامه عندهما الخطورة التامة . . وكانا يقولان أنه أحد
الأوتاد الأربعة) .

ومن كتبه التي أثارَت ضجة كبرى أيضاً كتاب : (علل العبودية . . أو علل الشريعة) .

ومن الناس من يقول : ان الأحكام لاتعلل ، وإن الله سبحانه يذكر الأحكام معللاً لها أحياناً ، فنعرف علتها نصاً ، ويترك سبحانه في الأغلب الأعم التعليل ، فنأخذ بالأحكام ولا نتساءل عن التعليل ، والعبودية التزام ما أتى به الوحي : التزامه دون فتور أو تباطؤ ، أو تردد ودون محاولات للتعليل . فلما أخرج الإمام الحكيم هذا الكتاب ثار عليه هؤلاء ورموه بالانحراف . وألقى الحكيم بنفسه في معركة الفكر السائدة فكتب من الكتب في ذلك :

١ - الرد على الرافضة ، فأثار الرافضة ضده - (الرافضة هم الشيعة)

٢ - الرد على المعطلة ، والمعطلة هم المعتزلة ، فأثار المعتزلة ضده .

وكتب كتباً كثيرة متعددة ، أثارَت جدلاً ونقاشاً ، وثورة فكرية في

المجتمع الإسلامي ، ومن الكتب التي لها صلة بكتابنا الذي نقدمه الآن كتاب : (الفروق ومنع الترادف) .

وفكرة الكتاب تقوم على أن الترادف غير موجود في اللغة العربية ، فليس هناك لفظتان بمعنى واحد . وهذا رأى يخالفه فيه كثيرون ، وليس هو الرأى العادى ، ولم يبال الترمذى بما يشيع عنه الناس ، وإنما كتب في ذلك مبرهنات ، ممثلة ، فأثار بذلك أيضاً جدلاً في الأوساط اللغوية .

والكتاب الذى نقدمه هو تفسير للقرآن في زاوية خاصة جداً هي زاوية بيان أن القرآن خال من المترادفات ، وإن كل كلمة فيه لها أصلها اللغوى الذى يختلف عن الأصل اللغوى للكلمات التى تشابهها .

وطريقته : إن يأتى بالأصل اللغوى للكلمة ثم يورد ما يمكن أن يكون فى تيارها من كلمات قريبة المعنى منها ، مبيناً الفرق ولو كان يسيراً .

ولقد أتى من أجل ذلك بمجموعة من المصطلحات القرآنية ، وأخذ فى تفسيرها وبيان أصلها وما تختلف به عما يشابهها من الكلمات وحديثنا النظرى

هذا عن الكتاب يوضحه الأمثلة التي نوردتها وهاك نموذجا من تفسيره يقول :

١ - المال : وإنما صار الخير في هذا المكان « المال » لأنه خير الدنيا بعينها . فالاختيار واقع عليه ولذلك سمي (خيرا) .

٢ - الإيمان والإسلام : وإنما سمي الخير « الإسلام والإيمان » في مكان آخر : لأنه مختاره للآخرة .

٣ - الوفاء والإمامة : وإنما صار الخير : الوفاء والإمامة في مكان آخر . فذاك لاختيار الله إياه .

٤ - السعة والغنى : وإنما صار الخير « السعة والغنى » في مكان آخر فذاك مختاره للدنيا .

٥ - السرور : وإنما صار الخير « السرور » في مكان آخر : لأنه مختاره على الأشياء . أ . هـ ونموذج آخر من تفسيره : يقول :

«أهدى» فقد جاءت على ثمانية عشر وجها . فالحاصل من هذه الكلمة : كلمة واحدة فقط . وذلك ان أهدى : هو الميل . ويقال في النغمة : رأيت فلانا يتهادى في مشيته . أى يتمايل . ومنه قوله تعالى :

[إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ] (سورة الاعراف الآية رقم ١٥٦)

أى ملنا إليك . ومنه سميت الهدية : هدية : لأنها تميل بالقلب الى مهديها . وأن القلب امير على الجوارح . فاذا هداه الله لنوره . أى امله إليه لنوره : اهتدى . أى : استمال . وقد قال في تزييله .

[يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ] (سورة النور الآية ٣٥)

فهذا أصل الكلمة . ثم وجدنا تفسير الهدى :

١ - البيان : فأنما صار الهدى بيانا في ذلك المكان . لأن البيان اذا أوضح على القلب بنور العلم : مد ذلك النور القلب إلى ذلك الشيء وأمله إليه .

٢ - الإسلام : وإنما صار الهدى في المكان الآخر (الإسلام) لأنه اذا

مال القلب بذلك النور إلى ذلك الشيء الذي تين له : انقاد العبد وأسلم ومد
عنفا إلى قبوله .

٣ - التوحيد : وإنما صار الهدى التوحيد في المكان الآخر . لأنه إذا مال
القلب إلى ذلك النور سكن عن التردد . واضمان إلى ربه فوحد .

٤ - الدين : وإنما صار الهدى « الدين » في مكان آخر . لأنه إذا مال
القلب إلى ذلك النور : دان لله . أي : خضع . والدين : هو الخضوع . ومنه
قيل للشيء المتضع : « دون » .

٥ - الدعاء : وإنما صار الهدى في مكان آخر « الدعاء » لأنه إذا دعا إلى
الله بقلب مستنير : مالت القلوب إلى ذلك النور . لأن على ذلك الكلام
نورا . لأنه خرج من قلب مستنير .

٦ - بصيرة : وإنما صار الهدى « بصيرة » في مكان آخر . لأنه إذا دعا
الداعي بقلب ذي نور : ولج الكلام مع النور في الاسماع فاستنارت الصدور
من المستمعين . فابصرت عيون نفوسهم . وهي بصائرهما . فتلك بصيرة
النفس . فان للفؤاد بصرا . وللنفس بصيرة و كلاهما يبصران في الصدر . لأن
الصدر : ساحة القلب . وساحة النفس . وقد اشتركا في هذه الساحة . ومنه
تصدر الأمور . ولذلك سمي صدرا لأنه مصدر الأمور . والأعمال منه تصعد
إلى الأركان : ما دبر القلب . وما دبرت النفس . اتفقا . أو اختلفا فتنازعا .
فالأركان لأيهما غلب يجنوده . فإذا كانت النفس ذات بصيرة : بايعت
القلب في الحق والصواب الذي هو كائن من القلب . لأن في القلب المعرفة :
والعقل معها . والحفظ معها . والفهم معها . والعلم معها . فهؤلاء كلهم حزب
واحد . فإذا كانت النفس ذات بصيرة : تابعت القلب وجنوده . وإذا
عميت : فانما تعمي لغلبة الشهوات . . . ودخان الهدى . نازعت القلب
جنودها . فغالب ومغلوب . وذلك قول رسول الله ﷺ .

حدثنا بذلك عمر بن أبي عمر العبدى . قال حدثنا محمد بن الوعى .
قال حدثني يعلى بن الأشدق الطائفى . قال سمعت عمى عبد الله بن جراد

يقول :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ليس الأعمى من يعمى بصره ، انما الأعمى من تعمى بصيرته) .

ومن قوله تعالى : [بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ] (سورة القيامة الآية ١٤)

فكل آدمى على بصيرة ، فما دام لا تغلب على بصيرته الشهوات فهو مستقيماً . فاذا غلبت الشهوات عليها عميت ، فاذا عميت استمرت لشدها وتغلب على القلب شدتها حتى يتابعها القلب ، فاذا تابعها عمى القلب ، قال الله تبارك اسمه :

[فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ] (سورة الخج الآية ٤٦) .

٧ - المعرفة : وانما صار الهدى المعرفة في مكان آخر ، لأنه إذا استنار الصدر : انشرح وانفسح ، فعرف القلب ما يأتي وما يذر ، في ذلك الضوء .
٨ - القرآن : وانما صار الهدى « القرآن » .

٩ - والرسول : في مكان آخر . لأن القلب اذا عقل ما في القران مال إلى ما فيه من الأمر والنهي والوعظ .

١٠ - الرشده : وانما صار الهدى « الرشده » .

١١ - والصواب : في مكان آخر . لأنه إذا مال القلب إلى ذلك النور فقد رشده .

١٢ - التقوى : وانما صار الهدى « التقوى » لأنه اذا مال القلب إلى ذلك النور فقبه صابر في الوقاية ، والتقوى هي الوقاية من النار .

١٣ - التوفيق : وانما الهدى « التوفيق » لأنه اذا مال القلب إلى ذلك النور وفقه الله للصواب .

١٤ - التوبة : وانما صار الهدى « التوبة » لأنه اذا مال القلب إلى ذلك النور . تاب . والتوبة هي الرجوع إلى الله .

١٥ - الممر : وانما صار اهدى « الممر » لأنه الممر طريق العباد إلى الله .
فاذا مال القلب إلى ذلك النور ، فقد أصاب الممر .

فمرجع هذه الأشياء التي حيرت وجوها ذات شعب : إلى كلمة واحدة ..
لأن الهدى : هو ميل القلب إلى الله بذلك النور الذي أشرق به الصدر فانشرح
وانفسح وهو قوله تعالى : (افمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من
ربه) .

هذه الاصاله الفكرية وهذه السعة في المعارف ، وهذه الخجراة في اعلاز
ما يرى أنه الحق هي التي اطلقت على أبي عبد الله الترمذى : الحكيم . وهذا
الوصف يميزه عن الامام الترمذى المحدث الكبير . ولكنها هي نفسها التي
عرضته لفتنة أثارها اعداؤه وحاسدوه .

ان الله سبحانه وتعالى يقول : [وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا]
(سورة الأنعام آية ١١٢) .

ولم يكن للترمذى عدو واحد ، وانما كان له أعداء من الرافضة ومن
المعتلة ومن المحدثين ومن الفقهاء وقد اثر هؤلاء على العامة ، فكان له أعداء
من العامة أيضا والناس على دين ملوكهم . أما الناس هنا فهم العامة .
وأما ملوكهم فهم أصحاب الأقلام والألسنة .

ولكن العجب العجاب أنه أيضاً تعرض للاضطهاد من الصوفية
أنفسهم .

ولكن الحق الذي تقوله : أنه لم يخل من المسئولية في ذلك فإنه هاجم
دون رفق أو هوادة أو مجاملة كل انحراف ؛
انظر إليه يقول عن الصوفية :

قل للمفتونين (بعض الصوفية) يقول لكم محمد بن على (هو الحكيم
نفسه) حرام على قلوبكم الوصول إلى منار القرية حتى تؤدوا الفرائض على

ماوصفت . ثم حرام على قلوبكم بعد ذلك درجات الوسائل . حتى تميتوا
مشيئاتكم . ثم حرام على قلوبكم بعد ذلك الدرجة العظمى في ملك الملوك
بين يديه حتى تنقطع عن قلوبكم مشيئة الوصول إليه .

وتالب عليه جميع اعدائه فاخذوا يتهمونهم (وهو الصوفي العالم الحكيم)
بهم لا تخطر له على بال . حتى رموه في النهاية بالزندقة .

وأخذ الحكيم الترمذى الى الوالى وتحدث اليه الوالى فوجد عقلا وحكمة .
ولكنه من جانب آخر وجد هياجا شديدا ضد الحكيم ، ماذا يصنع ؟
انه أخذ على الحكيم تعهدا أن لا يتحدث في الحب وكان الحديث في
الحب من التهم التي اتهموه بها ، ولم تسكن الفتنة ، فاخرج الحكيم من ترمذ
نسافر الى بلخ فكرمه أهلها وقدروه واعتزوا به .

وهدأت الفتنة في ترمذ وعاقب الله تعالى كل من أساء اليه فعاد الى ترمذ
معززا مكرما ومات بها سنة ٣٤٠ هـ على ارجح الأقوال .

شيخ الحنفية ببغداد الجصاص وتسيره

أبو بكر أحمد بن علي الرازي - شيخ الحنفية ببغداد الذي انتهت اليه
رياسة المذهب في زمانه .

عاش الرازي في عصر ازدهر فيه العلم وكثرت فيه العلماء في فنون العلم
المختلفة وظهر ذلك واضحا فيما انتجته قرائح علماء هذا العصر من تراث كبير
ما زال المعين الفياض الذي يفيض على المجتمع الانساني بما يعود عليه بالنفع
في دينه ودنياه .

وقد لقب بالرازي والجصاص نسبة الى العمل بالجص - ولد الرازي سنة
خمس وثلاثمائة للهجرة ، وشب على طلب العلم والسعي في تحصيله وشد
الرحال اليه في أشهر موطنه .

حيث دخل بغداد سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ثم انتقل منها الى
الاهواز ليلتقي بمن فيها من علماء العصر .

ويواصل الجصاص الرحلة فيعود الى بغداد مرة أخرى ومنها يخرج الى
نيسابور مع الحاكم النيسابوري وكان ذلك برأى شيخه الكبير أبو الحسن
الكرخي .

وقد عاد الجصاص من نيسابور الى بغداد سنة أربع وأربعين وثلاثمائة بعد
أن مات شيخه الكرخي وقد أفاد الجصاص من الرحلة الى الذين تلقى وروى
عنهم من أمثال أبي الحسن الكرخي - آنف الذكر - وأبي العباس الاحيم

النيسابورى وعبد الله بن جعفر بن فارس الاصبهاني ، وعبد الباقي بن قانع
القاضي وسليمان بن أحمد الطبراني وغيرهم الكثير - لقد أفاد الجصاص منهم
علما وسلوكا تمثل في طهره وعفافه وزهده وورعه وصيانيته .

مؤلفاته : -

وقد كان من ثمار الرحلة لطلب العلم والجد في تحصيله تلك الثروة
الضخمة التي تركتها لنا قريحة هذا العالم الفذ والتي من أشهرها هذه المصنفات
الجليلة :

أحكام القرآن

شرح مختصر شيخه أبي الحسن الكرخي

شرح مختصر الطحاوي

شرح الجامع محمد بن الحسن

شرح الاسماء الحسنى

كتاب في أصول الفقه

جوابات عن مسائل وردت عليه

أدب القضاء

وكثيرا ماترى الجصاص مذكورا في المصنفات المشهورة فيذكر صاحب
الطبقات السنية في طبقات الحنفية نقلا عن صاحب « الغنية » عن أبي بكر
جواهر زادة في مسألة اذا وقع البيع بغبن فاحش قال :

ذكر الجصاص وهو أبو بكر الرازي في واقعاته أن للمشتري أن يرد وللبيع
أن يسترد .

وذكر أيضا قول الشيخ جلال الدين في « المغنى في أصول الفقه » في
الكلام في الحديث المشهور قال : قال الجصاص : أنه احد قسمي
التواتر . . .

منصب قضاء القضاة :

ولما ذاع صيت الجصاص وظهر للناس علمه وعرفوا قدره وحسن سيرته وتحليه بالزهد والورع خوطب في تولي منصب قضاء القضاة ولكنه أبى وتعفف عن قبول هذا المنصب الخطير . وقد نقل صاحب الطبقات السنية في ذلك .
حدث أبو بكر الابهري قال : خاطبني المطيع على قضاء القضاة وكان السفير في ذلك أبو الحسن بن أبي عمرو الشرايبي فأبى عليه وأشرت بأبي بكر أحمد بن علي الرازي . فأحضر للخطاب علي ذلك ، وسألني أبو الحسن بن أبي عمرو معونته عليه فخطب فامتنع . وخلوت به فقال لي : تشير علي بذلك ؟ فقلت : لا أرى لك ذلك . .

ثم قمنا الى بين يدي أبي الحسن بن أبي عمرو ، وأعاد خطابه ، وعدت الى معونته فقال لي : اليس قد شاورتك فأشرت علي أن لا أفعل ؟
فوجم أبو الحسن بن أبي عمرو من ذلك ، قال : تشير علينا بانسان ثم تشير عليه الا يفعل . .

قلت : نعم ، إمامي في ذلك مالك بن أنس ، أشار علي أهل المدينة أن يقدموا نافعاً القارئ في مسجد رسول الله ﷺ ، وأشار علي نافع أن لا يفعل : فقبل له في ذلك .

فقال : أشرت عليكم بنافع ، لاني لا أعرف مثله ، وأشرت عليه أن لا يفعل لانه يحصل له اعداء وحساد فكذلك أنا أشرت عليكم به لاني لا أعرف مثله وأشرت عليه أن لا يفعل لانه أسلم لدينه .

تلاميذ الجصاص :

وقد كثر تلاميذ الرازي كثرة فائقة وانتفع بعلمه الكثيرون وانتهت الرحلة اليه حيث جمع مآثر من تقدمه في العلم والورع والزهد والصيانة ، ومن أشهر هؤلاء الذين أخذوا عنه وانتفعوا به :

أبو بكر أحمد بن موسى الخوارزمي . وأبو عبد الله محمد بن يحيى
الجرجاني شيخ القدوري . وأبو الفرج أحمد بن محمد بن عمر المعروف بابن
المسلمه وأبو جعفر محمد بن أحمد النسبي . وأبو الحسن محمد بن أحمد
الزعفراني . وأبو الحسن بن محمد بن أحمد بن الطيب الكعاري والد
اسماعيل قاضي واسط وغيرهم .

تفسير الجصاص « أحكام القرآن » .

يعتبر هذا السفر الذي تركته قرحة الجصاص من أجمع الكتب التي
تناولت أحكام القرآن بصورة مفصلة أفاد منها غيره ممن جاء بعده وكتب في
هذه الاحكام من أمثال الكبا الهرازمي وابن عرى والقرطبي صاحب التفسير
المشهوره الجامع لاحكام القرآن .

والكتاب يجمع هذه الاحكام في أبواب مرتبه تجمع شمل الآيات التي
تناول قضية أو حكما عاما ينصل الكلام عليها تفصيلا مشفوعا بأقوال العلماء
وقرائهم واستنكاكاتهم ونظرة سريعة في سورة النساء تريك صدق ما نقول عن
هذا التبويب الفريد . ففي مطلع السورة وما بعده تجد هذه الابواب .

باب دفع أموال اليتامى باعيانها ومنعه الوحي من استهلاكها .

باب تزويج الصغار

باب هبة المرأة المهر لزوجها

باب دفع المال الى السفهاء

باب دفع المال الى اليتيم

باب أكل ولي اليتيم من ماله - الى غير ذلك من الابواب . .

نموذج من أحكام القرآن

في باب الامتنان بالصدقه يذكر الجصاص جمله من الآيات يجمع
شمليها هذا الباب هي قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَأْرَفَةً أَنْفَقُوا مِمَّا وَلَا أَدَىٰ ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ ﴾ .
 وقوله تعالى :

« قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ »

(سورة البقرة الآية ٢٦٢ و ٢٦٤ و ٢٦٣)
 وقوله تعالى : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ » . (سورة الروم الآية ٣٩)

ثم يقول الجصاص بعد ذكر هذه الآيات :

« أخبر الله تعالى في هذه الآيات أن الصدقات اذا لم تكن خالصة لله عارية من من واذى فليست بصدقه لان ابطالها هو احباط ثوابها ، فيكون فيها بعتلة من لم يتصدق ، وكذلك سائر ما يكون سبيله وقوعه على وجه القرية الى الله تعالى :

[وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ] (سورة محمد الآية ٣٣)
 وقال تعالى : [وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

الدِّينَ حُنَفَاءَ] (سورة البينة الآية ٥)

[فما لم يخلص لله تعالى من المقرب فغير مثاب عليه فاعله ونظيره أيضا

قوله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ

يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ]

(سورة الشورى الآية ٢٠)

ومن أجل ذلك قال اصحابنا : لا يجوز الاستتجار على الحج وفعل الصلاة وتعليم القرآن وسائر الافعال التي شرطها أن تفعل على وجه القربة : لان أخذ الاجر عليها يخرجها عن أن تكون قربة لدلائل هذه الايات ونظائرها

وروى عن الحسن في قوله تعالى :

[لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى] قال : هو المتصدق بمن بها فناه الله عن ذلك وقال ليحمد الله اذ هداه للصدقة وعن الحسن في قوله تعالى :

[وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ] (سورة البقرة الآية ٢٦٥)

قال يتثبتون اين يضعون اموالهم .

وعن الشعبي قال : تصديقا وبقيتا من انفسهم

وقال قتاده : ثقة من انفسهم ، والمن في الصدقة : أن يقول المتصدق قد أحسنت إلى فلان وأغنيته - فذلك ينقصها على المتصدق بها عليه والاذى قوله : انت ابدأ فقير : وقد بليت بك واراحي الله منك . .

ونظيره من القول الذي فيه تعبير له بالفقر فقال تعالى :

« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها اذى » يعنى والله أعلم - ردا جميلا ومغفرة قيل فيها ستر الحالة على السائل .

وقيل العفو عن ظلمه خير من صدقة يتبعها اذى لانه يستحق الماثم بالمن والاذى ورد السائل بقول جميل فيه السلامة من المعصية .

فأعبر الله تعالى أن ترك الصدقة برد جميل خير من صدقة يتبعها اذى وامتنان وهو نظير قوله تعالى :

« واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا . .

الحاكم النيسابوري وتفسيره

في حوالي ثلاثمائة وعشرين صحيفة من القطع الكبير جدا جمع الحاكم في كتابه النفيس المستدرک ماصح عنده من التفسير بالمأثور .

والحاكم هو أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد ، وعرف بالحاكم لتوليه القضاء، ولد سنة (٣٢١ هـ) وقد عني أبوه بتربيته عناية فائقة ، فأخذ في الدرس من زمن مبكر جدا من حياته ، وواصل الليل بالنهار ، وبلغ في العلم مبلغا عظيما .

قال ابن قاضي شعبة : -

« طلب العلم في صغره ، وأول سماعه سنة ثلاثين ، ورحل في طلب الحديث ، وسمع على شيوخ يزيدون على ألفي شيخ ، وتفقه على ابن أبي هريرة . وأبى سهل الصعلوكي وغيرهم » .

أخذ عنه الحافظ أبو بكر البيهقي فأكثر عنه ، وبكته تفقه وتخرج ، ومن نعه استمد ، وعلى منواله مشى .

ويذكر صاحب الشذرات : أنه كتب عن نحو ألفي شخص ، وحدث عن الأصم ، وعثمان بن السماك ، وطبقتهما ، وقد درس القراءات وعنى بها عناية فائقة ؛ ولم يدرسها نظريا فحسب وإنما قرأه بالفعل على جماعة كثيرة من مشاهير أئمة القراءات .

أما تصانيفه فإنها كثيرة ، بل هي من الكثرة بحيث يقول المؤرخون عنه : « بلغت تصانيفه ألفا وخمسمائة جزء » ، ويلاحظ أنهم لم يقولوا : ألفا وخمسمائة كتاب ، وإنما ألفا وخمسمائة جزء ، ماذا كان حجم الجزء ؟ والذي لا شك فيه أنه كان من الكثيرين في التأليف المستفيضين في الدراسة ، ويقول عنه صاحب الشذرات : -

وصنف التصانيف الكثيرة ، ويقول ابن ناصر الدين « له مصنفات كثيرة » .

وكان للحاكم تلاميذ ، وقن به كثيرون ، انظر الى صاحب الشذرات يقول :

وانتهت اليه رياسة الفن بخراسان لابل بالدنيا .

أما عبد الغافر فقد أطنب - كما يقول ابن شهبة - في مدحه وذكر فضائله وفوائده ومحاسنه الى أن قال : -

مضى الى رحمة الله ولم يخلف بعده مثله .

ويقول عنه أحد مؤرخيه :

أحد أركان الاسلام ، وسيد المحدثين وامامهم في زمنه ، والرجوع اليه في هذا الشأن وقدمه الراسخة كانت في فن الحديث وقد وثقه الكثيرون ، ويقول الخطيب البغدادي عنه : -

كان ثقة ،

ويقول ابن عماد : « وهو ثقة حجة » .

وقال عنه ابن ناصر الدين : -

« وهو صدوق من الاثبات » وهكذا يقولون عنه ويعبرون عن ثقتهم فيه ، ولكنهم يعودون فيقولون مثلا : - وكان يميل الى التشيع ، أو : « وكان فيه تشيع » « ابن عماد » هكذا .

كيف يكون ثقة ويتهم بالتشيع في آن واحد مع أن المحدثين يناون عن كل ذي نزعة أو عصبية ، إن الامام الذهبي يقف معتدلا في وجه المفتونين بالحاكم ويقف موضعا الامر في رمي الحاكم بالتشيع فيفسر الامر تفسيرا معقولا ، ويضع كل شيء في موضعه المستقيم ، قال الذهبي :

هو معظم الشيخين ييقن ولذي النورين ، وانما تكلم في معاوية فاوذي .

قال : - وفي المستدرک جملة وافرة على شرطها ، وجملة وافرة على شرط أحدهما لكن مجموع ذلك نصف الكتاب وفيه نحو الربع مما صح سنده وفيه بعض الشيء معلل وما تبقى وهو الربع مناكير وواهيات لاتصح ، وفي ذلك بعض موضوعات قد علمت عليها لما اختصرته .

وهذا الرأي للذهبي يضع كتاب « المستدرک » في وضعه الصحيح وبين أن الحاكم لم يكن شيعيا ، وإنما كان يحب عليا وكان حبه لعلي كرم الله وجهه ورضي الله عنه قد ملك عليه شعوره فتحدث عن معاوية باحاديث لاترضي أنصاره فوصف لذلك بالتشيع أو بالميل الى التشيع ، وليس ذلك من التشيع في شيء فكثير من أهل السنة وكثير من المؤرخين منهم يقولون بما يقول به الحاكم وليسوا من التشيع من شيء ، ولأن الحاكم لم يكن شيعيا فانهم وصفوه بأنه حجة ثقة وقد توفى الحاكم فجأة عقب خروجه من الحمام في صفر سنة ٤٠٥ هجرية ، توفى مستحيا طاهرا رحمه الله رحمة واسعة .

والآن نورد بعض النماذج من تفسيره :

يقول الله تعالى :

[إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ]

قال : -

حدثنا يحيى بن العلاء عن عمه شعيب بن خالد عن سماك بن حرب .

وقرا :

[إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ] .

(سورة آل عمران الآية ٥)

فقال حدثني عبد الله بن عميرة عن العباس بن عبد المطلب رضي الله

عنه قال : -

« كنا جلوسا مع رسول الله ﷺ في البطحاء فمرت سحابة فقال :

أتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم ، فقال : السحاب ، فقلنا : السحاب : فقال : والمزن ، فقلنا : والمزن فقال : والعنان ، فقلنا : والعنان ثم قال أتدرون كم بين السماء والأرض فقلنا : الله ورسوله أعلم قال بينها مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء الى السماء التي تليها مسيرة خمسمائة سنة وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة وفوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله ، كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهم وأظلافهم كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، والله تعالى فوق ذلك ليس ينحى عليه من أعمال بني آدم شيء .

ونموذج آخر :

يقول الله تعالى : [إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ] سورة آل عمران الآية ٩٦

قال : « عن خالد بن عرعر قال سألت رجلاً علياً رضي الله تعالى عنه أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً أهو أول بيت بني في الأرض قال : لا ، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة والهدى ومقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً إن شئت انباتك كيف بناه الله عز وجل ، إن الله أوحى إلى إبراهيم أن ابن لي بيتاً في الأرض فضايق به ذرعاً فأرسل الله إليه السكينة وهي ريح حجوج لها رأس فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت ثم تطوقت إلى موضع البيت تطوق إليه ، فبنى إبراهيم فكان يبي هو سائقاً كل يوم حتى إذا بلغ مكان الحجر قال لابنه ابغني حجراً فالتمس ثمة حجراً ثم أتاه به فوجد الحجر الأسود قد ركب فقال : له ابنه من أين لك هذا قال : جاء به من لم يتكل على بنائك جاء به جبريل عليه السلام من السماء فآتمه . . .

ونموذج ثالث :

يقول الله تعالى : « واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً

وَيَوْمَ لَا يَسْتَبِتونَ لِاتِّباتِهِمْ كَذَلِكَ نَبُلوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ «

(سورة الأعراف الآية ١٦٣)

يقول : -

حدثنا ابن جريح عن عكرمة قال : دخلت على ابن عباس رضي الله عنها وهو يقرأ في المصحف قبل أن يذهب بصره وهو يبكي فقلت ما يبكيك يا ابن عباس جعلني الله فداك ؟ فقال هل تعرف ابلة قلت وما ابلة قال قرية كان بها ناس من اليهود فحرم الله عليهم الحيتان . يوم السبت فكانت حيتانهم تأتيهم يوم سبتهم شرعا بيضاء سمانا كامثال المخاض بأفنائهم وابنياتهم فاذا كان في غير يوم السبت لم يجدوها ولم يدركوها الا في مشقة ومثونة شديدة فقال بعضهم لبعض أو قال ذلك منهم لعنا لو اخذناها يوم السبت وأكلناها في غير يوم السبت ففعل ذلك أهل بيت منهم فاخذوا فشورا فوجد جيرانهم ربح الشوى فقالوا والله ما نرى إلا اصاب بني فلان شيء فاخذها آخرون حتى فشا ذلك فيهم وكثر فافترقوا فرقا ثلاثا فرقة أكلت وفرقة نهت وفرقة قالت لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فقالت الفرقة التي نهت انما نحذركم غضب الله وعقابه أن يصيبكم بخسف أو قذف أو ببعض ما عنده من العذاب والله لانبيت في مكان أنتم فيه وخرجوا من السور فغدوا عليه من الغد فضربوا باب السور فلم يجبهم أحد فاتوا بسبب فاستندوه إلى السور ثم رقى منهم راق على السور فقال يا عباد الله قرده والله لها أذنان تعاوى ثلاث مرات ثم نزل من السور ففتح السور فدخل الناس عليهم فعرفت القرده أنسابها من الانس ولم يعرف الانس أنسابهم من القرده قال : فيأقى القرد إلى نسيبه وقريبه من الانس فيحتك به ويلصق ويقول الإنسان أنت فلان فيشير برأسه أى نعم وبيكى وتأتى القرده إلى نسيبها وقريبها من الانس فيقول لها أنت فلانة فتشير برأسها أى نعم وتبكي فيقول لهم الانس أما إنا حذرناكم غضب الله وعقابه أن يصيبكم بخسف أو مسخ أو ببعض ما عنده من العذاب قال ابن عباس فاسمع الله يقول فأنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا

بعذاب بثيس بما كانوا يفسقون ، فلا أدري ما فعلت الفرقة الثالثة ، قال ابن عباس فكم قد رأينا من منكر فلم ننه عنه قال عكرمة فقلت ما ترى جعلني الله فداك انهم قد انكروا وكرهوا حين قالوا :

« لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا »

(سورة الاعراف الآية ١٤٤)

فأعجبه قولي ذلك وأمر لي ببردين غليظين فكسانيهما .



الامام السلمى وتفسيره

مؤلف هذا التفسير : محمد بن الحسين بن موسى الأزدي أبو عبد الرحمن السلمى جدا . النيسابورى بلدا . كان شيخ الصوفية . وعالمهم بخراسان . ذكره الخافظ عبد الغافر فى السياق فقال :-

شيخ الطريقة فى وقته . الموفق فى جميع علوم الحقائق . ومعرفة طريق التصوف . وصاحب التصانيف المشهورة العجبية فى علم القوم . وقد ورث التصوف عن أبيه وجده . وجمع من الكتب ما لم يسبق إلى ترتيبه . حتى بلغ فهرست تصانيفه المائة أو اكثر .

وكان من المشتغلين بعلم الحديث . سمع من أبى العباس الأصم . وابن فارس العمرى البلخى . والخافظ ابى على الحسين بن محمد النيسابورى وغيرهم من كبار المحدثين . .

وروى كثيرا من مسوعاته . ومن روى عنه من الأئمة :

الحاكم أبو عبد الله . وأبو القاسم القشيرى . وأبو صالح المؤذن . وكثيرون وقد وثقه فى الحديث علماء اجلاء منهم الخطيب البغدادى والتاج السبكي وغيرهما . يقول الخطيب :

قدر أبى عبد الرحمن عند أهل بلده جليل . وكان مع ذلك محمودا صاحب حديث . .

ويقول التاج : أبو عبد الرحمن ثقة . ولا عبرة بالكلام فيه . .

وقد كان للسلمى بيت كتب جمع فيه من الكتب ما لم يسبق إلى ترتيبه من ذخائر المحدثين والصوفية . وكان يجلو بهذا البيت ينقطع فيه للقراءة والتأليف .

وكان شيوخ نيسابور يستعيرون منه بعض ما يحتاجون إليه من هذه الذخائر،
فيعيرهم إياه . .

وقد ابتداء أبو عبد الرحمن التصنيف سنة نيف وخمسين وثلاثمائة، وهذا
معناه أن أباه عبد الرحمن ظل يؤلف قريبا من بضعة وخمسين عاماً . .

وقد اشتهر أبو عبد الرحمن بأنه نقال الصوفية، وراوى كلامهم، وعن
له العناية التامة بتوطئه مذهب المتصوفة وتهذيبه على ما بينه الأوائل .

ولقد كان مدققاً في تعبيره عن مذهب الصوفية، واختباره لمن سبقه .

بمثل هذا المذهب من الشيخ، فالأمام الكامل، الفقيه الأصولي المفسر
الاسفرايني الذي اشتهر بالدفاع القوي عن مذهب أهل السنة والرد على البدع
وعلى كل ما يخالف مذهب أهل السنة؛ يقول في كتابه «التبصير في الدين»:
سادس ما امتاز به أهل السنة هو:

علم «التصوف» والاشارات وما لهم فيها من الدقائق والحقائق، لم
يكن قط لاحد من «أهل البدعة» فيه حظ، بل كانوا محرومين مما فيه من
الراحة والحلاوة، والسكينة والطمأنينة، وقد ذكر ابو عبيد الرحمن السلمى
من مشايخهم قريبا من ألف، وجمع اشاراتهم وأحاديثهم . ولم يوجد في جملتهم
قط من ينسب إلى بدع «القدرية» و«الروافض» و«الخوارج» .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض
من النفس، والتوحيد بالخلق والمشية .

وأهل البدع ينسبون الفعل والمشية، والخلق والتقدير، إلى انفسهم
وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد .

ولد على المشهور - في رمضان سنة ثلاثين وثلاثمائة، وقيل: سنة خمس
وعشرين وثلاثمائة . .

وكان والده شيخا، ورعا، زاهدا، دام المجاهدة، له القدم في علوم

المعاملات، وحينما توفي قام جده لأمه وكان واسع الثراء - على رعايته، فما أن توفي حتى آل إليه من ثروته ما مكنته من التفرغ للكتابة والتأليف، وكانت تصانيفه مقبولة، حبيبة إلى الناس، تباع بأعلى الأثمان.

وفي أخريات أيامه ابتنى للصوفية خانقاه صغيره، كانت مشهورة في نيسابور وفي ما جاورها أو بعد عنها من أقاليم مملكة الاسلام، حتى أن الخطيب البغدادي حين ذهب إلى نيسابور زار هذه الدويرة التي كان يسكنها الصوفية يومئذ..

أما عن تفسيره فإن له طابعًا خاصًا هو طابع التفاسير الصوفية الخالصة، إن كل اتجاهه كان منحصرًا في جمع ما يتيسر من آراء الصوفية حول آيات من القرآن الكريم، وهو لذلك ليس تفسيراً مفصلاً لكل آية من آيات القرآن الكريم، وليس تحليلاً لفظياً أو بياناً لحكم شرعي.

وهو لذلك يمثل فهمًا خاصًا لقوم مخصوصين فيما يتصل بتفسير القرآن الكريم، أو الحديث عن بعض الفهوم المستنبطة منه.

ومثل هذا المنهج في التأليف قد لا يستسيغه من يقصر الفهم في القرآن على ظاهر الآيات، ومن هنا كانت الحملة الشديدة العنيفة على هذا الكتاب، حتى لقد قال الذهبي ليته لم يصنفه.

وإذا ما تأملنا في سر هذه الحملة فإننا نجد أن أساسها لا يرجع إلى فساد ما نقله في نفسه، وإنما إلى ربطه بالآية كفهيم لها أو تعبير عن بعض ما تشير إليه.

قال التاج السبكي: وكتاب حقائق التفسير المشار إليه قد كثر الكلام فيه، وقيل أنه اقتصر فيه على ذكر تأويلات ومجال الصوفية ينبو عنها ظاهر اللفظ.

ولقد اطلعنا على الكتاب وهو مخطوط لم يطبع بعد ولكن توجد منه نسخ كثيرة ومنها في مكتبة الأزهر وغيرها فوجدناها لا تخرج عن كلام الصوفية

المعتبرين في فهم الآيات وتنزيلها على إشارات تتعلق بإصلاح السلوك
واخلاص العبودية فضلا عما يدور بين الناس من معانيها الظاهرة .

إن ما يقوله الصوفية حول آيات من القرآن الكريم إنما هو الهامات
واشراقات بتوفيق الله رائعة . وهم في هذا الميدان يسمون الهاماتهم :
إشارات . يعنون بذلك أن الآيات القرآنية لها تفسير بحسب اللغة وأسباب
النزول وحوادث التاريخ . وهو تفسير يتفاوت دقة وجمالا . ولكنه مع ذلك
تفسير لا يستنفد كل ما تعطيه الآيات القرآنية من اشارات . وما يشع عنها من
انوار . وما يتضوع عنها من غير طيب . وينبغي علينا أن نلاحظ أن هذه
الاشارات لا تهدف في قليل ولا في كثير إلى أن تحل محل التفسير المألوف كما أن
هذه الاشارات لا تتعارض مع التفسير المألوف .

إنها اشارات وليست تفسيرًا . ومن أجل ذلك فإنه لا تعارض بين الصوفية
والمفسرين .

ونستطيع أن نقول : ان نقد الكتاب إنما يتجه لو كان مؤلفه يرى أن
ما يقوله هو وحده الذي تفيداه الآية . أما إذا اعتقد أن ما ذكره جهد يضاف
إلى جهود . وتسليط للضوء على جانب من الجوانب التي تفيدها الآية . فإن
النقد حينئذ يصبح غير ذي موضوع .

واليك نماذج من تفسيره لتتمكن من الحكم عليه على بصيرة :

قال تعالى :

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا
أَمَانَاتِكُمْ] (سورة الأنفال الآية ٢٧)

قال أبو عثمان : من خان الله تعالى في السر هتك ستره في العلانية ، قال
بعضهم : في هذه الآية خيانة الله تعالى في الاسرار وحب الرياسة وإظهار
خلاف الاضمار ، وخيانة الرسول عليه السلام في آداب الشريعة ، وترك

السنن . والتهاون بها ، وخيانات الأمانات . في المعاملات والأخلاق .
ومعاشرة المؤمنين في ترك النصيحة لهم .

وقال تعالى :

[يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي

الصُّدُورِ] (سورة يونس الآية ٥٧)

قال ابن عطاء : الموعظة للنفوس ، والشفاء للقلوب ، والهدى للأسرار ،
والرحمة لمن هذه صفته .

قال جعفر : شفاء لما في الصدور ، أي راجعة لما في السرائر . قيل : شفاء
المعرفة ، والصفاء . وقيل شفاء التوبة . وقيل : شفاء التسليم والرضا .
ولبعضهم شفاء المشاهدة واللقاء .



متشابه القرآت

للقاضى عبد الجبار بن أحمد الهمدانى

للمعتزلة نزعة معروفة محددة . إنها النزعة التى تحكم العقل له القيادة .
وهذا ظاهر فى كل ما يكتبون فى التفسير وفى التوحيد .

ومن أهم الشخصيات التى توضح مذهبهم -- والتى وجدت تأليفها رواجاً
وانتشاراً : القاضى عبد الجبار .

وقد كان لنشر كتابه : « المعنى » أثر كبير فى التعريف المستفيض بآراء
المعتزلة وهو كتاب كبير اجتمع على تحقيق اجزائه الكثيرة طائفة من كبار
المحققين فأخرجوه اخراجاً متقناً .

ولقد لقي القاضى عناية الكثيرين ممن يهتمون به ، فنشر له كتاب :
« الأصول الخمسة » وكتاب : « تنزيه القرآن عن المطاعن » .

ولقد ولد القاضى بخراسان ، ولا نكاد نعرف عن حياته الأولى شيئاً .
ولكنه من غير ما شك تعلم على الطريقة التقليدية : الفقه والتفسير والتوحيد
والعربية ، وغير ذلك مما كان تقليداً فى زمنه .

لقد خرج إلى البصرة ، واختلف إلى مجالس العلماء .

ولقد نشأ فى أسرة متواضعة ، فنشأ فى تقشف وشظف من العيش ولكن
نفسه الضموحة تمردت على ظروفه ، فأبى إلا أن يتابع الطريق العلمى فى غير
فتور أو ملل .

وشاءت المقادير أن يتصل بالصاحب بن عباد . وكان الصاحب بن عباد
داميول شيعية وبين الشيعة والمعتزلة شبه كبير ، وخاصة بين المعتزلة والشيعة
الزيدية الذين تتلمذ أمامهم زيد على واصل بن عطاء رأس المعتزلة الأول .

كان تقدير الصاحب للمعتزلة كبيراً إلى درجة أنه ما كان يولى القضاء إلا من المعتزلة .

كان القاضي عبد الجبار حينئذ صاحب شهرة عريضة ، بل إنه بدأ يحتل مكان الرئاسة للمعتزلة فاستدعاه الصاحب إلى « الرى » وأصدر له أمراً بتولى رئاسة القضاء فى (الرى) (وقزوين) وغيرهما ثم ولاه إضافة إلى ذلك جرجان وطبرستان .

وأنته الدنيا راغمة وكثر ماله وخدمه وحشمه ، وما كان ذلك عن انحراف فى طريقه فقد كان مثلاً كريماً للعدالة والتحرى الدقيق فى الأحكام .

أما تقدير الصاحب وحبه له فقد فاق كان وصف :

لقد وصل به الأمر أن كان يقول عنه : افضل أهل الأرض .

ويقول عنه : أعلم أهل الأرض .

وما من شك أنه كان صاحب خلق فاضل ، وصاحب علم عزيز .

وبينا القاضي فى أوج الشهرة : إذا بالصاحب ينتهى أجله . ويذهب

للقاء ربه .

وهنا بدأت مشكلة فى غاية العمق تختلف فيها الأنظار فى كل زمن . وقد اختلفت فيها الأنظار اختلافاً كبيراً إذا ذاك . ولعل الكثيرين يتفقون معنا فى أنها تحتاج حقيقة إلى تأمل .

لقد أحسن الصاحب إلى القاضي كل الإحسان واحبه وقدره وغمره بالمان والمناصب ثم مات الصاحب ودعى القاضي للصلاة عليه وهنا وقف القاضي بين أمرين كلاهما مر أحدهما مبدؤه - مبدأ القاضي - وهو مبدأ الاعتزال . وهذا المبدأ يقتضى التوبة الصادقة لأن مرتكب الكبيرة فاسق فإذا لم يتب فلا صلاة عليه . هل يصلى عليه ويخالف فى ذلك مبدأه ويصغر فى عين نفسه ويصبح بمخالفته مبدأه مهرجاً أو مزيفاً .

أما الأمر الثاني : فهو الوفاء الذى يقتضيه الصلاة على الصاحب والشكر وعدم التنكر له بعد انتقاله إلى ربه وعدم نكران الجميل .

المبدأ أو الوفاء .

وآثر القاضى : المدأ .

ورفض الصلاة على الصاحب .

وهنا ثار الناس عليه ثورة عارمة ورموه ينكران الجميل . وبعدم الوفاء . ونقم عليه فخر الدولة وقبض عليه . وعزله من منصبه وصادر امواله .

أكان القاضى على حق . أكان مخطئاً ذلك ما نتركه للقارى .

ولقد طال عمر القاضى حتى ليقول ابن الأثير :

« وقد جاوز التسعين »

ومات فى ذى القعدة سنة خمس عشرة وأربعمائة .

والكتاب الذى نتحدث عنه هو كتاب :

« متشابه القرآن »

وعنوانه يدل على محتواه . فهو تفسير للآيات المتشابهة .

والمتشابه يختلف الناس فى معناه ولكنهم مهما اختلفوا فإن القاضى عرض للأراء المختلفة فى التشابه . والمتشابه - فيما يرى - هو الذى على صفة تشبه على السامع من حيث خرج ظاهره على أن يدل على المراد به لشيء يرجع إلى اللغة أو التعارف . ويضرب القاضى مثالا لذلك :

بقول تعالى : -

[إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ] (سورة الأحزاب الآية ٥٧)

فإن هذه الكلمة القرآنية وما شاكلها ظاهرها محال على الله تعالى . فالمراد مشتبهه ويحتاج فى معرفته إلى الرجوع إلى غيره من المحكم .

وتفسير القاضى للمتشابه بهذا النحو يجعل دائرة المتشابه واسعة تشمل كل الآراء التى قيلت فى المتشابه .

أما المحكم فهو الذى لا يحتمل إلا المعنى الظاهر فى أصل اللغة أو بالتعارف أو بشواهد العقل ، وذلك نحو قوله تعالى : :

[قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ] (سورة الأَخْلَاص)

ونحو قوله تعالى :

[إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا]

(سورة يونس الآية ٤٤)

والكتاب مسائل ، يعرض المؤلف الآية فى صورته مسألة ، ويفسرها بما يتناسب مع الجوى الإسلامى وخصوصاً مع جوى الاعتزال ، ومن أمثلة ذلك ما يلى :

مسألة قالوا : ثم ذكر تعالى بعد ذلك ما يدل على أنه خص المؤمن بالهدى دون غيره .

فقال :

[فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ]

(سورة البقرة الآية ٢١٣)

والجواب عن ذلك : قد تقدم انا قد بينا أن تخصيصه المؤمن بأن هداه لا يدل على أنه لم يهد غيره ، وإنما خصه ، لانه الذى انتفع بالهدى دون غيره .

، وبيننا أنه قد يخص المؤمن بالهدى الذى هو بمعنى الثواب ، أو طريقه

المؤدى إليه ، إلا أن المراد في هذا الموضع : الدلالة ، ولذلك علق الهدى
بالحق فما اختلفوا فيه .

وقوله تعالى من بعد :

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ
تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِكُمْ رَحِيمًا ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا
وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا] (سورة النساء الآية ٢٩ و ٣٠)

فدل تعالى على أن من يفعل أكل المال بالباطل وقتل النفس بدخله النار
لا محالة وقد يوصف بذلك الفاسق من أهل الصلاة ، كالكافر ، فيجب
حمل الآية على العموم ، ومعقول من حال الكلام أنه يريد النهى عن أن
يأكل بعضنا أموال بعض ، : والوعيد وارد عليه على الحد الذى وقع النهى
عنه ، فليس لاحد أن يتعلق بذلك فاما قتل النفس فالنهي يتناول فيه أن يقتل
بعضنا بعضا أو أن يقتل نفسه وكلاهما سواء فى صحة النهى فيها ، فإن حمل
على الامرين ورد الوعيد عليهما جميعا .

وانما قال : العلماء إن المراد به : ولا يقتل بعضكم بعضا ، من حيث ثبت
أن الإنسان ملجأ إلى أن يقتل نفسه ، فلا يصح وحاله هذه أن ينهى عن
القتل ، فيجب إذا صرف النهى إلى الوجه الثانى ، والوعيد إنما ورد على هذا
الحد .

مسألة : قالوا : ثم ذكر بعده ما يدل على أنه هو الخالق لانصراف المؤمن
عن اتباع الشيطان ، فقال :

[وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا
قَلِيلًا] (سورة النساء الآية ٨٣)

والجواب عن ذلك : ان ظاهره يقتضى انه لولا فضله لا قدمنا على المعصية ، وليس فيه بيان ذلك الفضل ، والمراد به الالطاف والتأييد وسائر ما يصرف المرء عن اتباع الشيطان والمعاصي ، وبين تعالى أن ذلك الفضل لو لم يفعله لكان فيهم من لا يتبع الشيطان مبينا بذلك أن المعلوم من حال كثير منهم أنه يؤمن ويتصرف عن اتباع الشيطان وإن لم يلفظ له ، وهذا يصدق قولنا في اللطف أنه قد يختص بمكلف دون مكلف .

وإن حملت الكلام على أنه لولا فضله على الكل لا تبعوا الشيطان إلا قليلا منهم فإنهم مع فضله عليهم يتبعونه ، فإنه يدل على مثل ما قدمناه في أن اللطف قد يختص ، وقد يختص ، وقد يفعل بمكلفين فيكون لطفًا لأحدهما دون الآخر ، كما أن رفق الوالد بأحد ولديه قد يكون لطفًا له في التعليم ، ولا يكون لطفًا في الآخر .

وبعد : فإن هذا الكتاب في غاية النفاسة إذا نظرنا إلى مذهب المعتزلة أما إذا نظرنا إلى مذهب أهل السنة ، فإن فيه الكثير من التفاني ، ولكن فيه أيضًا ، الكثير مما يمكن المناقشة فيه والجدل ، وهو على كل حال كتاب للمخاصة .

الإمام القشيري وتفسيه لطائفة الإشارات

يمثل الإمام القشيري اتجاهًا خاصًا في العلوم الإسلامية . إنه الاتجاه الصوفي في أدق مظاهره وأتقن صورته : اتباع للسنة . وكشف لدقائق الطريق ، ورد لما نسب إلى التصوف من مظاهر . وما التصق به من رسوم . . .
والإمام القشيري هو أبو القاسم عبد الكرم بن هوازن بن عبد الملك زين الإسلام القشيري نسبة إلى قبيلة بني قشير العربية الأصيلة .

ولد في قرية من نواحي نيسابور ومات أبوه وهو صغير . فأتجهت أسرته نحو العلم ، فسمع من كبار الشيوخ ، وتلقى عن كثير من العلماء ومن أهم هؤلاء الذين أثروا في تكوين شخصيته العلمية وحياته الفكرية ابن فروك وأبو إسحاق الأسفرايني وغيرهم .

ثم ارادت المقادير أن يحضر درس : الأستاذ ابن علي الدقاق ، ليرى اخلاصا ، ويرى تقوى ، ويرى نورًا يرسم على وجهه ، ويشرق من كلماته فينير قلوب السامعين ، ويجذبهم إلى الله ، وكانت فطرة القشيري النقية على استعداد تام لسلوك الطريق ، ورأى الإمام أبو علي الدقاق فيه النجابة ، فقبله في زمرة مربيه ، ثم اصطفاه في زمرة أخصائه ، وزوجه ابنته ، مع كثرة أقاربها . . .

وتأثر القشيري بالشيخ الدقاق ، وكان ذا شخصية قوية فيما يتصل بالتصوف والصوفية ، دقيق البحث عميق الفكرة ، رائد السلوك ، يقول المناوي عنه :

كان لسان وقته ، وإمام عصره ، فارها في العلم ، محمود السيرة ، مجهود السريرة ، جنيدى الطريقة سرى الحقيقة ، أخذ مذهب الشافعي عن القفال

والحصري وغيرهما، وبرع في الأصول وفي الفقه وفي العربية حتى شدت إليه الرحال في ذلك، ثم أخذ في العمل، وسلك طريق التصوف، وأخذ عن النصر اباذى.. قال ابن شهبة: (وزاد عليه حالا ومقالا، وعنه أخذ القشيري صاحب الرسالة، وله كرامات ظاهرة ومكاشفات باهرة...)

وكما استفاد القشيري من أساتذته تأثر بمن عاصره من العلماء، كما أثر فيهم، ومن أشهر هؤلاء: (السلمي وأبي المعالي الجويري امام الحرمين).

وقد ألف الامام القشيري عددا من المؤلفات الهامة تدور في مجملها حول التصوف، سواء أكان تحديداً لماهيته، أم فهما للقرآن على ضوئه، أو مناقشة للأمور التي تلازمه كالذكر ونحوه... ومن أهم هذه المؤلفات:

١ - الرسالة القشيرية، كتبها المؤلف في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة إلى جماعة الصوفية ببلدان الاسلام.

كتبها تصحيحاً لأوضاع كثيرة انحرفت، وبياناً لما ينبغي أن يكون عليه المرید الصادق.

لقد كانت هناك جوانب كثيرة في الاجواء التي تزعم أنها صوفية قد دب إليها الفساد، وسلك بعض المدعين مسالك لا تمت إلى الدين ولا إلى التصوف بصلة، كما هو الشأن دائماً في المدعين المزيفين الذين يوجدون في كل عصر وفي كل ميادين، فأشفق الامام القشيري على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر - أي أمر التصوف - على هذه الجملة قد بنى قواعده، وعلى هذا النحو سار سلفه...

وقاده هذا الاشفاق إلى أن يكتب هذه الرسالة مبينا فيها جانبين:

الجانب الأول: سيرة رجال التصوف وبعض أقوالهم، وذكر في هذا الجانب كثيراً من أعلام الصوفية كنماذج يسير المرید على هديهم...

أما الجانب الثاني: فإنه مبادئ السلوك ومناهجه..

٢ - تفسيره المشهور: لطائف الاشارات «وستحدث عنه بالتفصيل».

٣ - التيسير في التفسير، مخطوط في الهند ولندن.

٤ - حياة الأرواح والدليل على طريق الصلاح والفلاح، مخطوط بالاسكوريال.

٥ - المعراج وقد حققه الدكتور على حسن عبد القادر.

٦ - شكابة أهل السنة، ذكرها السبكي في طبقات الشافعية كاملة..

٧ - الفصول، وهو مخطوط بالقاهرة.

٨ - الوحيد النبوي، مخطوط بالقاهرة.

٩ - اللمع، مخطوط بالقاهرة.

١٠ - شرح أسماء الله الحسنى، وقد طبعه مجمع البحوث الإسلامية..

وهذه المؤلفات انما تدل على تمكن صاحبها من علوم الشريعة والحقيقة، ورعايته في الحديث لما يقتضيه كل من العلمين، فلم يكن في حديثه عن التصوف إلا معبراً عن الشريعة، ولم يكن في حديثه عن الشريعة إلا موضعاً لها ببعض المفاهيم الصوفية..

وانتهى الأمر بالقشيري إلى أن أصبح كما يقول عنه الإمام عبد الغافر:

الإمام مطلقاً، الفقيه، المتكلم، الاصولي، المفسر، الاديب، النحوي، الكاتب، الشاعر لسان عصره، وسيد وقته، وسر الله بين خلقه، مدار الحقيقة، وعين السعادة، وقطب السيادة، من جمع بين الشريعة والحقيقة، كان يعرف الأصول على مذهب الاشعري، والفروع على مذهب الشافعي..

ولقد ترجم له صاحب كتاب «دمية القصر» أبو الحسن الباخري

فقال:

جامع لأنواع المحاسن، تنقاد له صعابها ذلل المراسين، فلو قرع الصخر بصوت تخديره لذاب، ولو ربط ابليس في مجلس تذكيره لتاب، وله فصل الخطاب في فصل المنطق المستطاب، ماهر في التكلم على مذهب الاشعري، خارج في احاطته بالعلوم عن الحد البشري كلماته للمستفيدين فوائد وفوائد،

واعتاب منبره للعارفين وسائد ثم إذا عقد بين مشايخ الصوفية حبوته ، وراوا قرته من الحق وحظوته : تضاء لوا بين يديه . وتلاشوا بالإضافة إليه وطواهم بساطه في حواشيه ، وانقسموا بين النظر والتفكير فيه . وله شعر يتوج به رءوس معاليه . إذا ختمت به أذنان أماليه .

وتوفى يوم الأحد في السادس عشر من شهر ربيع الأول عام ٤٦٥ هـ خمس وستين وأربعمائه بمدينة (نيسابور) ودفن بجوار شيخه أبي علي الدقاق رحمها الله رحمة واسعة .

قدم الامام القشيري لتفسيره بمقدمة تشير إلى منهجه ، وتبين طريقته في تأليفه فقال :

الحمد لله الذي شرح قلوب أوليائه بعرفانه . وأوضح نهج الحق بلائح برهان لمن أراد طريقه . وأتاج البصيرة لمن ابتغى تحقيقه ، وأنزل الفرقان هدى وتبيانا على صفيه محمد ﷺ وعلى آله معجزة وبيانا . وأودع صدور العلماء معرفته وتأويله . وأكرمهم بعلم قصصه ونزوله . ورزقهم الإيمان بمحكمة ومتشابهه وناسخه . ووعدده ووعيدده . وأكرم الاصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف اسراره وأنواره . لاستبشار ما ضمنه من دقيق اشاراته . وخبى رموزه بما لوح لاسرارهم من مكنونات ، فوقفوا بما خصوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم . ثم نطقوا على مراتبهم وأقذارهم والحق سبحانه وتعالى يلهمهم بما به يكرمهم فهم به عنه ناطقون وعن لطائفه مخبرون وإليه يشيرون . وعنه يفصحون والحكم إليه في جميع ما يأتون به ويذرون .

وقال الأمام أبو القاسم القشيري رحمه الله :

وكتابتنا هذا يأتي على ذكر طرف من اشارات القرآن على لسان أهل المعرفة اما من معاني مقولهم . أو قضايا أصولهم سلكتنا فيه طريق الاقلال خشية الملل . مستجدين من الله تعالى عوائد المنة . متبرئين من الحول والمنة . مستعصمين من الخطأ والخلل . مستوفقين لاصوب القول والعمل ملتزمين أن

بصلى على سيدنا محمد ﷺ . ليختم لنا بالحسنى بمتته وافضاله . وتيسر
الاخذ في ابتداء هذا الكتاب في شهور سنة اربع وثلاثين وأربعمائة . وعلى الله
اتمامه إن شاء الله تعالى عز وجل .

لقد بين في هذه المقدمة أن كتابه إنما هو ذكر لطرف من اشارات القرآن
على لسان أهل المعرفة . وهذه الاشارات دقيقة محكمة مختصرة . وحى وإن
كانت تعبر عن الحقيقة فإنها لا تخالف الشريعة . فكل شريعة غير مؤيدة
بالحقيقة فغير مقبول . وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محمول .

إن هذا التفسير يمثل مرحلة أخرى فوق مرحلة التفسير العادى الذى يعتمد
على قواعد اللغة وألوان العلوم التى يحتاج إليها المفسر . . إنه كشف لذوق .
وأبراز لاحساس تحصل من المجاهدة . وساعد عليه فضل الله تعالى الذى فجر
بنابيع الفهوم . .

ومن هنا يعد مكملًا لغيره من ألوان التفاسير لا سبائنا لها . ويتعاون الجميع
كل فى مجاله على فهم آيات القرآن الكريم .

ومن نماذج هذا التفسير :

قوله جل ذكره :

[وَكَأَيُّ مَنِ نَبِيٌّ قَاتِلٌ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا
أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
الصَّابِرِينَ]

(سورة آل عمران الآية ١٤٦)

« إن الذين درجوا على الوفاء . وقاموا بحق الصفاء . ولم يرجعوا عن
الضريق وطالبوا نفوسهم بالتحقيق . وأخذوا عليها بالتضييق والتدقيق . وجدوا
حجة الحق سبحانه ميراث صبرهم . وكان الخلف عنهم الحق عند نهاية
أمرهم . فما زاغوا عن شرط الجهد . ولا زاغوا فى حفظ العهد . وسلموا

تسليماً وخرجوا عن الدنيا وكان كل منهم للعهد مقيماً مستديماً . وعلى شرط
الخدمة والوداد مستقيماً . . . »

قوله جل ذكره : [يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ]

(سورة الإنفطار الآية ٦) أى ما خدعك وما سول لك حتى . عملت
بمعاصيه ؟ ويقال : سأله وكأنما فى نفس السؤال لقنه الجواب . يقول : غرني
كرمك بى ولولا كرمك لما فعلت . لانك رأيت فسترت . وقدرت فأمهلت . .
لا استحلالاته ولكن طول حلمه عنه حمله على سوء خصاله وكما قلت :

يقول مولاي : أما تستحي مما أرى من سوء أفعالك

قلت : يا مولاي رفقا فقد جرائى كثرة أفضالك

قوله جل ذكره : الذى خلقت فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء
ركبك أى ركب أعضائك على الوجوه الحكيمية فى أى صورة ما شاء . من
الحسن والقبح والطول والقصر ، ويصح أن تكون الصورة هنا بمعنى الصفة وفى
بمعنى على فيكون معناه : على أى صفة شاء ركبك : من السعادة أو
الشقاوة . والإيمان أو المعصية «

هذا وقد قام الدكتور إبراهيم بسيونى بجهد مشكور فى تحقيق هذا التفسير
واخراجه على صورة طيبة حازت إعجاب الجميع . فشكر الله له جهده .
ونفع بهذا التفسير . . .

شيخ الشافعية ببغداد

الكيا الهراس وتفسيره

الإمام شمس الإسلام عماد الدين أبو الحسن علي بن محمد الطبري المعروف بالكيا الهراس الملقب: عماد الدين.

«والكيا» بهمزة مكسورة ولام ساكنة، ثم كاف مكسورة بعدها ياء مثناه من تحت معناه الكبير بلغة الفرس.

«الهراس» براء مشددة وسين مهملة - قال ابن العماد في الشذرات: (لا نعلم تبعيته لاي شيء) ولد الهراس خامس ذي القعدة سنة خمسين وأربعمائة للهجرة ونشأ طالباً للعلم جادا في تحصيله ورحل في سبيله إلى نيسابور في الثامنة عشرة من عمره قاصداً ساحة العالم الجليل والإمام المشهور امام الحرمين الذي كان حسن الوجه مليح الكلام فحصل طريقته وتخرج وصار من ائمة اصحابه، وبرز في الفقه والأصول وغيرها من العلوم، وأصبح من رؤس المعيدين في الدرس - وكان هو وأقرانه - الغزالي والخوافي - أبرز تلاميذ امام الحرمين وأنبع من تخرج به.

ومما يدل على جده في تحصيل العلم وحفظه ما قاله عن نفسه:

وكان في مدرسة «سرهنك» قناة لها سبعون درجة وكنت إذا حفظت الدرس انزل القناة وأعيد الدرس كل درجة في الصعود والنزول، وكذا كنت افعل في كل درس حفظته. . .»

وقد واصل الهراس الرحلة إلى بيهق ودرس بها زمناً ثم تحول بعد ذلك إلى مدينة العلم وحاضرة العصر وموطن العلم والعلماء مدينة بغداد. وقد انتهى به الأمر في هذه المدينة إلى ان تبوأ بها منزلة رفيعة في العلم وشأنا عظيماً بين العلماء حيث تولى التدريس بالمدرسة النظامية بها في ذي الحجة سنة ثلاث وتسعين

وأربعمائة واستمر مدرسا بها إلى ان توفى في أول شهر المحرم سنة أربع وخمسمائة للهجرة .

مكانته وثناء العلماء عليه :

لقد بلغ الهراس منزلة سامية ومحلا مرموقا في العلم وبين العلماء وقد استفاض العلماء في بيان مكانته والتعريف بمنزلته فقال عبد الغفار بن اسماعيل الفارس عنه :

« الامام البالغ في النظر مبلغ الفحول » .

وقال السبكي عنه :

أحد فحول العلماء ورؤس الأئمة فقها وأصولا وجدلا وحفظا لمتون احاديث الاحكام .

وقال الاسنوى :

كان اماما نظارا ، قوى البحث ، دقيق الفكر ، ذكيا فصيحاً ، جهورى الصوت حسن الوجه جدا وكان في مناظرته قوى الحججة بين الدلالة واضح الرأى له لطافة وعدوبة .

يقول السبكي :

وكانت فيه لطافة عند مناظرته . ربما ناظر بعض علماء العراق فأنشد :

ارفق بعيدك ان فيه ييوسة جبلية ولك العراق وماؤه

قيل : انشد هذا البيت في مناظرته مع أبى الوفاء بن عقيل الحنبلى -

وكان أبو الوفاء مشهورا بتمسكه بالاصول وشدته في الرأى . وقد نقل عنه الجوزى في كثير من كتبه عن كتبه محتجا بآرائه ولا سيما في كتاب « تلبيس ابليس » .

وما يدل على هذه المكانة السامية ومنزلته بين علماء عصره . ما حكاه

الاسنوى قائلا :

« وكان ممن حضر جنازته الشريف أبو طالب الزيوني . وقاضى القضاة أبو الحسن بن الدامغانى مقديما أصحاب الحنفية ، وكانت بينه وبينها منافسة فوقف احدهما عند رأس قبره والآخر عند رجليه ، وأنشد ابن الدامغانى :
وما تغنى النوادب والبواكى وقد أصبحت مثل حديث أمس
وأنشد الشريف : -

عقم النساء فلم يلدن شبيهه ان النساء بمثله عقم
وقد رثاه خادمه أبو اسحق إبراهيم بن عثمان العزى الشاعر المشهور حيث قال :

بكى على شمس الاسلام اذا فلت بأدمع قل فى تشبيها المطر
حبر عهدناه طلق الوجه مبتسما والبشر احسن مايلقى به البشر
احيا ابن ادريس درسا كنت تورده تحار فى نظمه الآذان والفكر
من فاز منه بتعليق فقد علقت يمينه بشهاب ليس ينكدر

رحم الله الهراس الذى كان محبا لأهل بيت رسول الله ﷺ والسنة قولاً وعملاً حتى قال عنه ابن خلكان : كان محدثاً يستعمل الأحاديث فى مناظراته وبجالساته ونقل عنه قوله :

« إذا جالت الأحاديث فى ميادين الكفاح طارت رؤس المقاييس فى مهاب الرياح » .

فتاويه : -

وللهراس كثير من الفتاوى المنثورة فى امهات المراجع ونقلها عنه تلاميذه المشهورون . ومنها ما نقله عنه الحافظ أبى طاهر السلفى إذ قال :

« استفتيت شيخنا الكيا الهراس : مايقوله الإمام - وفقه الله تعالى - فى رجل أوصى بثلاث ماله للعلماء والفقهاء . اندخل كتبه الحديث هذه الوصية أم لا ؟

فكتب الشيخ تحت السؤال : نعم : كيف لا وقد قال النبي ﷺ .
« من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً » .

مؤلفاته : -

كثرت مؤلفات الهراس في فنون مختلفة شملت القرآن والحديث وعلوم الشريعة الغراء . ومن أشهر هذه المؤلفات :

أحكام القرآن - وستتناوله بالحديث بعد ذلك (لوامع الدلائل في زوايا المسائل) و (شفاء المسترشدين في مباحث المجتهدين) .

و (نقد مفردات الإمام أحمد) .

و (كتاب في أصول الفقه) .

أحكام القرآن

يعتبر كتاب أحكام القرآن الذي ألفه الهراس واحدا من أشهر التأليف التي تعنى بآيات الاحكام فيها واستنباطا واستخراجا للأصول منها حيث تظهر الثروة الكبيرة في مجال الفقه والتشريع الاسلامي .

وقد راعى مؤلفه فيه الايجاز والاختصار والاقتصار على اللباب فجاء كتابه وافيا في بابه نافعا لقارئه .

والكتاب يعد من أول الكتب المؤلفة في أحكام القرآن على مذهب الإمام الشافعي حيث استخدم منهجه وسلك مسلكه وسار على طريقته فضم بذلك - إلى جانب ما ألفه غيره من أتباع أبي حنيفة ومالك رحمهما الله نظرة تكاد تكون متكاملة على الجانب التشريعي للقرآن الكريم .

يقول الهراس اثناء مقدمته لهذا الكتاب .

« وبعد : فإني لما تأملت مذاهب القدماء المعبرين ، والعلماء المتقدمين والمتأخرين ومذاهبهم وآراءهم ولحظت مطالبهم وأبحاثهم ، رأيت مذهب الشافعي رضي الله عنه وأرضاه اسدها وأقواها وأرشدتها وأحكمها حتى كان نظره في كبر آرائه ومعظم أبحاثه يترقى عند حد الظن والتخمين إلى درجة الحق واليقين .

ولم أجد لذلك سببا أقوى وأوضح وأوفى من تطبيقه مذهبه على كتاب الله تعالى :

[الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ

حَكِيمٍ حَمِيدٍ] . (سورة فصلت الآية ٤٢)

وأنه أتيح له درك غوامض معانيه ، والغوص على تيار بحره لاستخراج

ما فيه . وان الله فتح عليه من أبوابه ويسر عليه من اسبابه ورفع له من حجابيه
ما لم يسهل لمن سواه ، ولم يأت لمن عداه فكان على ما أخبر الله تعالى عن ذي
القرنين في قوله : [آتِنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَاتَّبَعِ سَبَبًا] .

(سورة الكهف الآية ٨٤)

ولما رأينا الأمر كذلك اردت أن اصنف في احكام القرآن كتابا اشرح فيه
ما انتزعه الشافعي رضي الله عنه من أخذ الدلائل في غوامض المسائل
وضمنت إليه ما نسجته على منواله ، واحتذيت فيه على مثاله على قدر طاقتي
وجهدى ومبلغ وسعى وجدى . . .

ثم يقول : -

ولن يعرف قدر هذا الكتاب وما فيه من العجب العجائب إلا من وفر حظه
من علوم المعقول والمنقول . ومتبحر في الفروع والأصول ثم اكب على مطالعة
هذه الفصول بمسكة صحيحة وقرحة نقيه غير قرحة . . .

وأعوذ بالله من الاعجاب بالابداع والميل بالهوى إلى بعض الآراء في مظان
التزاع . وأسأله أن يجعل مجامع مساعينا وجل متاعينا في طلب مرضاته إنه ولى
قدير وبالاجابة جدير فأقول :

لما رأيت أقاويل المفسرين في أحكام القرآن متجاوزة حد البيان آخذة
بطرفى الزيادة والنقصان ، جررت في سرجها هذه الفصول المتضمنة من
اللفظ والمعنى شفاء كل عليل مع انتخاى فيها قصد السبيل . وتوقى التعليل
والتطويل . . .

وقد انتفع بهذا الكتاب الكثيرون من العلماء واثنوا عليه الثناء المستطاب
واعتمدوا عليه في تأليفهم بعده حتى قال عنه ابن العربي الذى جاء بعده فى
مقدمة كتابه أحكام القرآن .

إن مؤلفه أتى فيه بالعجب . ونثر فيه لباب الألباب وفتح فيه لكل من
جاء بعده إلى معارفة الباب . فكل أحد عرف منه على قدر انائه . . .

نموذج من « أحكام القرآن »

قوله تعالى : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا » . (سورة البقرة الآية ١١٤)

قوله « منع » نزل في شأن المشركين حين منعوا المسلمين من ذكر الله تعالى في المسجد الحرام وسعيهم في خرابه بمنعهم من عمارته بذكر الله وطاعته وقوله « أولئك ما كان لهم ان يدخلوها إلا خائفين » . يدل على ان المسلمين اخرجوهم منها إذ دخلوها .

ويدل على مثل ذلك قوله تعالى :

« مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ » .

وعمارتها تكون بيناتها واصلاحها والثاني حضورها ولزومها ، كما يقال : -

فلان يعمر مسجد فلان ، أى يحضره ويلزمه .

قوله عز وجل :

[وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ] . (سورة البقرة الآية ١١٥)

ويدل على جواز التوجه إلى الجهات في النوافل ، وللمجتهد جواز التعبد بالجميع ..

قوله تعالى : -

[وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ] .

دلت على أن التنظف وتنق الأوساخ والاقذار عن الثياب والبدن مأمور به وقد قال سليمان بن فرج أبو واصل أتيت أبا أيوب فصافحته فرأى في أظفري طولاً فقال : جاء إلى النبي عليه السلام رجل يسأل عن أخبار السماء فقال : يجيء أحدكم يسأل عن خبر السماء واطفاره كأنها أظفار الطير يجتمع فيها الوسخ والنفث ؟

قوله تعالى : --- [إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا] .

الامام : من يؤتم به في امر الدين كالنبي عليه السلام والخليفة والعالم اخبر الله تعالى ابراهيم انه جاعله للناس اماما . وسأل ابراهيم ربه أن يكون ابناؤه أئمة فقال تعالى :

[لَأَيِّنَّا لُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ] . (سورة البقرة الآية ١٢٤)

ودل قوله تعالى :

[لَأَيِّنَّا لُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ] .

على ان الاجابة قد وقعت له في ان من ذريته ائمة ولكن لا امامه لظالم حتى لا يقتدى به . ولا يجب على الناس قبول قوله في امر الدين .

نعم : كان يجوز ان تظهر المعجزة على يد فاسق ظالم ، ويجب قبول قوله لوجود الدليل . وان لم يجب قبول قول الفاسق لعدم ظهور الصدق وعدمه عقلا غير ان العصمة وجبت للانبياء سمعا .

وجوز عقلا وجوب قبول قول الفاسق ولكن دلت هذه الآية على ان عهد الله تعالى لا ينال الظالمين .

فيحتمل أن يكون ذلك النبوة ، ويحتمل أن يكون ما اراد لهم من امر دينه . وأجاز قولهم فيه ، وأمر الناس بقبوله منهم .

ويطلق العهد على الأمر قال الله تعالى .

[إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْنَا] . (سورة آل عمران الآية ١٨٣)

يعنى امرنا وقال :

[أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ] . (سورة بَسّ الآية ٦٠)

يعنى ألم اقدم إليكم الأمر به .

وإذا كان عهد الله هو أوامره ، فقوله : [لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ]

لا يريد به انهم غير مأمورين لأن ذلك خلاف الاجماع ، فدل على ان المراد به أن يكونوا محملة من تقبل منهم أوامر الله ، ولا يؤمنون عليها .

الواحدى النيسابورى وأسباب النزول

هو على بن أحمد بن محمد بن على الواحدى النيسابورى ، الامام الكبير أبو الحسن كان أبوه من التجار فتهياً له طلب العلم والأخذ منه ، فأخذ العربية عن أبى الحسن القهندزى . واللغة عن أبى الفضل أحمد بن محمد بن يوسف العروضى صاحب أبى منصور الأزهرى ، وسمع من أبى الطاهر الزيادى وأبى بكر أحمد بن الحسن الخيبرى وأبى إبراهيم إسماعيل بن إبراهيم الواعظ . وعبد الرحمن بن حمدان النصورى . وأحمد إبراهيم النجار وخلق .

وداب الواحدى فى طلب العلم ، وجد فيه حتى لقد قيل عنه : واحد عصره فى التفسير وكان له من المؤلفات الكثيرة فى التفسير وغيره . ومن مؤلفاته فى ذلك :

البسيط ، والوسيط ، والوجيز ، وكلها تفسير للقرآن الكريم ، فالبسيط فى نحو ستة عشر مجلداً ، والوسيط فى أربعة مجلدات ، والوجيز فى أقل من ذلك :

ومنها : اسباب النزول وهو موضوع حديثنا وهو مطبوع بمصر محقق .

ومنها : التحبير فى شرح الأسماء الحسنى .

ومنها : شرح ديوان المتنبى .

ومنها : الدعوات .

ومنها : المغازى .

ومنها : الاغراب فى علم الاعراب .

ومنها : كتاب تفسير النبى ﷺ .

ومنها : شرح ديوان المتنبي .

وكان له شعر مليح ، واختيار طيب لما ينقل ، فمن تفسيره فيما نقله التاج السبكي في طبقاته مقاله في الوسيط في تفسيره سورة القتال عند الكلام على قوله تعالى :

[وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ] .

أخبرني أبو الحسن محمد بن أحمد بن الفضل بن يحيى ، عن محمد بن عبيد الله الكاتب قال :

قدمت مكة ، فلما وصلت إلى طيزناباذ ذكرت بيت أبي نواس :

كرم ما مررت به إلا تعجبت ممن يشرب الماء
فهتف بي هاتف اسمع صوته ولا اراه :

وفي الجحيم حميم ما تجرعه حلق فابقي له في البطن امعاء
وفي تفسير « ألم نشرح » نقل بسنده عن ابن العتيبي قال :

كنت ذات ليلة في البادية بحالة من الغم ، فالتقي في روعي بيت من الشعر ، فقلت :

ارى الموت لمن أصـ سبح مغموما له ارواح

فلما جن الليل سمعت هاتفا يهتف في الهواء .

ألا ايها المرء الـ ذى الهم به برح

وقد انشد بيتا لم يزل في فكره يسبح

إذا اشتد بك . الأمر . ففكر في ألم نشرح

فعرين يسرين إذا ابصرته فافرح

وقد نقل الواحدى عن الشعبي قال :

فرق الله تنزيله فكان بين أوله واخره عشرون أو نحو عشرين سنة انزله قرآنا

عظيماً وذكرها حكيمياً ، وحبلها ممدوداً ، وعهدا معهوداً ، وظلاً عمياً ، وصراطاً مستقيماً ، فيه معجزات باهرة وآيات ظاهرة ، وحجج صادقة ، ودلالات ناطقة ، دحض به حجج المبطلين . ورد به كيد الكائدين ، وايد به الاسلام والدين فلمع منهاجه ، وثقب سراجُه ، وشملت بركته ، ولعت حكمته على خاتم الرسالة ، والصادع بالدلالة ، الهادي للأمة ، الكاشف للغمة الناطق بالحكمة ، المبعوث بالرحمة ، فرغ اعلام الحق ، واحيا معالم الصدق ، ودفع الكذب ومحا اثاره ، وقع الشرك وهدم مناره ، ولم يزل يعارض بيناته المشركين ، حتى مهد الدين ، وابطل شبه الملحدين ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة لاينتهي امدها ، ولاينقطع مددها وعلى اله واصحابه الذين هداهم وطهرهم

أما كتابه اسباب النزول فهو من احسن المؤلفات في هذا الباب وقد جمع فيه تقريباً جميع المرويّات من الحديث وأقوال الصحابة والتابعين في سبب نزول الآيات ، وقد رتبها سورة بعد سورة . على ترتيب المصحف ويذكر في كل سورة منها ما ورد من سبب نزول الآيات بها فليس كل آية ورد بها سبب نزول عنده ولكنه عد ذلك في كثير من الآيات مع ذكر السند الذي يوثقها .
وهناك نموذجاً من أسباب النزول : -

قوله تعالى :

[سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] . (سورة الصّاف الآية ١)

أخبرنا محمد بن جعفر ، حدثنا محمد بن عبد الله بن زكريا . أخبرنا محمد بن عبد الرحمن الدغولي ، قال : حدثنا محمد بن بهيجي ، حدثنا محمد بن كثير الصنعاني عن الأوزاعي عن يحيى بن كثير ، عن ابن سلمة عن عبد الله بن سلام :

قال :

تعدنا نفر من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتذكرنا وقلنا :

لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله تبارك وتعالى عملناه . فأنزل الله تعالى :
[سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ] .

إلى قوله :

[إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بَنِيَانٌ
مَرَّضُونَ] . (سورة الصف الآية ١ ، ٤)

إلى آخر السورة فقرأها علينا رسول الله ﷺ .

وفي سورة الفتح : قوله عز وجل :

[لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ] . إلى آخر الآية .

أخبرنا سعيد بن محمد المقرئ قال : حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد
المديني ، قال حدثنا أحمد بن عبد الرحمن السقطي قال : حدثنا يزيد بن
هارون قال : أخبرنا همام عن قتادة عن أنس قال :

لما نزلت :

[إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ، لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ
ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ] .

قال أصحاب رسول الله ﷺ : هنيئا لك يا رسول الله ما أعطاك الله ، فما
لنا ؟ فأنزل الله تعالى :

[لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ . . .] . (سورة الفتح الآية ١ ، ٥)

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأفتاويل في وجوه التأويل

مؤلفه هو : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري - الملقب بـ « جار الله »
وقد كان حنفي المذهب ، معتزلي العقيدة .

ولقب بجار الله ، لأنه ذهب إلى مكة وجاور بها زمنا .

أما مولده : فكان في رجب سنة ٤٦٧ هـ في قرية من قرى « خوارزم
تسمى « زمخشر » ومن هنا كان انتسابه إليها فقبل له : الزمخشري .
رحلته :

وقد دأب الزمخشري على السفر والانتقال من مكان إلى مكان ، فقد سافر
إلى بغداد ، وسافر إلى « خراسان » عدة مرات ، وسافر إلى الأرض المقدسة ،
وأقام بها طويلا ، وألف فيها كتابه « الكشاف » الذي يقول عنه : انه ألفه في
مدة مقدارها مدة خلافة أبي بكر رضي الله عنه أي سنتان وبضعة أشهر ، انه
يقول :

« ووفق الله وسدد ففرغ منه في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق رضي
الله عنه ، وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة ، وماهي إلا آية من آيات
هذا البيت المحرم . وبركة أفيضت على من بركات هذا الحرم المعظم ، أسأل
الله أن يجعل ماتعبت فيه سببا ينجيني ونورا لي على الصراط يسعي بين يدي
وعيني ، ونعم المسئول . . . »

لقد ألفه الزمخشري في أواخر عمره ، وألفه بعد أن أجرى تجربة في التفسير
كانت ناجحة ، وذلك أنه طلب إليه املاء تفسير ويقول عن ذلك :

فأملت عليهم مسألة في الفواتح ، وطائفة من الكلام في حقائق سورة

البقرة ، وكان كلاما مبسوطا كثير السؤال والجواب ، طوف بالذبول والأذنان ، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم وأن يكون لهم منارا يحجونه ، ومثالا يحتذونه . . . »

ونجحت هذه التجربة ، فأخذ الناس يفتدون إليه ليأخذوها عنه ، ويسافرون إليه ليستفيدوا بها منه . ثم - لما حط رحاله بمكة - شرع في تفسيره « الكشاف » ولم يؤلفه على نسق التجربة السابقة وإنما : « في طريقة أخصر من الأولى - كما يقول - مع ضمان التكثير من الفوائد والفحص عن السرائر » .
توفي الزمخشري سنة ٥٣٨ هـ بخرجانية خوارزم .

أما كتابه فإن الناس يقولون عنه عادة : « الكشاف للزمخشري » وهو كتاب آثار - وما زال يثير - الاستحسان الجهم ، والنقد اللاذع إذ أن صاحبه بوصف بوصفين ظاهرين يعلنهما على الملأ ويذكرهما دون خفاء .

أما أحد هذين الوصفين فهو : أنه يتمذهب بمذهب أهل الاعتزال ويعتز به إلى درجة أنه كان أحيانا إذا قصد صاحبها له ، واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الاذن :

« قل له : أبو القاسم المعتزلي بالباب »

ويركز على كلمة « المعتزلي . . . »

وقد بدأ تفسيره منذ الكلمات الأولى على مذهب الاعتزال وسار فيه من أوله إلى آخره واضعا نصب عينيه هذا المذهب ، ففسر الآيات التي اختلف فيها بين أهل السنة وأهل الاعتزال على طريقة المعتزلة ، وأسرف في ذلك . . .

والقرآن الكريم ليس كتاب مذهب ، فإذا وضعت الأساس عند التفسير على طريقة معينة ، واتخذت ذلك شعارا فقد منت عن شرعة الانصاف . ومن هنا كان النقد المستفيض من قلم علماء أهل السنة .

أما الوصف الثاني - الذي ظهر في وضوح في التفسير وفي صاحب

التفسير :

فهو هذا النوع من بيان اعجاز القرآن في بلاغته وفصاحته ، وايضاح أنه حقيقة من كلام رب العالمين ، وليس للبشر إلى مثله من سبيل ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

ولقد أعد الزمخشري نفسه لهذا اعدادا كاملا :

لقد أعد له لغة ، وأعد له بلاغا وبيانا ، وأعد له اسلوبا وفصاحة وأعد له نحوا وصرفا . . .

ولكن الذى يركز عليه صاحب الكشف ولا يرى من اتقانه مناصا للمفسر هو : علم المعانى ، وعلم البيان وما من شك في أن التفسير يحتاج إلى علوم جملة نترك للزمخشري نفسه بيانها ، أنه يقول عن التفسير :

« لا يتم لتعاطيه واجالة النظر فيه كل ذى علم - كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن - فالفقيه ان برز على الاقران في علم الفتاوى والاحكام والمتكلم وان برز الدنيا في صناعة الكلام ، وحافظ القصص وال اخبار وان كان من ابن القرية احفظ (أحد فصحاء العرب) والواعظ وان كان من الحسن البصرى أوعظ والنحوى وان كان انحى من سيويه واللغوى وان علك اللغات بقوة لحييه : لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص عن شىء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما : علم المعانى وعلم البيان ، وتمهل في ارتيادهما آونة ، وتعب في التنقير عنها ازمنة ، وبعثته على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله - بعد أن يكون أخذ من سائر العلوم بحظ جامعا بين أمرين : تحقيق - وحفظ - كثير المطالعات طويل المراجعات ، قد رجع زمانا ، ورجع إليه ورد عليه فارسا في علم الاعراب مقدا في حملة الكتاب ، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها : مشتعل القريحة وقادها - يقضان النفس داركا للمحة وان لطف شأنها ، منها على الرمزة وان خفى مكانها لاكرا جاسيا ولا غليظا جافيا ، متصرفا ذا دراية بأساليب النظم والنثر ، مرتضى غير ربض بتلقيح بنات الفكر ، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف

ينظم ويرصف ، طالما دفع إلى مضايقة . ووقع في مداخضة ومزالقة »

ولقد أعجب الزمخشري بتفسيره حتى أنه ليقول فيه شعرا . منه :

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد

وليس فيها لعمرى مثل كشافي

إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته

فالجهل كالداء والكشاف كالشافي

وربما كان اصدق ما قيل فيه هو كلام الشيخ حيدر الهروي . فانه ، فاه ، فاه

حقه فيما هو عليه من البلاغة والبيان . وذلك حق لا يمارى فيه انسان ، ثم بين

ما أخذ عليه وهو حق أيضا لا ينكره منصف ، أما ما للزمخشري - فيما رأى

الشيخ الهروي - فإنه يقول :

« إن كتاب الكشاف على القدر ، رفيع الشأن لم ير مثله في تصانيف

الأولين ، ولم يرد شبيهه في تأليف الآخرين . انفتحت على متانة تراكيبه الرشيقة

كلمة المهرة المتقين . واجتمعت على محاسن اساليبه الأنيقة السنة الكلمة من

المفلقين . ما قصر في قوانين التفسير وتهذيب براهينه . وتمهيد قواعده ، وتشيد

معاقده .

وكل كتاب بعده في التفسير - ولو فرض أنه لا يخلو عن النقيير والقطمير إذا

قيس به - لا تكون له تلك الطلاوة ، ولا يوجد فيه شيء من تلك الحلاوة .

على أن مؤلفه يقتنى أثره ، ويسأل خبره وقلما غير تركيبا من تراكيبه إلا وقع في

الخطأ والخطل ، وسقط من مزالق الخبط والزلل ، ومع ذلك كله إذا فتشت

عن حقيقة الخبر ، فلا عين منه ولا أثر . ولذلك قد تداولته أيدي النظار

فاشهر في الاقطار كالشمس في وسط النهار . . .

أما ما يؤخذ عليه فهو أمور منها :

أنه كلما شرع في تفسير آية من الآيات القرآنية مضمونها لا يساعد هواد .

ومدلولها لا يطاوع مشتبهاه : صرفها عن ظاهرها بتكلفات باردة ، وتعسفات جامدة ، وصرف الآية - بلا نكتة بلاغية لغير ضرورة - عن الظاهر ، تحريف لكلام الله سبحانه وتعالى ، وليته يكتب بقدر الضرورة ، بل يبالغ في الاطناب والتكثير لثلاثتهم بالعجز والتقصير ، فتراه مشحونا بالاعتزالات الظاهرة التي تتبادر إلى الافهام ، والخفية التي لا تتسارق إليها الأوهام بل لا يهتدى إلى حبائله إلا وراود بعد وراود من الأذكياء الخذاق - ولا ينتبه لمكائده إلا واحد من فضلاء الافاق ، وهذه آفة عظيمة ، ومصيبة جسيمة .

ومنها : أنه يطعن في أولياء الله المرتضين من عباده ، ويفغل عن هذا الصنيع لفرط عناده ، ونعم ما قال الرازي في تفسير قوله تعالى : « يحهم ويحبونه » : خاض صاحب « الكشاف » في هذا المقام في الطعن في أولياء الله تعالى ، وكتب فيها مالا يليق بعامل أن يكتب مثله في كتب الفحش ، فهب أنه اجترأ على الطعن في أولياء الله تعالى ، فكيف اجترأوه على كتبه ذلك الكلام الفاحش في تفسير كلام الله المجيد .

ومنها : أنه . . . أورد فيه أبياتا كثيرة - وأمثالا غزيرة ، بنى على الهزل والفكاهة أساسها وأورد على المزاج البارد نبراسها وهذا أمر من الشرع والعقل بعيد لاسيا عند أهل العدل والتوحيد .

ومنها : أنه يذكر أهل السنة والجماعة وهم الفرقة الناجية - بعبارات فاحشة ، فتارة يعبر عنهم بالمجبرة ، وتارة ينسبهم على سبيل التعريض إلى الكفر والإلحاد - وهذه وظيفة السفهاء الشطار ، لا طريقة العلماء الابرار

وهاك نموذجا من التفسير لقوله تعالى :

[الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ، يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ]

(سورة الزخرف الآية ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠)

قال : « يومئذ » منصوب بعدو ، أى منقطع فى ذلك اليوم كل خلة بين المتخالين فى غير ذات الله ، وتنقلب عداوة ومقتا إلا خلة المتصادقين فى الله ، فإنها الخلة الباقية المزايدة قوة إذا رأوا ثواب التحاب فى الله تعالى - والتباغض فى الله - وقيل « الا المتقين » الا المجتنبين اخلاء السوء .

وقيل : نزلت فى أبى بن خلف وعقبة بن أبى معيط .

« يا عباد » حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون فى الله يومئذ « الذين آمنوا » منصوب المحل صفة لعبادى لانه منادى مضاف . أى الذين صدقوا « بأياتنا وكانوا مسلمين » مخلصين وجوههم لنا جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا .

وقيل : إذا بعث الله الناس فزع كل أحد فينادى مناد يا عبادى فيرجوها الناس كلهم ثم يتبعها الذين آمنوا فيأس الناس منها غير المسلمين .

قرىء يا عباد « تحبرون » تسرون سرورا يظهر حباره ، أى أثره فى وجوهكم كقوله تعالى :

« تعرف فى وجوههم نضرة النعيم » .

وقال الزجاج : نكرمون اكراما يبالغ فيه ، والحبرة المبالغة فيما وصف يجميل .

رحم الله الزمخشري ونفع الناس بعلمه .



ابن العربي وتفسيره (أحكام القرآن)

مؤلف هذا التفسير هو :

أحد الاعلام الكبار - ختام علماء الأندلس ، وآخر أئمتها وحفاظها
القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد - المعافى
الاندلسى الاشبلى .

ولد أبو بكر سنة ٤٦٨ هجرية وتأدب ببلده وقرأ القراءات وسمع به من أبي
عبد الله بن منظور ، وأبي محمد بن خزرج ثم انتقل ورحل إلى جملة من
البلاد والأقطار فسمع العلم في بلاد الاندلس وبخاصة قرطبة التي زخرت
بالعلماء أمثال أبي عبد الله بن عتاب وأبي مروان بن سراج وغيرهما وحصلت له
عناية العبادية - أصحاب اشبيلية في ذلك الوقت - رياسة ومكانة فلما
انقضت دولتهم خرج إلى الحج مع ابنه القاضي أبي بكر سنة ٤٨٥ هـ
وطوف في البلاد يأخذ عن علماء كل قطر يتزل فيه ، فلقى بمصر أبا الحسن
الخلعى ، وأبا الحسن بن مشرف ، وأبا الحسن بن داود الفارسى وغيرهم ،
وفي مكة سمع من أبي عبد الله الحسين بن على الطبرى وغيره ، وفي الشام لقي
أبا حامد الغزالى والإمام أبا بكر الطرطوشى الذى تفقه به ، وأبا سعيد
الزنجاتى ، وأبا نصر المقدسى وغيرهم كثير ، وفي عاصمة العلم بغداد التي زارها
عدة مرات سمع من أبي الحسن المبارك بن عبد الجبار الصيرفى ، ومن أبي
بكر بن طرخان ، ومن النقيب الشريف أبى الفوارس طراد بن محمد الزينبى ،
وأبى زكريا التبريزى وآخرين يضيق المقام عن سرد أسمائهم ، وما أحد منهم إلا
وله شهرة في فنه وعلمه فعن هؤلاء وهؤلاء أخذ مجلة من الفنون حتى اتقن الفقه
والأصول ، وقيد الحديث واتسع في الرواية ، واتقن مسائل الخلاف والكلام
وتبحر في التفسير وبرع في الأدب والشعر . . .

وأخيراً وبعد هذه الرحلات المتوالية والجد في طلب العلم عاد ابن العربي ،
عاد وفي جمعته العلم الكثير حتى قيل عنه :

لم يأت به أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق وعلى الجملة فقد كان
رحمه الله من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها - والجمع لها متقدماً في
المعارف كلها - متكلماً في أنواعها - نافذاً في جمعها - وحريصاً على أدائها
ونشرها حتى قالوا عنه :

إنه أحد من بلغ مرتبة الاجتهاد ، واحد من انفرد بالاندلس بعلوم الإسناد
ويجمع إلى ذلك كله :

آداب الاخلاق ، مع حسن المعاشرة ، وكثرة الاحتمال - وكرم النفس
وحسن العهد ، وثبات الود ، وغير ذلك من صفات العلماء العاملين الذين
بألفون ويؤلفون رضي الله عنه وارضاه .

هذا هو ابن العربي - كما تصوره المصادر - حتى صار استاذاً .

وكثر تلاميذ الاستاذ ابن العربي كثرة فائقة : رحلوا إليه وسمعوا منه وأخذوا
عنه - ويكفي أن نذكر من تلاميذه : القاضي عياض الذي قال عن استاذه :

« واستقصى أبو بكر يبلده فنفخ الله به أهلها لصرامته وشدته ونفوذ
احكامه ، وكانت له في الظالمين سورة مرهوبة ، يؤثر عنه في قضائه احكام
غريبة ، ثم صرف عن القضاء ، وأقبل على نشر العلم وبثه .

وكان نصيحاً ادبياً شاعراً كثير الخبر ، مليح المجلس »

وأخذ عنه أبو زيد السبيلي - وأحمد بن خلف الطلاعي -
وعبد الرحمن بن ربيع الأشعري والقاضي أبو الحسن الخلعي وغيرهم .

أما التصانيف التي تركتها المعية ابن العربي فهي من الكثرة والإفادة بمكان
نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :
احكام القرآن - وهو ما نحن بصدده
كتاب : المسالك في شرح موطأ مالك .

كتاب : القبس على موطأ مالك .
عارضه الأحوذى على كتاب الترمذى .
القواصم والعواصم .
المحصل فى أصول الفقه
وكتاب القانون فى تفسير الكتاب العزيز .

وكتاب الانصاف فى مسائل الخلاف - عشرون مجلدا - وغير ذلك
كثير - وما يجدر بالذكر ما قاله ابن العربى فى كتابه (القبس) : إنه ألف كتابه
المسمى « انوار الفجر فى تفسير القرآن » فى عشرين سنة ثمانين ألف ورقة ،
وتفرقت فى أيدي الناس - وبالجملة فقد خلف ابن العربى رحمة الله كتباً كثيرة
انتفع الناس بها بعد وفاته ، كما نفع هو بعلمه من جلس إليه فى حياته .
وقد كانت وفاته بعد هذه الحياة العلمية الكريمة سنة ٥٤٣ هـ فى مراكش
وحمل ميتا إلى مدينة فاس ، ودفن بها رضى الله عنه وارضاه .

تفسير ابن العربى : أحكام القرآن

يتعرض هذا التفسير لآيات الأحكام فى القرآن الكريم كما يظهر من اسمه -
وطريقه فى تفسيره : أن يذكر السورة - ثم يذكر عدد ما فيها من آيات
الأحكام ، ثم يأخذ فى شرحها آية آية قائلا : الآية الأولى وفيها خمس مسائل
مثلا . . .

والآية الثانية وفيها سبع مسائل مثلا . . . وهكذا حتى يفرغ من آيات
الأحكام الموجودة فى السورة كلها .

وكتاب أحكام القرآن يعتبر مرجعا مهما للتفسير الفقهى عند المالكية ،
وذلك لان ابن العربى كان مالكي المذهب كثير التعصب له والدفاع عنه .

غير إنه - والحق يقال - لم يكن مشتطا فى تعصبه إلى الدرجة التى
يتغاضى فيها عن كل زلة علمية تصدر من مجتهد مالكي ، ولم يبلغ به التعسف
إلى الحد الذى يجعله ينقد كلام مخالفه إذا كان وجيها ومقبولا .

والذى يتصفح هذا التفسير يلمس منه روح الانصاف لمخالفه أحيانا - كما يلمس منه روح التعصب المذهبي التى تستولى على صاحبها فتجعله أحيانا كثيرة يرمى مخالفه ، وان كان اماما له قيمته ومركزه بالكلمات المقذعة اللاذعة ، تارة بالتصريح ، وتارة بالتلميح .

فإذا أضيف إلى ذلك ما ذكرناه من قبل إنه جمع آداب الاخلاق وحسن المعاشرة وكثرة الاحتمال ، وكرم النفس وحسن العهد وثبات الود . . . إذا أضيف ذلك علمنا أن ما كتبه ابن العربى فى كتبه كلها انما هو محوط بسياج الروح العلمية الاسلامية الكريمة من عالم جمع إلى العلم وفضله العمل به والسير على منواله . رحم الله ابن العربى واجزل له المثوبة ونفع الله بعلمه أنه سميع مجيب .

وهاك نموذج من تفسيرة : قوله تعالى [وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ] فيها ست مسائل :

المسألة الأولى : قوله تعالى (أمة) كلمة ذكر لها علماء اللسان خمسة عشر معنى رأيت من بلغها إلى أربعين ، منها أن الأمة بمعنى الجماعة ، ومنها أن الأمة الرجل الواحد الداعى إلى الحق .

المسألة الثانية : فى هذه الآية إلى بعدها وهى قوله :

[كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ]

(سورة آل عمران الآية ١١٠)

دليل على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية ومن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نصرة الدين باقامة الحججة على المخالفين ، وقد يكون فرض عين إذا عرف منه .

المسألة الثالثة : فى مطلق قوله تعالى :

[وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ] (سورة آل عمران الآية ١٠٢)

دليل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض يقوم به المسلم ، وإن لم يكن عدلا . خلافاً للمبتدعة الذين يشترطون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر العدالة

وقد بينا في كتب الأصول أن شروط الطاعات لا تثبت إلا بالأدلة ، كل أحد عليه فرض في نفسه أن يطيع ، وعليه فرض في دينه أن ينه غيره على ما يجهله من طاعة أو معصية ، وبيناه عما يكون عليه من ذنب . وقد بيناه في الآية الأولى قبلها .

المسألة الرابعة - في ترتيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ثبت عن النبي ﷺ أنه قال :

« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطع فقلبه . وذلك أضعف الإيمان » وفي هذا الحديث من غريب الفقه أن النبي ﷺ بدأ في البيان بالأخيراً في الفعل . وهو تغيير المنكر باليد . وإنما يبدأ باللسان والبيان فإن لم يكن فباليد .

يعنى أن يحول بين المنكر وبين متعاطيه بترعه عنه ويجذبه منه فإن لم يقدر إلا بمقاتلة وسلاح فيتركه . وذلك إنما هو إلى السلطان ، لأن شهر السلاح بين الناس قد يكون مخرجا إلى الفتنة وآيلا إلى فساد أكثر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . مثل أن يرى عدوا يقتل عدوا فيترعه منه ولا يستطيع إلا بدفعه ويتحقق أنه لو تركه قتله . وهو قادر على نزعها ولا يسلمه بحال وليخرج السلاح .

المسألة الخامسة : في هذه الآية دليل على مسألة اختلف فيها العلماء ، وهي إذا رأى مسلم فحلا يصول على مسلم فإنه يلزمه أن يدفعه عنه ، وإن أدى إلى قتله ولا ضمان على قاتله حينئذ ، سواء كان القاتل له هو الذي صال عليه الفحل أو معينا له من الخلق وذلك إنه إذا دفعه عنه فقد قام بفرض يلزم جميع المسلمين فتاب عنهم فيه ، ومن جملتهم مالك الفحل فكيف يكون نائبا عنه في قتل الصائل ويلزمه ضمانه ؟

وقال أبو حنيفة : يلزمه الضمان ، وقد بينها في مسائل الخلاف .
المسألة السادسة : في هذه الآية دليل على تعظيم هذه الأمة وكذلك في
قوله سبحانه :

[كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ] .



تفسير الإمام ابن الجوزي « زاد المسير »

تقديره :

الإمام ابن الجوزي علم من أعلام الفكر الإسلامي ، برز في الحديث والوعظ والتفسير والتاريخ وغيرها من أصناف العلوم اللسانية ، ووصل فيها إلى مرتبة مشهورة ، تحدث عنها باعجاب ، وأقره العلماء على هذا الحديث ، قال في كتابه « لفته الكبد » :

ولقد وضع الله لي من القبول في قلوب الخلق فوق الخد ، وأوقع كلامي في نفوسهم فلا يرتابون بصحته ، وقد أسلم على يدي نحو مائتين من أهل الذمة .
وقال سبطه أبو المظفر : أقل ما كان يحضر مجلسه عشرة آلاف . .
وسمعه يقول على المنبر في آخر عمره : « كتبت باصبعي هاتين ألفي مجلدة ، وتاب على يدي مائة ألف » .

وقال عنه الحافظ الديلمي في ذيله على تاريخ ابن السمعاني :

شيخنا الإمام جمال الدين بن الجوزي صاحب التصانيف في فنون العلم من التفاسير والفقه والحديث والوعظ والرقاق والتواريخ وغير ذلك ، وإليه انتهت معرفة الحديث وعلومه ، والوقوف على صحيحه من سقيه ، وله فيه المصنفات من المسانيد والأبواب والرجال ، ومعرفة ما يحتاج به في أبواب الأحكام والفقه وما لا يحتاج به من الأحاديث الواهية الموضوعية ، والانقطاع والاتصال ، وله في الوعظ العبارة الرائقة ، والإشارات الفائقة ، والمعاني الدقيقة ، والاستعارة الرشيقة ، وكان من أحسن الناس كلاماً ، وأتمهم نظاماً ، واعذبهم لساناً ، وأجودهم بياناً ، وبورك له في عمره وعمله فروى الكثير ، وسمع الناس منه أكثر من أربعين سنة ، وحدث بمصنفاته مراراً . . .

وقال الموفق عبد اللطيف : كان ابن الجوزى لا يضيع من زمانه شيئا ، يكتب في اليوم أربعة كراريس . ويرتفع له كل سنة من كتابته ما بين خمسين مجلدا إلى ستين ، وله في كل علم مشاركة . لكنه كان في التفسير من الاعيان ، وفي الحديث من الحفاظ . وفي التاريخ من المتوسعين ، ولديه فقه كاف .

وقال ابن خلكان : وبالجملة فكتبه أكثر من أن تعد ، وكتب بخطه شيئا كثيرا ، والناس يغالون في ذلك حتى يقولوا : إنه جمعت الكراريس التي كتبها وحسبت مدة عمره ، وقسمت الكراريس على المدة فكان ما خص كل يوم تسع كراريس . . ويقال : إنه جمعت براية أقلامه التي كتب بها حديث رسول الله ﷺ فحصل منها شيء كثير . وأوصى أن يسخن بها الماء الذي يغسل به بعد موته ، ففعل ذلك ، فكفت وفضل منها .

حياته :

ولد ابن الجوزى أبو الفرح جمال الدين عبد الرحمن بن أبي الحسن بن علي في سنة إحدى عشرة وخمسمائة من الهجرة ببغداد ، وتوفي والده وهو ابن ثلاث فكفلته أمه وعمته . واتجه إلى العلم منذ بدأ وعيه بالحياة ، فاتجه إلى سماع العلم في سن الخامسة وحفظ القرآن وهو صغير . وسمع أمهات كتب الحديث كمسند أحمد وصحيح البخاري ومسلم وجامع الترمذي ومالا يحصى من كتب الحديث .

ومن ملامح نشأته ، ومظاهر حياته ما يقوله ابن العماد من أنه كان يراعى حفظ صحته ، وتلطيف مزاجه ، وما يفيد عقله قوة ، وذهنه حدة ، لباسه الناعم الأبيض المطيب . . وله مداعبات حلوة وما تناول مالا من جهة لا يتيقن حلها ، ولا ذل لأحد . . قال في لفته الكبد يخاطب ولده : وما ذل أبوك في طلب العلم قط ، ولا خرج يطوف في البلدان كغيره ، من الوعاظ ولا بعث رقعة إلى أحد يطلب منه شيئا . .

ولم تكن حياته كلها سهلة ميسرة ، لينة مبهجة ، لقد استلذ في سبيل العلم

ما يستصعبه غيره وقنع في سبيل الوصول إلى ما يتغنيه بالقليل . . . إنه يذكر في كتابه صيد الخاطر ، إنه كان في زمن الطلب يأخذ معه ارغفة يابسة ويخرج في طلب الحديث ، فيقف على نهر عيسى لا يقدر على أكل هذا الخبز اليابس إلا عند المالك ، كلما أكل لقمة شرب عليها شربة ، وأنه وجد مع ذلك من لذة العلم وحلاوة الإيمان ما جعله يخاف على نفسه العجب ان شرحه . . .

ولقد حجب إليه العلم من زمن الطفولة ، ولم يرغب في فن واحد من فنونه ، بل رغب في كل منه ، وكان يتردد أبدا بين الزهد والعبادة وبين العلم والبحث .

شيوخه :

ومن أهم شيوخه أبو الحسن بن الزاغوني الذي كان كما قال ابن الجوزي : له في كل فن من العلم حظ وافر ، ووعظ مدة طويلة ، وكان له حلقة بجامع المنصور يناظر فيها يوم الجمعة قبل الصلاة ثم يعظ فيها بعد الصلاة ، ويجلس يوم السبت أيضا .

وكان من شيوخه أبو القاسم الحريري وأبو القاسم السمرقندي ، وأبو منصور القزاز ، وعبد الجبار بن منده ، وقرأ الأدب على أبي منصور الجواليقي . صاحب كتاب العرب .

وكان في كل ذلك كما قال عن نفسه : لم أقنع بفن واحد بل كنت اسمع الققه والحديث ، واتبع الزهاد ، ثم قرأت اللغة ، ولم أترك أحدا ممن يروى ويعظ ، ولا غريبا يقدم ، إلا وأحضره ، وأتخير الفضائل ، ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نفسي من العدو لثلاث أسبق ، وكنت أصبح وليس لي مأكلا ، وأمسي وليس لي مأكلا ، ما أذلني الله لمخلوق قط .

الواعظ :

أما عن وعظه فقد بلغ فيه غاية الشهرة ، وكان من أهم أسباب ارتفاع منزلته ، وسمو مكانته قال الإمام ناصح الدين بن الجنبلي الواعظ عنه :

اجتمع فيه من العلوم ما لم يجتمع في غيره ، وكانت مجالسه الوعظية جامعة للحسن والإحسان بإجماع ظراف بغداد ، ونظاف الناس ، وحسن الكلمات المسجوعة ، والمعاني المودعة في الالفاظ الرائجة ، وقراءة القرآن بالاصوات المرجعة ، والنغمات المطربة ، وصيحات الواجدين ، ودمعات الخاشعين ، واناة النادمين ، وذل التائين ، ووعظ وهو ابن عشر سنين إلى أن مات .

وكانت وفاة ابن الجوزي كما قال سبطه بين العشاءين في ليلة الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة في داره ببغداد وعمره نحو التسعين وكانت جنازته مشهودة اجتمع لها أهل بغداد ، وغلقت الاسواق وحملت جنازته على رؤوس الناس ، ودفن بباب حرب بالقرب من مدفن أحمد بن حنبل رضي الله عنه . .

مؤلفاته :

وقد خلف ابن الجوزي الكثير من الكتب ، ومن أشهرها كتابه زاد المسير في علم التفسير حفزه إلى تأليفه قوله :

لما كان القرآن العزيز أشرف العلوم وكان الفهم لمعانيه أوفى الفهوم ، لأن شرف العلم بشرف المعلوم ، وإني نظرت في جملة من كتب التفسير فوجدتها بين كبير قد يش الحافظ منه ، وصغير لا يستفاد كل المقصود منه ، والمتوسط منها قليل الفوائد ، عديم الترتيب . وربما أهمل فيه المشكل وشرح غير الغريب ، فأتيتك بهذا المختصر اليسير . منطويا على العلم الغزير ، ووسمته ب : زاد المسير في علم التفسير ، وقد بالغت في اختصار لفظه فاجتهد وفقك الله في حفظه ، والله المعين على تحقيقه ، فإزال جائدا بتوفيقه . .

وقد قدم لكتابه بعدة فصول :

الفصل الأول في فضيلة علم التفسير .
الثاني في معنى التفسير والتأويل

الثالث في مدة نزول القرآن .

الرابع في أول ما نزل من القرآن .

الخامس في آخر ما نزل

وقد درج في تفسيره على المبالغة في الاختصار فقال :

وقد حذرت من إعادة تفسير كلمة متقدمة إلا على وجه الإشارة ، ولم أغادر من الأقوال التي احطت بها إلا ما تبعد صحته مع الاختصار البالغ ، فإذا رأيت في فرض الآيات ما لم يذكر تفسيره فهو لا يخلو من أمرين : أما أن يكون قد سبق ، وإما أن يكون ظاهراً لا يحتاج إلى تفسير .

وقد انتقى كتابنا هذا انتقى التفاسير ، فأخذ منها الأصح والأحسن والأصون فنظمه في عبارة الاختصار .

ورغم تردد ابن الجوزي لكلمة الاختصار والإيجاز لهذا التفسير ، فإنه يقع في تسع مجلدات وكل مجلد يقع في عدد يزيد على ثلاثمائة وخمسين صحيفة ، وهو ليس بالصورة التي يعطيها كلام ابن الجوزي من الاختصار ، ولكن لكثرة معلومات ابن الجوزي وسعة معارفه ظهرت له صورة الكتاب على طوله ، إنه من المختصرات .

وفي الواقع إن مما يشق على قارئ هذا التفسير أن ابن الجوزي كثيراً ما يحيل على ما سبق دون بيان كاف لموضع الاحالة .

وقد اخرجته في صورة متقنة جميلة المكتب الإسلامي للطبع والنشر على نفقة صاحب السمو العالم الجليل الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني حفظه الله . فجزاه الله خير الجزاء لما أداه للعلم من خدمة جلييلة بطبع هذا التفسير . . .

ومن تفسيره :

قال تعالى : [يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ

أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب] .

(سورة البقرة الآية ٢٦٩)

قوله تعالى « يوتى الحكمة من يشاء » في المراد بهذه الحكمة أحد عشر قولاً :
أحدهما : أنها القرآن ، قاله ابن مسعود ومجاهد والضحاك ومقاتل في
آخرين . . .

الثاني : معرفة ناسخ القرآن ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ،
ومؤخره ، ونحو ذلك ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . . .

الثالث : النبوة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والرابع : الفهم في القرآن ، قاله أبو العالية وقتادة وإبراهيم .

الخامس : العلم والفقه رواه ليث عن مجاهد .

والسادس : الإصابة في القول ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والسابع : الورع في دين الله ، قاله الحسن .

والثامن : الخشية لله ، قاله الربيع بن أنس .

والتاسع : العقل في الدين ، قاله ابن زيد .

والعاشر : الفهم ، قاله شريك .

والحادي عشر : العلم والعمل ، لا يسمى الرجل حكماً إلا إذا جمعها ،
قاله ابن قتيبة . . .

ومما نحب أن نشير إليه أننا قد ربطنا بين هذه الآراء المختلفة في معرض
حديثنا عن الحكمة فقلنا :

وردت كلمة الحكمة كثيراً في اللغة العربية : في الشعر وفي القرآن الكريم ،
وفي الأحاديث النبوية .

وهي تطلق عند علماء الإسلام ، وفي اللغة العربية على معان عدة ، بلغ بها
صاحب البحر المحيط تسعة وعشرين رأياً منها :

الإصابة في القول والعمل ، ومنها : الفهم : ومنها : الكتابة ، ومنها :
اصلاح الدين واصلاح الدنيا .

ويذكر صاحب البحر المحيط : أن معاني الكلمة قريب بعضها من
بعض ، ما عدا قول السدى .

أما قول السدى في تفسير الحكمة فهو :

إنها النبوة ، ولكن السدى لا يستقل بهذا الرأي فقد قاله ابن عباس ، فيما
رواه عنه أبو صالح .

وقريب منه ما قيل : في معنى الحكمة ، من أنها : العلم اللدني ، أو من
أنها : تجريد السر لورود الالهام .

والواقع أن معاني هذه الكلمة : تنقسم طبيعياً إلى قسمين :

أحدهما : ما يبدو في السلوك الخارجي : من سداد في الرأي ، واتزان في
التفكير ، واتجاه في السلوك إلى الطريق الاقوم .

والثاني : هو الناحية الاشرافية الالهامية ، وهي ناحية باطنية داخلية ،
يعلمها صاحبها ويلقنها من بصطفهم من خاصة صحبة أو تلاميذه .

وهذان المعنيان لا يتعارضان ، وإنما يوجد ان أحياناً في انسجام وتناغم ،
وأحياناً يوجد المعنى الأول فقط .

ومما لا شك فيه : إنه لا يوجد المعنى الثاني بدون المعنى الأول .

فالشخص الملهم : مسدد الرأي ، مترن التفكير ، أنه « حكيم » باطنياً
وظاهرياً .

ويهذين المعنيين فسر علماء الاسلام معنى كلمة : « حكمة » في عدة آيات
من القرآن الكريم : مثل قوله تعالى فيما يتعلق بداود عليه السلام :

[وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ] (سورة البقرة الآية ٢٥١)

وقوله تعالى :

[يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا] .

قوله تعالى : [وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ] قرأ يعقوب بكسرتاء « يؤت » ووقف عليها بهاء ، والمعنى : ومن يؤته الحكمة ، وكذلك هي في قراءة ابن مسعود بهاء بعد التاء . .

قوله تعالى : [وَمَا يَذَّكَّرُ] قال الزجاج : وما يتفكر فكرا يذكر به ما قص من آيات القرآن إلا ذوو العقول . . قال ابن قتيبة : « أولو » بمعنى ذو و ، وواحد - « أولو » « ذو » و « أولات » ذات . .

قوله تعالى :
[وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] . (سورة آل عمران الآية ١٦٣)

قوله تعالى : [وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ] في تسمية بدر قولان : أحدهما : أنها بئر لرجل اسمه بدر ، قاله الشعبي . والثاني : أنه اسم للمكان الذي التقوا عليه ، ذكره الواقدي عن أشياخه . .

قوله تعالى : [وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ] أي : لقلة العدد والعدد . . [لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] أي لتكونوا من الشاكرين .



تفسير ابن عطية

يمثل هذا التفسير لونا من التفاسير المحررة الموجزة الجامعة في معانيها ،
المختصرة في تعبيرها ، ويظهر ذلك واضحا من تسمية مؤلفه له : المحرر
الوجيز في تفسير القرآن العزيز .

وقد بهر ابن عطية بتفسيره العلماء في عصره وفيما بعد عصره ، يقول ابن
عميرة الضبي المتوفى سنة ٥٩٩ هـ .

« ألف - يعنى ابن عطية - في التفسير كتابا ضخما ارى فيه على كل
متقدم » . ويقول ابن الأبار :

« وتأليفه في التفسير جليل للفائدة ، كتبه الناس كثيرا وسمعوه منه واخذوه
عنه » . أما ابن جزى فإنه يقول : -

« وأما ابن عطية فكتابه في التفسير أحسن التأليف واعدلها ، فإنه اطلع
على تأليف من كان قبله فهذبها ولخصها ، وهو مع ذلك حسن العبارة ،
مسدد النظر ، محافظ على السنة » . ويقول ابن تيمية :

وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري ، واصح نقلا وبحثا ، وابعد
عن البدع ، . . . بل هو خير منه بكثير ، بل لعله ارجح هذه التفاسير .
ويقول ابن خلدون - عما امتاز به تفسيره من حذر من الاسرائيليات
وتثبت في نقل الاخبار .

« وتساهل المفسرون في مثل ذلك - النقل عن أهل الكتاب الذين
دخلوا في الإسلام مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام
وامثالهم - وملتوا كتب التفسير بهذه المنقولات ، واصلها كما قلنا عن أهل
التوراة الذين يسكنون البادية ، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك ،

إلا أنهم بعد صيبتهم وعظمت اقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين
والله ، فتلقيت بالقبول من يومئذ ، فلما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص ،
وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فليخص تلك التفاسير كلها ،
وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها ، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل
المغرب والاندلس حسن المنحى وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج
واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق ا . هـ

والناظر في هذا التفسير يجد أنه يذكر الآية ثم يفسرها تفسيراً سهلاً شاملاً
مختصراً ثم يورد بعض ما يتصل بالآية مما ينتقيه من المأثور ، وأكثر ما يختار منه
من تفسير الطبري ، وقد يعرج بالرد على رواية والانتقاد لمنقول . .

ويظهر في تفسيره الاهتمام باللغة العربية ، والعناية باستخراج المعاني على
أساس منها ، كما أنه يذكر في أحيان كثيرة القراءات المختلفة ويستخرج المعاني
المستنبطة على أساسها .

وقد تأثر تفسير ابن عطية كثير من مشاهير المفسرين كالقرطبي وابن حيان
والثعالبي فاستفادوا منه ونقلوا عنه ، وكان له في تفاسيرهم الأثر المحمود فيما
يتصل بالمنهج ، وفيها يتصل بالمضمون .

ومع الأهمية المتزايدة لهذا التفسير فإزال مخطوطاً متنافر الأجزاء بين
المكتبات المختلفة ويوجد منه في دار الكتب المصرية أربعة أجزاء من مجموع
الكتاب ويقع في عشر مجلدات كبار . .

وقد استفاد ابن عطية في تفسيره بالإضافة إلى تفسير الطبري بتفسير
المهدوي المسمى (التفصيل الجامع لعلوم التتزيل) الذي قال عنه في مقدمة
تفسيره : إنه متقن التأليف ، وانتقد أسلوبه في عدم تتبع الألفاظ . بأنه مفرق
للنظر ، مشعب للفكر .

أما عن مصنف هذا التفسير فهو القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن
عبد الرحمن بن غالب ، ابن عطية الحاربي .

امتاز بالفهم وسرعة التحصيل والطموح العلمي ، والمثابرة والاجتهاد ،
قال السيوطي في طبقات المفسرين : كان يتوقد ذكاء .

وقال في بغية الوعاة : كان فاضلا من بيت علم وجلاله ، غاية في توقد
الذهن ، وحسن الفهم ، وجلالة التصرف . . .

وقال الفتح بن خاقان : ادمن التعب في السؤدد جاهداً ، حتى تناول
الكواكب قاعداً ، وما اتكا على ارائك ولا سكن إلى راحات بكره
واصائله . . .

وقال : سما إلى رتب الكهول صغيراً ، وشن كتبه على العلوم مغيراً ،
فسباها معنى وفصلاً ، وحوأها فرعاً وأصلاً . . .

ولد سنة ٤٨١ في أول عهد المرابطين بغرناطة وكان له شغف بالعلم عمل
على اروائه فتلمذ على شيوخ من أهمهم والده وكان اماماً في الحديث وحافظاً
للسنة - أو كما قال الفتح بن خاقان شيخ العلم وحامل لوائه ، وحافظ حديث
رسول الله ﷺ وكوكب سماءه شرح الله لحفظه صدره ، وطاول به عمره .

ومن أهم شيوخه الحافظ أبو علي الحسين بن محمد الغساني المتوفى
سنة ٤٩٨ هـ وكان من أهم تلاميذ الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر ، له
مؤلفات قيمة وآثار مشهورة في مجال خدمة السنة .

ومنهم الحافظ أبو علي الحسين بن محمد الصدفي المتوفى سنة ٥١٤ هـ ،
والفقيه أبو عبد الله محمد بن علي ابن حمد بن التغلبي المتوفى سنة ٥٠٨ .

كان ابوه يتعمده بالعناية والرعاية ، ويشجعه على إعداد تفسيره ، والعمل
على اتمامه فكان ربما ايقظه في الليل مرتين بقوله : قم يا بني اكتب كذا
وكذا في موضع كذا من تفسيرك .

وكان له في سبيل العلم رحلات مختلفة واسفار متعددة ، فرحل في طلب
العلم إلى قرطبة واشبيلية ومرسية وبلنسية .

كما شارك في تحمل اعباء الجهاد في عصره - حينما احتاج الأمر إلى مجهوده فيه - فكان كما قال ابن الآبار في آخر دولة المرابطين كثير الخروج للغزوات جيوشهم .

وقد استنتج الشيخ محمد الفاضل بن عاشور من ذلك أن من المرجح أن يكون تأليف تفسيره قبل هذا الدور الأخير من دولة المرابطين الذي هو الدور الأخير من حياة ابن عطية إذ كان تاريخ وفاته سنة ٥٤٢ هـ عين تاريخ انتهاء دولة المرابطين بالأندلس . .

وقد استفاد ابن عطية في تفسيره بالإضافة إلى تفسير الطبري بنفسه المهدوي المسمى : « التفصيل الجامع لعلوم التتزيل » الذي قال عنه في مقدمة تفسيره أنه متقن التأليف ، وانتقد أسلوبه في عدم تتبع الالفاظ بأنه مفرق للنظر مشعب للفكر .

وكان ابن عطية في تفسيره نابضا بالشباب ، فتيا بالعروبة ، فإن الشباب كما يقول الشيخ الفاضل بن عاشور افاده قرحة متقدة ونظرة حادة يتناول بهما موضوعه في قوة وسرعة ومثانة المام فيأتي بيانه محبوباً منسجماً ، والعروبة افادته طبعاً اصيلاً وملكة صافية ففاض بيانه قويا هتانا سائغاً سلساً .

ولذلك فلا بدع أن يتصف تفسير ابن عطية بأن « محرر » لا سيما وقد دفع الشبه ونخلص الحقائق وحرر ما هو محتاج إلى التحرير .

وهو وجيز بالنسبة إلى بعض التفاسير التي سبقته . .

واليك نماذج من تفسير ابن عطية

عن قوله تعالى :

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ]

(سورة الحديد الآية ٢٨)

واختلف الناس في المخاطب بها - يعني بالآية - فقالت فرقة من المتأولين :
خوطف بهذا أهل الكتاب ، فالمعنى : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا
الله وآمنوا بمحمد ويؤيد هذا المعنى الحديث الصحيح عن النبي ﷺ :
« ثلاثة يؤتيهم الله أجرهم مرتين .

رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ﷺ وآمن بي » الحديث »

وقال آخرون : المخاطبة للمؤمنين من أمة محمد ﷺ ، يقول لهم : -

[يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وامنوا برسوله] أى اثبتوا على
ذلك ودوموا عليه ، وهذا هو معنى الأمر ابدا لمن هو متلبس بما يؤمر به .

وقوله : (يؤتكم كفلين) أى نصيين بالإضافة إلى ما كان الام قبل
يعطونه قال أبو موسى الأشعري : كفلين : ضعفين « بلسان الجبشة » .

وروى أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قال لبعض الأحرار : كم
كان التضعيف للحسنات فيكم ؟ .. قال : ثلاثمائة وخمسين ، فقال : الحمد
لله الذى أضاف لنا إلى سبعائة ..

ويؤيد هذا المعنى الحديث الصحيح الذى يقتضى أن اليهود إلى نصف
النهار على قيراط ، والنصارى من الظهر إلى العصر على قيراط ، وهذه الأمة
من العصر إلى الليل على قيراطين ، فلما أصبحت اليهود والنصارى على ذلك
وقالوا : نحن أكثر عملا وأقل أجرا ، قال الله تعالى : [هل نقصتكم من
أجركم شيئا ؟ قالوا : لا قال : فإنه فضلى أوتيه من أشياء]



تفسير الإمام البغوى

هو الإمام الحافظ الشهير محى السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوى الشافعى المحدث المفسر، صاحب التصانيف وعالم أهل خراسان.

وصفه ابن الأهول فقال:

«هو صاحب الفنون الجامعة، والمصنفات النافعة، مع انه عد والورع والقناعة ومن مظاهر زهده ما قاله صاحب شذرات الذهب من انه كان سيدا زاهدا قانعا يأكل الخبز وحده، فليم في ذلك فصار يأكله بالزيت . . .»

ولد في بغشور، والنسبة اليها بغوى على غير قياس، وقيل: اسم المدينة «بغ» بليدة بين هزاة ومرو والروذ من بلاد خراسان.

نشأ شافعى المذهب بحكم البيئة التى عاش فيها، والعلماء الذين تلقى عنهم وكانت له اثار قيمه فى المذهب الشافعى، حيث أنه ألف فيه كتابه (التهذيب) ونحى فيه منحى أهل الترجيح والاختبار والتصحيح، لا يتعصب لمذهبه، ولا يندد بغيره، رائده الوصول إلى ما يراه أقرب إلى النصوص، وأوفق لمبادئ الدين.

وكان داعيا إلى الاعتصام بالكتاب والسنة، ناشرا لعلومهما، موضعا لما يوجهان إليه، فألف فى ذلك التأليف النافعة التى أهلته لأن يكون بحق «محى السنة».

وكما هو دأب العلماء قام علمه على دعامين هامتين:

أولا - الأخذ من العلماء، وقد اشتهر من أساتذته: الامام الحسين بن محمد المروزى القاضى، فقيه خراسان، وشيخ الشافعية فى زمنه واحد مشاهير العلماء، المتوفى سنة ٤٦٢هـ.

والإمام الفقيه الفاضل أبو الحسن علي بن يوسف الجويني المعروف بشيخ
الحجاز المتوفى سنة ٤٦٣ هـ.

والمحدث الفاضل أبو بكر يعقوب بن أحمد الصيرفي النيسابوري المتوفى سنة
٤٦٦ هـ.

ثانياً : الأخذ من الكتب والإطلاع على ما أثر عن العلماء ...

وكان الإمام البغوي محدثاً فاضلاً سمع الكثير من الحفاظ ، وروى عنهم
الصحاح والسنن والمسانيد والأجزاء من أجود الطرق وأوثقها وأوفاهها وجالس
علماء اللغة وحمل عنهم الكتب التي ألفت في غريب الحديث وبيان معانيه ،
قال الحافظ الذهبي : الإمام العلامة القلوة الحافظ ، شيخ الإسلام ، محيي
السنة ، صاحب التصانيف... وقال ابن نقطة : إمام حافظ ثقة صالح ..
وقال السبكي : وكان البغوي يلقب بمحيي السنة ، وبركن الدين ، ولم
يدخل بغداد ولو دخلها لا تسعت ترجمته ، وقدره عال في الدين وفي التفسير
وفي الحديث ، متسع الدائرة نقلاً وتحقيقاً . وكان الشيخ تقي الدين السبكي
يقول :

قل ان رأيتاه يجتار شيئاً إلا وإذا بحث عنه وجد أقوى من غيره ، هذا مع
اختصار كلامه وهو يدل على نبيل كبير ، وهو حري بذلك ، فإنه جامع لعلوم
القرآن والسنة والفقه وقد انتج هذا النشاط العلمي الكبير مؤلفات قيمة منها :

١ - مجموعة من الفتاوى ضمنها فتاوى شيخه أبو علي الحسين بن محمد
المروزي .

٢ - التهذيب في فقه الإمام الشافعي ، وهو تأليف محرر ، مهذب ، مجرد
من الأدلة غالباً .

٣ - شرح السنة .

٤ - معالم التنزيل وهو التفسير المشهور .

وقد قدم لنفسه مقدمه ، بينت منهجه ، وحددت خطته ، وأبانت عن

مقصده ، وبينت جوانب من علمه الواسع في مجال الدراسات القرآنية .

إنه يقول في مقدمته بعد الحمد والثناء :

أما بعد : فإن الله جل ذكره أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، رحمة للعالمين ، وبشيرا للمؤمنين ، ونذيرا للمخالفين ، اكمل به بيان النبوة ، وختم به ديوان الرسالة ، واتم به مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأفعال ، وأنزل عليه بفضله نورا هدى به من الضلالة ، وأنقذ به من الجهالة ، حكم بالفلاح لمن تبعه ، وبالخسران لمن أعرض عنه بعدما سمعه ، واعجز الخليفة عن معارضته ، وعن الاتيان بسورة من مثله في مقابله ، ثم سهل على الخلق مع إعجازه تلاوته ، ويسر على الألسن قراءته ، أمر فيه وزجر ، وبشر وأنذر ، وذكر المواعظ ليتذكر ، وقص عن أحوال الماضيين ليعتبر ، وضرب الأمثال ليتدبر ، ودل على آيات التوحيد ليتفكر ، ولا حصول لهذه المقاصد منه إلا بدراية تفسيره وإعلامه ، ومعرفة أسباب نزوله وأحكامه والوقوف على ناسخه ومنسوخه ، ومعرفة خاصه وعامة ، ثم هو كلام معجز ، وبحر عميق لا نهاية لاسرار علومه ، ولا إدراك لحقائق معانيه وقد ألف أئمة السلف في أنواع علومه كتابا كل على قدر فهمه ، ومبلغ علمه ، نظرا للخلق ، فشكر الله تعالى سعيهم ، ورحم كافتهم ، فسألني جماعة من أصحابي المخلصين ، وعلى اقتباس العلم مقبلين ، كتابا في معالم التنزيل وتفسيره فأجبتهم اليه معتمدا على فضل الله تعالى وتيسيره ، واقتداء بالماضين من السلف في تدوين العلم ابقاء على الخلف ، وليس على ما فعلوه مزيد ، ولكن لا بد في كل زمان من تجديد ما طال به العهد ، وقصر بالطالين فيه الجهد والجهد ، تنبيها للمتوقفين ، وتحريضا للمتبطئين ، فجمعت بعون الله تعالى وحسن توفيقه فيما سألوا كتابا متوسطا بين الطويل الممل ، والقصير المحل ، أرجو أن يكون مفيدا ، لمن أقبل على تحصيله مزيدا ..

ثم ذكر الأسانيد التي اعتمدها في تفسيره ...

ومن هنا ندرك أن كتابه من الكتب المعتبرة في التفسير بالمأثور ..

ثم يقول : إن الناس كما انهم متعبدون باتباع أحكام القرآن وحفظ حدوده ، فهم متعبدون بتلاوته ، وحفظ حروفه ، على سنن نخط المصحف - اعني الإمام - الذي اتفقت عليه الصحابة ، وأن لا يجاوزوا فيما يوافق الخط ما قرأ به القراء المعروفون الذين خلفوا الصحابة والتابعين ، واتفقت الأئمة على اختيارهم ، وقد ذكرت في الكتاب قراءة من اشتهر منهم بالقراءات واختباراتهم ..

أما عن استشهاده بالأحاديث والآثار فقد اختار فيه الصحيح المقبول ، وترك الضعيف والموضوع - ويعبر عن ذلك قوله :

وما ذكرت من أحاديث رسول الله ﷺ في أثناء الكتاب على وفاق آية أو بيان حكم ، فإن الكتاب يطلب بيانه من السنة ، وعليها مدار الشرع وأمور الدين من الكتب المسموعة للحفاظ ذائعة الحديث ، واعرضت عن ذكر المناكير ، ومالا يليق بحال التفسير فأرجو أن يكون مباركا على من أراده ...

ثم عقد عدة فصول بين يدي التفسير تتمثل فيما يلي :

فصل في فضائل القرآن وتعليمه .

فصل في فضائل تلاوة القرآن .

فصل في وعيد من قال في القرآن برأيه من غير علم ...

ونحن نلاحظ فيما يتعلق بالإمام البغوي أن له جوانب تجعله من الطبقة الممتازة لقد استكمل عدة التفسير من اللغة فقد جالس علماء اللغة وتثقف عليهم كأحسن ما تكون الثقافة اللغوية وبعض الناس يظن أن اللغة كافية في معرفة التفسير ، ولكنهم مخطئون فلا بد في التفسير من عناصر أخرى ، منها :

السنة النبوية الشريفة : وقد برع فيها الإمام البغوي فهو محدث ممتاز وصلت به ثقافته في الحديث إن سمي : بحبي السنة ، وكان محدثا ثقة وهو في تقدير المحدثين : الإمام الحافظ الثقة .

وقد اتقن فن القراءات وأبان عنها في تفسيره

وكان مهذباً ، أدبه القرآن والحديث ومن أثر هذا الأدب أن شكر في مقدمة تفسيره السابقين من المفسرين واثني عليهم .

ويرى الإمام البغوي - ونحن نؤيده في ذلك تأييداً مطلقاً - وجوب حفظ حروف القرآن على سنن خط المصحف الإمام اعني الخط العثماني الذي اتفقت عليه الصحابة ، وان لا يجاوز وإنما يوافق ما قرأ به القراء المعروفون الذين خلفوا الصحابة والتابعين واتفقت الأئمة على اختيارهم .

كل ذلك يوضع في كفة امتياز الإمام البغوي . . .

ويتضح مجهوده في التفسير بتأدج منه :

قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ

اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » (سورة البقرة الآتة ١٥٣)

بالعون والنصرة (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات) نزلت في قتلى بدر من المسلمين . وكانوا أربعة عشر رجلاً . ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار . كان الناس يقولون لمن يقتل في سبيل الله : مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها ، فأنزل الله تعالى : « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ » (سورة البقرة الآتة

١٥٢)

كما قال في شهداء أحد : [وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ] .

(سورة آل عمران الآتة ١٦٩) .

قال الحسن :

إن الشهداء أحياء عند الله تعالى تعرض أرواحهم على أرواحهم فيصل إليهم الروح والفرح كما تعرض النار على أرواح الفرعون غدوة وعشبة فيصل إليهم الوجع .

وقال تعالى : [وَذَرُّوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ]

(سورة الأنعام الآية ١٢٠)

يعنى الذنوب كلها لأنها لا تخلوا من هذين الوجهين : قال قتاده : علانيته وسره ، وقال مجاهد : ظاهره ما عمله الإنسان بالجوارح من الذنوب وباطنه ما ينويه ويقصده بقلبه كالمصر على الذنب القاصد له .

قال الكلبي : كظاهرة الزنا ، وباطنه المخالفة ، وأكثر المفسرين على أن ظاهر الإثم الاعلان بالزنا وهم أصحاب الرايات ، وباطنه الاستسرار به ، وذلك أن العرب كانوا يحبون الزنا ، وكان الشريف منهم يتشرف فيسربه ، وغير الشريف لا يبالي فيظهره ، فحرمها الله عز وجل ..

وقال سعيد ابن جبير : ظاهر الإثم نكاح المحارم ، وباطنه الزنا .

وقال ابن زيد : إن ظاهر الإثم التجرد من الثياب والتعري في الطواف ، والباطن الزنا ..

وروى حيان عم الكلبي : ظاهر الإثم طواف الرجال بالبيت نهارا عراة ، وباطنه طواف النساء بالليل عراة ..

[إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ] فِي الْآخِرَةِ .. [بِمَا

كَانُوا يَفْتَرُونَ] (سورة الأنعام الآية ١٢٠)

يكتسبون في الدنيا ..



المفردات في غريب القرآن للمراغب الأصفهاني

ويسمى هذا الكتاب عادة : «المفردات للمراغب الأصفهاني» .
أما المراد بالأصفهاني فإنه من أهل أصفهان أو أصفهان .
ولما تزود من العلم بحظ كاف يم شطر بغداد ، وكانت محط أنظار العلماء
واشتهر بها شهرة واسعة .

ولا نعلم في يقين متى كان ميلاده ولكن وفاته كانت على التقريب سنة
٥٠٢هـ ، ١١٠٨م .

ولقد كان المراد أديبا قمة في الأدب ، وكان عالما من أئمة العلماء ، وفقها
من خيرة الفقهاء . ولكن المادة التي كانت مدار تخصصه وشهرته كانت :
القرآن .

لقد انغمس في أنوار القرآن واتخذ نبراسا لآرائه وسلوكه ، وواتاه في ذلك
تمكنه من اللغة وذوقه الجميل في الأدب .

ولقد ألف في الجو القرآني :

١ - جامع التفاسير ، وهو تفسير مستفيض ، وإن كان لم يكمل ، وقد
طبعت مقدمته مبينة عن فضل عظيم للمؤلف في مجال العلم بالقرآن وما ينبغي
للمفسر . وقد اقتبس الإمام البيضاوي وغيره من هذا التفسير كثيرا .

٢ - حل مشابهاة القرآن .

٣ - تحقيق البيان في تأويل القرآن .

٤ - المفردات الذي ستحدث عنه إن شاء الله .

ولكن إذا كانت هذه المؤلفات متصله بالقرآن مباشرة ، فإن الكثير من

مؤلفاته الأخرى مستمد من القرآن الكريم . ونابع من أنواره ، ومن ذلك مثلا
كتاب :

« الذريعة في مكارم الشريعة » .

وهو كتاب نفيس جدا ويقال : إن الإمام الغزالي قدس الله روحه كان لا
يفارق هذا الكتاب في حل ولا ترحال ، وهذا الكتاب جدير بالافتناء ، وقد
كان الشيخ محمد عبده عليه رحمة الله يستفيد منه كثيرا ، وهو كتاب في
الأخلاق الإسلامية مصدره القرآن والسنة الشريفة .

وله كتاب آخر بعنوان : « الأخلاق » وأحيانا يسمى أخلاق الراغب ، وهو
كتاب يستمد أيضا من القرآن الكريم .

أما في الأدب واللغة فله كثير من المؤلفات منها :

« محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء ، وقد طبع في القاهرة في جزأين
وهو يضم ظرائف وملحا مما وقع بين الأدباء أو مما كتبه في مؤلفاتهم .

وله في هذا المجال :

« أفانين البلاغة » .

« وهو كتاب يبين ابانة واضحة عن المدى العظيم في احاطة المؤلف
بالبلاغة وعمق نظره فيها ، ولكن الطريف في مؤلفات هذا العالم القمه هو
كتابه :

« أدب الشطرنج » .

وهو كتاب له مفهومه الواسع في حياة المؤلف انه يدل على :

- ١ - لم يكن المؤلف مترمنا ولا متصنعا للترمت .
- ٢ - كان المؤلف مرحا ولا يتنافى مرحه مع وقار العلم وكرامة العلماء .
- ٣ - كان المؤلف ذكيا يتحدى بذكائه في هذه اللعبة : لعبة الذكاء
والأذكاء .

أما مكانة المؤلف في نظر العلماء فيكفينا أن نقول : إن الإمام فخر الدين الرازي صاحب التفسير المشهور والذي بلغ في علم الكلام القمة ، كان يقرن الراغب الأصفهاني بحجة الإسلام الإمام الغزالي .

والواقع أن بينهما شبا كبيرا ، وألوان الشبه : ان كلا منهما كان من أهل السنة وكان كلاهما يرد على المعتزلة ، وكان كلاهما مهتما بالأخلاق . وذلك لأن الأخلاق من الأسس الأصلية التي تقوم عليها المجتمعات الصالحة .

وكتابة « المفردات » الذي نكتب عنه اليوم من الكتب التي لاغنى لعالم من علماء الإسلام عنها ، وهو يتحدث فيه عن مفردات القرآن : يتتبع اللفظ في الآيات القرآنية شارحا له فيها متحدثا عن مفاهيمه في مختلف المواضع مستأنسا على ذلك بالحديث الشريف أو بأشعار العرب ، وقد أجاد إجادة تامة في الوصول إلى غايته وهي تفسير ألفاظ القرآن .

وقد رتب كتابه على ترتيب الحروف الهجائية ، وذلك ليسهل الكشف فيه . وهذا الكتاب يعتبره المؤلف « حلقة » بين حلقتين ، أحدهما سابقة قد تحققت أما الثانية : فإنها كانت في عزم المؤلف عندما شرع في تأليف هذا الكتاب ، ونترك المؤلف يعبر عن ذلك بقلمه ، إنه يقول :

« وقد استخرت الله تعالى في إملاء كتاب مستوفى فيه مفردات ألفاظ القرآن على حروف التهجي فتقدم ما أوله الألف ثم الباء على ترتيب حروف المعجم معتبرا فيه أوائل حروفه الأصلية دون الزوائد والإشارة فيه إلى المناسبات التي بين الألفاظ المستعارات منها والمشتقات حسبما يحتمل التوسع في هذا الكتاب واحيل بالقوانين الدالة على تحقيق مناسبات الألفاظ على الرسالة التي عملتها مختصة بهذا الباب في اعتماد ما حررته من هذا النحو استغناء في باب من المشبطات عن المصارعة في سبيل الخيرات وعن المسابقة إلى ما حثنا عليه بقوله تعالى سابقوا إلى مغفرة من ربكم سهل الله علينا الطريق إليها واتبع هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ونسأ في الأجل بكتاب ينبيء عن تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد وما بينها من الفروق الغامضة فبذلك يعرف

اختصاص كل خبر بلفظ من الألفاظ المترادفة دون غيره من إخوانه نحو ذكره القلب مرة والفؤاد مرة والصدر مرة ونحو ذكره تعالى في عقب قصة إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون وفي أخرى لقوم يتفكرون وفي أخرى لقوم يعلمون وفي أخرى لقوم يفقهون وفي أخرى لأولى الأبصار وفي أخرى لذي حجر وفي أخرى لأولى النهى ونحو ذلك ما بعده يحق الحق ويبطل الباطل وأنه باب واحد فيقدر أنه إذا فسر الحمد لله بقوله الشكر لله ولا ريب فيه بلاشك فيه فسر القرآن ووفاه البيان جعل الله لنا التوفيق رائداً والتقوى سائقاً ونفعنا بما أولانا وجعله لنا من معاون تحصيل الزاد المأمور به في قوله تعالى [وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى] . (سورة البقرة الآية ١٩٧) وأما مقدمة الكتاب فإنها تتحدث في أسلوب رائق عن القرآن الكريم إذ يقول :

الحمد لله رب العالمين وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين قال الشيخ أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب رحمة الله أسأل الله أن يجعل لنا من أنواره نورا يرينا الخير والشر بصورتيهما ويعرفنا الحق والباطل بحقيقتها حتى نكون ممن يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ومن الموصوفين بقوله تعالى : [هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ] .

(سورة الفتح الآية ٤)

وبقوله [أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ] . (سورة المجادلة الآية ٢٢)

كنت قد ذكرت في الرسالة المنبهة على فوائد القرآن إن الله تعالى كما جعل النبوة بنينا محتمة وجعل شرائعهم بشريعته من وجه متسخة ومن وجه مكلمة منه تعالى :

[الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا] . (سورة المائدة الآية ٣)

جعل كتابه المنزل عليه متضمنا ثمرة كتبه التي أولاها أوائل الأمم كما نبه عليه بقوله تعالى يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة وجعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم متضمن للمعنى الجم وبمحيث تقصر الأبواب البشرية عن احصائه والالات الدنيوية عن استيفائه كما نبه عليه بقوله تعالى :

[وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ].

(سورة لقمان الآية ٢٧)

لكن محاسن أنواره لا يثقفها إلا البصائر الجليلة وأطايب ثمره لا يقطفها إلا الأيدي الزكية ومنافع شفاؤه لا يناها إلا النفوس النقية كما صرح تعالى به فقال في وصف متناوليه :

[إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ].

(سورة الواقعة الآية ٧٧ و٧٨ و٧٩)

وقال في وصف سامعيه :

[قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى].

(سورة فصلت الآية ٤٤)

وذكرت أنه كما لا تدخل الملائكة الحاملة للبركات بيتا فيه صورة أو كلب كذلك لا تدخل السكنيات الجالبة للبينات قلبا فيه كبر وحرص :

[فَالْخَيْثَاتُ لِلْخَيْثِينِ وَالْخَيْثُونَ لِلْخَيْثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ].

(سورة النور الآية ٢٦)

ودللت في تلك الرسالة على كيفية اكتساب الزاد الذي يرقى كاسه في درجات المعارف حتى يبلغ من معرفته أقصى ما في قوة البشر أن يدركه من الأحكام والحكم فيطلع من كتاب الله على منكوت السموات والأرض ويتحقق أن كلامه كما وصفه بقوله ما فرطنا في الكتاب من شيء جعلنا الله كما قال تعالى لنبيه ﷺ .

[إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ].

(سورة القصص الآية ٥٦)

وذكرت أن أول ما يحتاج أن يشتغل به العلوم اللفظية ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفرقة فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل معاون لمن يريد أن يدرك معانيه كتحصيل اللب في كونه من أول معاون في بناء ما يريد أن يبينه وليس ذلك نافعا في علم القرآن فقط بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع فالألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزيدته وواسطته وكرائمه وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم واليها مفرغ حذاق الشعر والبلغاء في نظمهم ونثرهم وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمستثقات منها هو بالإضافة إليها كالتشور والنوى بالإضافة إلى أطيب الثمرة والحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة.

والآن نورد نماذج من الكتاب :

١ - (آدم) أبو البشر قيل : سمي بذلك لكون جسده من اديم الأرض وقيل لسمره في لونه يقال رجل ادم نحو اسمر وقيل سمي بذلك لكونه من عناصر مختلفة وقوة متفوقة كما قال تعالى « امشاج نبتليه » ويقال جعلت فلانا ادمه أهل أي خلطته بهم وقيل سمي بذلك لما طيب به من الروح المنفوخ فيه المذكور في قوله ونفخت فيه من روحي وجعل له به العقل والفهم والروية التي فضل بها على غيره كما قال تعالى :

[وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا.]

(سورة الاسراء الآية ٧٠)

وذلك من قوهم الادم وهو ما يطيب به الطعام وفي الحديث لو نظرت إليها فإنها أحرى أن يؤدم بينكما أى يؤلف ويطيب .

٢ - (الرزق) يقال للعطاء الجارى تارة دنيويا كان أم أخرويا وللنصيب تارة ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة يقال أعطى السلطان رزق الجند ورزقت علما قال :

[وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ] .
(سورة المنافقون الآية ١٠)

أى من المال والجاه ، والعلم وكذلك قوله :

[وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ] .

(سورة البقرة الآية ٢)

[كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ]

(سورة البقرة الآية ١٧٢)

وقوله وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ أى وتجعلون نصيبكم من النعمة نحوى الكذب وقوله وفى السماء رزقكم قيل عنى به المطر الذى به حياة الحيوان وقيل هو كقوله وأنزلنا من السماء وقيل تنبيه أن الحظوظ بالمقادير ، وقوله تعالى :
[فَلْيَأْتِكُمْ رِزْقٍ مِنْهُ] .

(سورة الكهف)

أى بطعام يتغذى به وقوله تعالى :

[وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ] .

(سورة ق الآية ١٠)

قيل عنى به الأغذية ويمكن أن يحمل على العموم فيما يؤكل ويلبس ويستعمل وكل ذلك مما يخرج من الأرضين وقد قبضه الله بما ينزله من السماء من الماء وقال فى العطاء الأخرى :

[وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ]. (سورة آل عمران الآية ١٦٩)

أى يفيض الله عليهم النعم الأخرى وكذلك قوله :

[وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا]. (سورة مريم الآية ٦٢)

وقوله :

[إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ]. (سورة الذاريات الآية ٥٨)

فهذا محمول على العموم والرزاق يقال لخالق الرزق ومعطيه والمسبب له وهو الله تعالى ويقال ذلك للإنسان الذى يصير به وصول الرزق والرزاق لا يقال إلا لله تعالى وقوله :

[وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ].

(سورة الحجر الآية ٢٠)

أى يسبب فى رزقه ولا مدخل لكم فيه وقوله :

[وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ].

(سورة النحل الآية ٧٣)

أى ليسوا بسبب فى رزق بوجه من الوجوه ، وبسبب من الأسباب ويقال أرتزق الجند اخذوا أرزاقهم والرزقة ما يعطونه دفعة واحدة ، وهذا الكتاب النفيس مطبوع عدة طبعات .

الفخر الرازي وتفسيره

هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي القرشي التيمي البكري الطبرستاني الرازي .

لقب بفخر الدين ، وعرف بابن الخطيب .

ولد بالري خامس عشر شهر رمضان سنة أربع وأربعين وخمسمائة للهجرة .

وقد شب على طلب العلم ورحل في سبيل تحصيله الى أشهر موطنه في عمره : في خوارزم وخراسان وما وراء النهر ، وكان قد قضى وطره من التلقي عن والده الذي كان من تلاميذ الامام البغوي الشهير ثم تلقى بعده عن الكمال السمعاني والمجد الجيلي وكثير من العلماء الذين عاصروهم .

وقد كان من نتيجة السعي لطلب العلم والجهد في تحصيله ان أصبح الرازي - كما قيل عنه - إمام وقته في العلوم العقلية فكان متكلم زمانه ، وأحد الأئمة في العلوم الشرعية ، والتفسير واللغة . كما كان فقيها على المذهب الشافعي .

مؤلفاته :

وقد ترك الرازي في هذه العلوم الكنوز العلمية الكبيرة والآثار الخالدة من المؤلفات التي حظيت في حياته وبعد وفاته باقبال الناس عليها يتدارسونها وينتفعون بما تركته قريحة هذا العالم الكبير وهي تربوا - في مجموعها على مائتي مصنف .

ومن أشهر مؤلفات الرازي :

كتابه المشهور في التفسير المعروف ب « مفاتيح الغيب » .

ولوامع البيئات في شرح أسماء الله تعالى والصفات .

وكتاب معالم أصول الدين .

ومحصل المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين .

والمسائل الخمسون في أصول علم الكلام .

وأسرار التنزيل في التوحيد .

والمباحث المشرقية .

وأنموذج العلوم .

والمحصل في علم الاصول .

والسر المكتوم في مخاطبة النجوم .

وكتاب الهندسة .

وغير ذلك الكثير مما يجعله في مكانه مع كبار العلماء والمفكرين والفلاسفة

الاسلاميين .

وقد كان لهذا العالم الفذ مواقف الصلبة دفاعا عن العقيدة وذبا عن حماها .

وكان للرازي شهرة كبيرة في ~~الوعظ~~ الوعظ باللسانين العربي والعجمي اذ كان بالغ

التأثير في خطابه لما يلحقه من وجد في حال الوعظ حيث كان يكثر من البكاء

فيأخذ بمجامع القلوب وتنصت إليه الأسماع وقد زاد من تأثيره في قلوب سامعيه

عاطفته التي كانت تجيش في كثير من الاحيان بشعر ياخذ بالالباب ويهز أوتار

القلوب هذا ، ومن شعره في ذلك :

اليك اله الحق وجهي ووجهتي وأنت الذي ادعوه في السروالجهر

وأنت غيائي عند كل ملمة وأنت أنيسي حين أفرد في القبر

ومنه :

نهاية اقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسمنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
وكم قد رأينا من رجال دولة فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
وكم من جبان قد علت شرفاتها رجال فزالوا والجبال جبال

تلامذة الرازي :

وقد كثر تلاميذ الرازي كثرة فائقة حتى قيل انه كان يمشي في خدمته نحو ثلاثمائة تلميذ ، وكان يحضر مجالس وعظه الخاص والعام .

وقد عاش الرازي في رغد من العيش وسعة من الثراء ونعمة تضاهي نعمة الملوك حيث اجتمعت له الاموال الكثيرة اكراما له من سلاطين عصره من أمثال : شهاب الدين الغوري سلطان غزنة . والسلطان علاء الدين خوارزم شاه .

وقد عظم شأنه حتى أن الملك خوارزم هذا كان يأتي إلى بابه ويحضر مجالس وعظه حتى اذا انتهت به الحياة وقضى منها وطره ترك ثروة ضخمة تربو على ثمانين ألف دينار .

ومع ما قام به هذا الرجل من دراسات وتأليف ومحاورات في علم الكلام فاننا نراه - ككثرة من العلماء - يعود إلى الاقرار بأن هناك ما هو أجدى وأجدر بالبحث والدراسة والتصنيف وهو القرآن الكريم فتراه يقول :

« لقد اخترت الطريق الكلامية والمناهج الفلسفية فلم أجدها تروى غليلا ، ولاتشني عليلا ، ورأيت أصح الطريق طريقة القرآن

ثم يقول :

« وأقول من صميم القلب من داخل الروح : أني مقر بأن ما هو الاكمل والأفضل الأعظم الاجل فهو لك ، وكل ما هو عيب ونقص فأنت منزّه عنه

وأن الأمام الرازى بهذا الاعتراف الذى كان منه فى أواخر حياته بين أن هذا الفيلسوف بعد أن طاف بمجالات الفكر فى جوانبها العميقة وفى زواياها المستفيضة رأى فى النهاية أن منهج الاتباع للقرآن وللسنة هو المنهج الذى يهدى الإنسان الى الصراط المستقيم ، أما المتاهات التى سار فيها الفلاسفة والمتكلمون فأنها ليست بمنهج السلم الصادق . والقرآن نزل هداية للعقل ورسمًا للطريق الصواب ، وهو عصمة لمن اتبعه ، وهداية لمن استقام عليه .

وعاد الامام الرازى اذن بعد أن طوف ما طوف إلى القرآن الكريم متبعًا ومستهديا ومسترشدا ، وقال كلمته المشهورة :

نهاية اقدام العقول عقال . . .

تفسير الرازى « مفاتيح الغيب » ومنهجه فيه .

يقع هذا التفسير فى ثمانية مجلدات ضخمة مطبوعة ومتداولة بين أهل العلم حيث يحظى بين دارسى القرآن بالشهرة الواسعة نظرا لما يشتمل عليه من أبحاث فياضة تضم أنواعا شتى من مسائل العلوم المختلفة حتى قيل عنه أنه : جمع كل غريب وغريبة .

والناظر فى هذا التفسير الكبير يجد أمورا هامة تلفت النظر وتشد الانتباه منها :

- ١ - الاهتمام بذكر المناسبات بين سور القرآن وآياته وبعضها مع بعض حتى يوضح ما عليه القرآن من ترتيب على الحكمة « تنزيل من حكيم حميد » .
- ٢ - كثرة الاستطراد إلى العلوم الرياضية والفلسفية والطبيعة وغيرها .
- ٣ - العرض لكثير من آراء الفلاسفة والمتكلمين بالرد والتنفيذ فهو - على شاكلة أهل السنة ومن يعتقد معتقدهم - يقف دائما للمعتزلة بالمرصاد يفند آراءهم ويدحض حججهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا .
- ٤ - والفخر الرازى فى تفسيره لا يكاد يمر بآية من آيات الأحكام إلا

ويذكر مذاهب الفقهاء فيها مع تروجه لمذهب الشافعي الذي كان يتابعه هو في عبادته ومعاملاته .

٥ - ويضيف الرازي إلى ما سبق كثيرا من المسائل في علوم : الأصول والبلاغة والنحو وغيرها . وان كانت هذه المسائل في مجموعها بعيدة عن الاطناب والتوسع كما هو الحال في المسائل الكونية والرياضية والفلسفية بوجه عام .

وبالجملة ف تفسير الأمام الرازي أشبه مايكون بموسوعة كبيرة في علوم الكون والطبيعة والعلوم التي تتصل اتصالا من قريب أو بعيد بغلم التفسير والعلوم الخادمة له والمرتبة عليه استنباطا وفيها .

وانظر إليه بعد أن عرض لسورة الفاتحة عرضا موجزا في مقدمته اذ يقول :

أما بعد : فهذا كتاب مشتمل على شرح بعض ما رزقنا الله تعالى من علوم سورة الفاتحة ، ونسأل الله العظيم أن يوفقنا لاتمامه وأن يجعلنا في الدارين اهلا لآكرامه وانعامه . . . وهذا الكتاب مرتب على مقدمة وكتب ، أما المقدمة ففيها فصول : الفصل في التشبيه على علوم هذه السورة على سبيل الأجمال .

ثم يقول :

اعلم أنه مر على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة فاستبعد هذا بعض الحساد وقوم من أهل الجهل والغنى والعناد وحملوا على ذلك ما الفوه من انفسهم من التعليقات الفارغة من المعاني والكلمات الخالية من تحقيق المعاهد والمباني ، فلما شرعت في تصنيف هذا الكتاب قدمت هذه المقدمة لتصير كالتنبيه على أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول قريب الوصول .

ثم يذكر بعد ذلك مقدمة جدلية يشفعها بقوله :

فظهر بهذا الطريق أن قولنا « اعوذ بالله » مشتمل على الألوف من المسائل الحقيقية اليقينية . . .

ثم يؤكد ذلك مرة أخرى مع زيادة وتوسع في تفصيل وتوضيح فيقول :
« فيثبت بهذا الطريق أن قولنا : « اعوذ بالله » مشتمل على عشرة آلاف
مسألة وأزيد أو أقل من المسائل المهمة المعتمدة » .

والكتاب بين يدي القارئ بذلك يعتبر مائدة كبرى حوت أطيب المآكل
والمشارب وقطوف الثمرات يشبع ويروى بها أهل العلم ودارسوا القرآن وعلومه
أفادتهم وطمأهم من هذا التفسير المبارك .

رحم الله الرازي ونفع بتفسيره وجزاه عن القرآن وعلوم القرآن ودارسيه خير
الجزاء .

نموذج من تفسيره :

قوله تعالى : « لاريب فيه » فيه مسثلتان :

المسألة الأولى : « الريب » قريب من الشك ، وفيه زياده كأنه ظن
سوء . . . تقول : رابني امر فلان اذا ظننت به سوءا ، ومنه قوله عليه
السلام : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

فان قيل ؛ قد يستعمل الريب في قولهم ريب الدهر ، وريب الزمان أي
حوادثه .

قال تعالى : نريص به ريب المنون . ويستعمل أيضا في معنى ما يختلج في
القلب من أسباب الغيظ كقول الشاعر :

قضينا في تهامة كل ريب وخير ثم اجمعنا السيوفا

قلنا : هذان قد يرجعان الى معنى الشك لأن الشك ما يخاف من ريب
المنون محتمل فهو كالمشكول ، وكذلك ما يختلج بالقلب فهو غير متيقن .

فقوله تعالى : « لاريب فيه » المراد منه نفي كونه مظنة الريب بوجه من
الوجوه ، والمقصود أنه لا شبهة في صحته ولا في كونه من عند الله ولا في كونه
معجزا .

ولو قلت : المراد لاريب في كونه معجزا على الخصوص كان أقرب لتأكيد هذا التأويل بقوله :

[وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا]

(سورة البقرة الآية ٢٣)

وههنا سؤالان :

السؤال الأول : طعن بعض الملحده فيه فقال : إن عنى أنه لا شك فيه عندنا فنحن قد نشك فيه ، وإن عنى أنه لا شك فيه عنده فلا فائدة فيه . .

الجواب : المراد أنه بلغ من الوضوح إلى حيث لا ينبغي لمرتاب أن يرتاب فيه ، والامر كذلك ، لان العرب مع بلوغهم في الفصاحة إلى النهاية عجزوا عن معارضة أقصر سورة من القرآن وذلك يشهد بأنه بلغ هذه الحججة في الظهور إلى حيث لا يجوز للعاقل أن يرتاب فيه .

السؤال الثاني : لم قال ههنا : لاريب فيه ، وفي موضع آخر « لافيهما غول . . ؟

الجواب : لانهم يقدمون الاهم فالهم ، وههنا الأهم نبي الريب بالكلمة عن الكتاب ، ولو قلت : لاريب فيه لاوهم أن هناك كتابا آخر حصل الريب فيه لاهنا كما قصد في قوله : لافيهما غول تفضيل خمر الجنة على خمر الدنيا فانها لاتغتال العقول كما تغتالها خمر الدنيا .

السؤال الثالث : من ين بدل قوله لاريب فيه على نبي الريب بالكلية .

الجواب : قرأ أبو الشعثاء : لاريب فيه - بالرفع . واعلم أن القراءة المشهورة توجب ارتفاع الريب بالكلية ، والدليل عليه أن قوله : لاريب فيه نبي لما هية الريب ، ونبي الماهية يقتضى نبي كل فرد من افراد الماهية ، لأنه لو ثبت فرد من أفراد الماهية لثبت الماهية ، ولهذا السركان قولنا : لا اله الا الله نفيا لجميع الآلهة سوى الله تعالى .

وأما قولنا : لا ريب فيه - بالرفع فهو نقيض لقولنا : ريب فيه ، وهو يفيد
ثبوت فرد واحد فذلك النقيض يوجب انتفاء جميع الافراد ليتحقق
التناقض الخ . .



الإمام الطبرسي وتفسيره مجمع البيات لعلم القرآن

ان مؤلف هذا التفسير هو الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي .

والطبرسي : نسبة إلى طبرستان ، وهو من كبار علماء الشيعة الامامية ، توفي سنة ٥٤٨هـ ليلة عيد الاضحى وقد عاش في خراسان في المشهد الرضوى مدة طويلة فنسب إلى المشهد ، ويقال له أحيانا الطبرسي المشهدى ثم ارتحل إلى بلده سبزادار من اقليم خراسان .

وألف هذا الكتاب بها وفرغ من تأليفه في ذى القعدة سنة ٥٤٦هـ . وهو رجل من بيت من بيوت العلم ، فقد كان ابنه رضى الدين من أهل العلم وكان سبطه على بن الحسن من أهل العلم وكان الكثيرون من أقربائه وأحفاده من ذوى المكانة العلمية .

وأخذ عنه كثير من العلماء وأخذ هو عن فقه من فقه المذهب الشيعى هو الشيخ أبى على بن الشيخ الطوسى وقد ألف فى التفسير ثلاثة كتب أحدها هذا الكتاب الذى تقدمه الان ولتأليفه قصة : إن المؤلفين يذكرونها كما يلى :

ومن عجيب أمر هذا الطبرسي بل من غريب كراماته ، ماشتهر بين الخاص والعام أنه قد أصابته إلسكنة فظنوا به الوفاة فغسلوه وكفنوه ثم رجعوا ، فلما أفاق وجد نفسه فى القبر ومسدود عليه سبيل الخروج عنه من كل جهة ، فنذرى تلك الحالة أنه أن انجى من تلك الداهية ألف كتابا فى تفسير القرآن ، فاتفق أن بعض النباشين قصده لأخذ كفته ، فلما كشف عن وجه القبر أخذ الشيخ بيده فتحير النباش ودهش مما رآه ثم تكلم معه فازداد به قلقا ، فقال له : لا تخف ، أنا حى وقد أصابتنى السكنة ففعلوا بى هذا ، ولما لم يقدر على

النهوض والمشي من غاية ضعفه ، حملة النباش على عاتقه وجاء به إلى بيته الشريف ، فأعطاه الخلعة وأولاه مالا جزيلا ، وتاب على يده النباش ، ثم انه بعد ذلك وفي بندره الموصوف ، وشرع في تأليف مجمع البيان » اهـ .

أما التفسير الثاني فله أيضا قصة وذلك أنه وصله في يوم من الأيام تفسير الكشاف فوجد أنه تفسير نفيس فاستحسن طريقته ، وأعجب به ، ولكنه رأى به بعض ما يؤخذ عليه من التعصب الكامل لمذهب المعتزلة ، فألف كتاب :

« الكافي الشافي عن الكشاف »

وقد ضمن هذا الكتاب الوسيط فوائد تفسيره مجمع البيان وفوائد تفسير الكشاف وهو في أربعة مجلدات ، وله تفسير ثالث مختصر هو الوجيز .

والتفسير الذي تقدمه كتب عنه قديما وحديثا كثير من مفكري الاسلام ، لقد كتب عنه الشيخ محمد تقي القمي من أعلام الشيعة :

« انه كتاب وقف مؤلفه موقف الانصاف ، والتزم جادة الأدب القرآني ، فلم يعنف في جدال ، ولم يسفه في مقال ، بل أعطى مخالفه ما أعطى موافقيه من حسن العرض ، وبيان الحجة ، ورواية السند ، فكن القارئ بذلك من الحكم السديد ، وجعل من كتابه موضعا للقذوة الحسنة في الجدل والتي هي أحسن .

وكتب عنه فضيلة الامام الأكبر الشيخ محمود شلتوت مايلي :

« ان هذا الكتاب نسيج وحده بين كتب التفسير وذلك لأنه مع سعة بحوثه وعمقها وتنوعها ، له خاصية في الترتيب والتبويب ، والتنسيق والتهديب ، لم تعرف لكتب التفسير من قبله ، ولا تكاد تعرف لكتب التفسير من بعده : فعهدنا بكتب التفسير الاولى أنها تجمع الروايات والآراء في المسائل المختلفة ، وتسوقها عند الكلام على الآيات سوفا متشابكا ربما اختلط فيه فن بفن ، فما يزال القارئ يكد نفسه في استخلاص ما يريد من هنا وهناك حتى يجتمع إليه

ماتفرق ، وربما وجد العناية ببعض النواحي واضحة إلى حد الاملال ،
والتقصير في بعض آخر واضحة إلى درجة الاختلال ، أما الذين جاءوا بعد
ذلك من المفسرين ، فلن كان بعضهم قد اطنبوا ، وحققوا وهذبوا وفصلوا
وبوبوا ، فإن قليلا منهم أولئك الذين استطاعوا مع ذلك أن يحتفظوا لتفسيرهم
بالجو القرآني الذي يشعر معه القارئ بأنه يجول في مجالات متصلة بكتاب الله
اتصالا وثيقا ، وتتطلبها خدمته حقا لا لادنى ملابسة ، وأقل مناسبة .

لكن كتابنا هذا كان أول - ولم يزل أكمل - مؤلف من كتب التفسير
الجامعة استطاع أن يجمع إلى غزارة البحث ، وعمق الدرس ، وطول
النفس في الاستقصاء ، هذا النظم الفريد ، القائم على التقسيم والتنظيم
والمحافظة على تفسير القرآن ، وملاحظة أنه فن يقصد به خدمة القرآن ،
لاخدمة اللغويين بالقرآن ، ولا خدمة الفقهاء بالقرآن ، ولا تطبيق آيات
القرآن على نحو سيويه ، أو بلاغة عبد القاهر ، أو فلسفة اليونان أو -
الرومان ، ولا الحكم على القرآن بالمذاهب التي يجب أن تخضع هي لحكم
القرآن .

ومن مزايا هذا التنظيم أنه يتيح لقارئ الكتاب فرصة القصد إلى مايريده
قصدا مباشرا ، فن شاء أن يبحث عن اللغة عمد إلى فصلها المخصص لها ،
ومن شاء أن يبحث بحثا نحويا اتجه إليه ، ومن شاء معرفة القراءات رواية أو
تخریجا وحجة عمد إلى موضع ذلك في كل آية فوجده ميسرا محررا ، وهكذا .
ولاشك أن هذا فيه تقريب أي تقريب على المشتغلين بالدراسات
القرآنية ، ولاسيما في عصرنا الحاضر الذي كان من أهم صوارفي المثقفين فيه
عن دراسة كتب التفسير ما يصادفونه فيها من العنت ، وما يثق عليهم من
متابعتها في صبر ودأب ، وكد وتعب .

فتلك ميزة نظامية لهذا الكتاب ، بجانب مزاياه العلمية الفكرية .
أما منهج صاحب الكتاب نفسه فانه يتحدث عنه قائلا : أنه استخار الله

تعالى ، ثم يقول :

« وشمرت عن ساق الجهد ، وبذلت غاية الجهد والكد ، وأسهرت الناظر ، وأتعبت الخاطر ، وأطلت التفكير ، وأحضرت التفاسير ، واستمددت من الله سبحانه التوفيق واليسير ، وابتدأت بتأليف كتاب هو في غاية التلخيص والتهذيب ، وحسن النظم والترتيب ، يجمع أنواع هذا العلم وفنونه ، ويحوى فصوصه وعيونه ، من علم قراءاته ، وإعرابه ولغاته ، وغوامضه ومشكلاته ، ومعاينة وجهاته ، ونزوله وأخباره ، وقصصه وآثاره ، وحدوده وأحكامه ، وحلاله وحرامه ، والكلام على مظاعن المبطلين فيه ، وذكر ما ينفرده به أصحابنا رضي الله عنهم من الاستدلال بمواضع كثيرة منه على صحة ما يعتقدونه من الأصول والفروع ، والمعقول والمسموع على وجه الاعتدال والاختصار ، فوق الإيجاز ودون الإكثار ، فان الخواطر في هذا الزمان لا تحتمل أعباء العلوم الكثيرة ، وتضعف عن الاجراء في الحلقات الحظيرة ، اذ لم يبق من العلماء إلا الأسماء ، ومن العلوم إلا الذمء ، وقدمت في مطلع كل سورة ذكر مكيا ومدنيها ، ثم ذكر الاختلاف في عدد آياتها ، ثم ذكر فضل تلاوتها ثم أقدم في كل آية الاختلاف في القراءات ، ثم ذكر العلل والاحتجاجات ، ثم ذكر العربية واللغات ثم ذكر الاعراب والمشكلات ، ثم ذكر الاسباب والنزولات ، ثم ذكر المعاني والأحكام والتأويلات ، والقصص والجهات ، ثم ذكر انتظام الآيات ، على أني قد جمعت في عربيته كل غرة لائحة ، وفي اعرابه كل حجة واضحة وفي معانيه كل قول متين ، وفي مشكلاته كل برهان ميين ، فهو بحمد الله للأديب عمده ، وللمنحوى عده ، وللمقرئ بصيرة ، وللناسك ذخيرة ، وللمتكلم حجة ، وللمحدث محجة ، وللفقيه دلالة ، وللواعظ آلة .

وسميته كتاب « مجمع البيان لعلوم القرآن » وأرجو ان شاء الله تعالى أن يكون كتابا كثير الدرر ، غزير الفرر ، متواصف السمات ، متناسق الصفات ، سيارا في الانجاد والأغوار ، طيارا في الافاق والاقطار ، مهذب الترتيب ، مذهب التهذيب ، أحكام الشريعة بمعانيه منوطة ، وأعلام الحقيقة

بمبانيه مربوطه ، وبحول الله أعتصم وبقوته وعونه أفتتح وأختتم ، وأياها أسأل
المداية للتي هي أقوم .

[وما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ]

(سورة هود الآية ٨٨)

وهاك نماذج من تفسيره :

قوله تعالى :

[هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ]

(سورة آل عمران الآية ٦)

يقول : التصوير جعل الشيء على صورة لم يكن عليها ، والصورة هيئة
يكون عليها الشيء في التأليف .

وأصلها من صاره يصوره اذا أماله لأنها مائلة إلى هيئة بالشبه لها ، والفرق
بين الصورة والصيغة : أن الصيغة عبارة عما وضع في اللغة ليدل على أمر من
الأمور ، وليس كذلك الصورة لأن دلالتها على جعل جاعل شيئا على بنية ،
والأرحام : جمع رحم وأصله الرحمة ، وذلك لأنها مما يتراحم به ،
ويتعاطف ، يقولون :

وصلتك رحم ، والمشية هي الإرادة .

المعنى : « هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ » أي يخلق صوركم في الأرحام « كيف
يشاء » على أي صورة شاء وعلى أي صفة شاء من ذكر أو أنثى ، أو صبيح أو
دميم ، أو طويل أو قصير « لا اله إلا هو العزيز » في سلطانه « الحكيم » في
أفعاله .

ودلت الآية على وحدانية الله وكمال قدرته وتمام حكمته حيث صور
الولد في رحم الأم على هذه الصفة وركب فيه من أنواع البدائع من غير آله

ولا كلفة، وقد تقرر في عقل كل عاقل أن العالم لو اجتمعوا على أن يخلقوا من الماء بعبوضة، ويصوروا منه صورة في حال ما يشاهدونه ويعرفونه، لم يقدرُوا على ذلك ولا وجدوا إليه سبيلا، فكيف يقدرُون على الخلق في الأرحام.

[فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ]

(سورة المؤمنون الآية ١٤)

وهذا الاستدلال مروى عن جعفر بن محمد.

وهاك نموذج آخر من تفسيره:

قوله تعالى:

[لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ].

(سورة آل عمران الآية ١٦٤)

يقول: «المعنى: ذكر سبحانه عظيم نعمته على الخلق ببعثه نبينا فقال: «لقد من الله» أي أنعم الله «على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا» منهم خص المؤمنين بالذكر وان كان ﷺ مبعوثا إلى جميع الخلق، لأن النعمة عليهم أعظم لاهتدائهم به وانتفاعهم ببيانه، ونظير ذلك ما تقدم بيانه من قوله «هدى للمتقين»، وقوله: «من أنفسهم» فيه أقوال: أحدها:

أن المراد به من رهطهم يعرفون منشأه وصدقه وأمانته، وكونه أميا لم يكتب كتابا ولم يقرأه ليعلموا أن ما أتى به وحى منزل، ويكون ذلك مشرفا لهم وداعيا أيهم إلى الإيمان.

وثانيها : أن المراد به أنه يتكلم بلسانهم فيسهل عليهم تعلم الحكمة منه فيكون خاصا بالعرب .

وثالثها : أنه عام لجميع المؤمنين ، والمراد بأنفسهم أنه من جنسهم لم يبعث ملكا ولا جنيا ، وموضع المنة فيه أنه بعث فيهم من عرفوا أمره ، وخبروا شأنه .

وقوله : « يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ » يعني القرآن « وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » ويعرضهم لما يكونون به أذكيا بشهادته لهم بذلك ليعرفهم الناس .

« ويعلمهم الكتاب والحكمة » الكتاب القرآن ، والحكمة هي القرآن أيضا ، جمع بين الصفتين لاختلاف فائدتها كما يقال : الله العالم بالأمور كلها ، القادر عليها .

وقيل : أراد بالكتاب القرآن ، وبالْحِكْمَةُ الوحي من السنة وما لا يعلم إلا من جهته من الأحكام « وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » يعني أنهم كانوا في ضلال ظاهرين أي كفارا وكفرهم هو ضلالهم ، فأنقذهم الله بالنبي ﷺ .

وبعد : فانه مما لاشك فيه أنه تفسير نفيس ، وكل ما يؤخذ عليه ميله للمذهب الشيعي ومها قيل عن انصافه فانه لم يستطع أن يتخلص في أحكامه من هذا المذهب .



تفسير الإمام أبو الحسن الشاذلي

رضي الله عنه

هو أبو الحسن علي الشاذلي الحسني يصل نسبه إلى ابن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هريره بن حاتم . بن قصى ، بن يوسف ، بن يوشع ، بن ورد ، بن بطال علي بن أحمد ، أبي محمد بن عيسى بن محمد الحسن بن سيد شباب أهل الجنة وسبط خير البرية ، ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، وابن فاطمة الزهراء ، بنت رسول الله ﷺ ، يقول أبو الغزائم ماضى يصف الشيخ رضى الله عنه :

« كانت صفته رضى الله عنه ، ادم اللون ، نحيف الجسم ، طويل القامة ، نحيف العارضين ، طويل أصابع اليدين ، كأنه حجازى . وكان فصيح اللسان ، عذب الكلام .

ولد ببلاد المغرب سنة ٥٩٣هـ بقرية تسمى « غمارة » - بلدة مغربية : قريبة من مدينة سبتة .

وأخذ يدرس بها العلوم الدينية : وسائل وغايات ، وبرع فيها براعة كبيرة . يقول ابن عطاء الله السكندرى عنه :

انه لم يدخل طريق القوم حتى كان يعد للمناظرة في العلوم الظاهرة . بيد أن هذه العلوم الظاهرة مها بلغت بها الدقة ، ومها بلغ بها العمل ، لاتفضى بالنفوس الطموحة إلى الكف عن التطلع نحو عالم الغيب ، واشراق الله وأنواره .

كيف يصل الانسان الى عالم الغيب ؟

كيف ينغمس الانسان في أضوائه ؟

كيف ينم بجماله ، ويشعر بالروعة في محيط جلاله ؟

ان النفوس الطموحة كلما ازدادت علما ، ازدادت شعورا بالنقص ،
والكمال لله وحده ، ولقد أمر رسول الله ﷺ ، أن يقول :

[رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا]

(سورة طه الآية ١١٤)

وشعر أبو الحسن بالرغبة الملحة في القرب من الله ، وفي أن يستضيء قلبه
بنور المعرفة ، وفي أن يكشف الله له الحجب .

كيف يروى هذه الرغبة ، كيف يسير في الطريق ، من أين يبدأ ؟

لقد رسم الأول الطريق : ان البدء ، البدء الميسر السهل ، البدء الذي
يأمن الانسان عواقبه انما يكون طريقه خبير سير الطريق ، ومحض السبل ،
وكشف عن المزالق والاحطار ، واستنار قلبه بالطريق القاصد إلى الله .

أين يجد هذا الشيخ ما السبيل إليه ؟

ان بغداد منذ عهد العباسيين ، كانت دائما محط أنظار طلاب الدنيا ،
وطلاب الدين .

ولقد كانت تضم كبار الفقهاء ، وأعلام المحدثين ، والقسم العوالي من
الصوفية ، كما تضم كبار الساسة والقادة ، كان ذلك في عهدا الزاهر فهل
ياترى هي كذلك في القرن السابع الهجرى ؟

وإذا لم يكن لها كل البريق المادى الاول فهل بها على الاقل من الصوفية
من يرسم الطريق عن خبرة ، ومن يسلك بالمريد السبل دون أخطاء ؟

وتحمل الرغبة الملحة أبا الحسن على السفر ، انها هجرة إلى الله ، انها
هجرة النفس الطلقة الشفافة .

وهي هجرة يسير بها الامل ، ويتخللها الاشفاق ، وتصاحبها في كل
الاقوات اسئلة لا جواب لها :

هل سيجد الشيخ ؟

وكيف يكون ؟

وهل يستقبله الشيخ بقبول حسن ؟

وبم سينصحه ؟

وإذا لم يجده في بغداد فأين يجده ؟

انتهى به المطاف إلى بغداد ، والتقى بالاولياء ، وكان قمتهم في نظره هو أبو
الفتح الواسطي يقول أبو الحسن :

لما دخلت العراق اجتمعت بالشيخ الصالح أبي الفتح الواسطي ، فما رأيت
بالطريق مثله .

ولكن همة أبي الحسن كانت تسموا إلى البحث عن القطب ذاته ، انه كان
يريد أن يكون قائده هو القطب نفسه ، أين يجد القطب ؟ .

ها هو ذا بالعراق ، وما هم أولاء الصالحون ، وأولياء الله يتردد عليهم كل
يوم

وما هو ذا يرى النور على وجوههم ، والصلاح يرتسم على
سياهم ، ولكنه لم يجد القطب وهو مطلبه .

وذات يوم قال له أحد الأولياء :

انك تبحث عن القطب بالعراق ، مع أن القطب ببلاذك ، ارجع إلى
بلاذك تجده .

وعاد أبو الحسن من حيث أتى ، عاد يحدوه الأمل ، ويغمره الرجاء ،
لقد صدق الولي الذي أنبأه بأن القطب في بلاده ، وبأنه سيجده عند عودته .

وعاد يسرع الخطا ويستحث الوصول .

ها هو ذا بغارة من جديد يسأل عن القطب المقبل والمدبر ، والراحل

والمقيم :

أقول أكاد اليوم أن أبلغ المدى فيبعد عني ما أقول أكاد
أسألكم عنها فهل من مخبر فإلى بنعم مذ نأت دارها علم
فلو كنت أدري أين خيم أهلها وأى بلاد الله - إذ ظعنوا - أموا
أذن لسلكنا مسلك الريح خلفها ولو أصبحت نعم ومن دونها النجم
وذات يوم : -

يقول أبو الحسن :

لما قدمت عليه وهو ساكن بمغاره في رأس جبل ، أغتسلت في عين بأسفل
ذلك الجبل وخرجت عن علمي وعملي ، وطلعت إليه فقيرا ، وإذا به هابط
إلى ، وعليه مرقعة ، وعلى رأسه قلنسوة من خوص ، فقال لي :
مرحبا بعلي بن عبد الله بن عبد الجبار ، وذكر نسبي إلى رسول الله ﷺ ثم
قال لي :

يا علي طلعت إلينا فقيرا من علمك وعملك ، فأخذت منا غنى الدنيا
والآخرة .

فأخذني منه الدهش ، فأقتت عنده أياما إلى أن فتح الله علي بصيرتي .
وكان رضى الله عنه ، يأخذ زيتته عند كل مسجد ، وإذا كان رسول الله
ﷺ يقول :

« جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا » .

أى أن الأرض - أينما كان الانسان عليها - كلها مسجد ، فإن أبا الحسن
كان يتحلى دائما بالثياب الحسنة .

وما كان أبو الحسن يحب التزمت في شيء أبدا .

وفي يوم من الأيام دخل أبو العباس المرسي على الشيخ أبي الحسن ، وفي
نفسه أن يأكل الخشن ، وأن يلبس الخشن ، فقال له الشيخ :
يا أبا العباس : اعرف الله وكن كيف شئت .

ومن عرف الله فلا عليه أيضا ان أكل هنيئا وشرب مريئا .
وما كان أبو الحسن يتعمد قط أن يأكل الغليظ من الطعام ، أو يقتصر على
غير الزلال البارد من الشراب ، انه يقول :

يا بني برد الماء ، فانك اذا شربت الماء السخن فقلت الحمد لله ، تقولها
بكزازة : واذا شربت الماء البارد ، فقلت الحمد لله استجاب كل عضو منك
بالحمد لله .

وعن ذلك ، وبيانا لنهج الطريقة الشاذلية : الذي رسمه أبو الحسن ،
يقول ابن عطاء الله :

« وأما لبس اللباس اللين ، وأكل الطعام الشهى ، وشرب الماء البارد :
فليس القصد إليه بالذي يوجب العتب من الله ، إذا كان معه الشكر لله ،
ا . ه . .

وهذا كله طبعا يتمشى مع قوله تعالى :

[قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ
الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ
الْقِيَامَةِ] . (سورة الأعراف الآية ٣٢) .

ويقول الأستاذ على سالم عمار :

« كان الشاذلي يلبس الفاخر من الثياب ، ويركب الفاره من الدواب ،
ويتخذ الخيل الجياد » ا . ه . .

ولقد كان الجانب العلمي من العناصر الاولى التي حددت شخصية
الشاذلي : لقد بدأ الدراسة والتحصيل صغيرا ، فثقف كأحسن ما يكون
المثقف ، لقد ثقف على الطريق العادي فحفظ القرآن ، ودرس السنة ،
ودرس العلوم الدينية ، وسائل وغايات : « ولم يدخل في علوم القوم حتى كان
يعد للمناظرة في العلوم الظاهرة » .

وكان : « ذا علوم جمّة » وهو صاحب « العلوم الغزيرة » .

ولقد تدرج في هذه العلوم سلماً فسلماً ، ثم أخذ يختار الكتب التي يدرسها ويشرحها وينصح بقراءتها ، ويحب في أصحابها ، وكان منها في موضوع التفسير « كتاب التحرير الوجيز » لابن عطية ، وهو كتاب يشرحه عنوانه ، فهو محرر كلماته منتقاة متميزة ، محررة وعبارته دقيقة . .

وهو وجيز وان لم يكن في إيجاز الجلالين أو البيضاوي .

وكان الشيخ ينتقل بين الأقطار إلى أن وصل إلى مصر واستمر الشيخ يدعو فيها إلى الله إلى أن كان شهر شوال سنة ٦٥٦هـ ، وفي هذا الشهر أخذ الشيخ في السفر إلى الأراضي المقدسة للحج .

فلما كان في حميثة بصحراء عذاب - وهي بين قنا والقصير - جمع الشيخ أصحابه في إحدى الأمسيات ، وأوصاهم بأشياء ، وأوصاهم بحزب البحر وقال لهم : « حفظوه أولادكم فان فيه اسم الله الأعظم » ، ثم خلا بأبي العباس المرسي - رضى الله عنها - وحده وأوصاه بأشياء .

واختصه بما خصه الله من البركات ،

ثم وجه الحديث لأصحابه قائلاً :

« أنا إذا مت فعليكم بأبي العباس المرسي ، فانه الخليفة من بعدى وسيكون له بينكم مقام عظيم ، وهو باب من أبواب الله سبحانه وتعالى » ، وبات تلك الليلة متوجهاً إلى الله تعالى ذاكراً ومعه أصحابه وهو يقول : « إلهي إلهي ! »

فلما كان السحر سكن فظننا أنه نام ، فحركناه فوجدناه ميتاً !

وجاء الشيخ أبو العباس فغسله ، وصلى الجميع عليه ، ودفن حيث توفاه الله .

وقد كان للشيخ أولاد ذكور فلم يفكر في أن يستخلف أحدهم وإنما أستخلف من رآه أحق بالخلافة ، ونرجو أن يعتبر رجال الطرق في العصر

الراهن - فلا يجعلوا الطريق مورد رزق تورث كما يورث العقار .

ورحم الله أبا الحسن وطيب ثراه ، ونفعنا ببركاته انه نعم المجيب . .
وكان شأن أبي الحسن الشاذلي في التفسير شأن الشيخ محمد عبده ، فقد
كان الشيخ محمد عبده يأخذ تفسير الجلالين بين يديه ، ويقراً فيه ويشرح
ويستفيض في شرح رأيه هو دون أن يكون تفسيره الجلالين الاتكأة موجزة
إيجازا كبيرا .

وكان أبو الحسن الشاذلي يأخذ تفسير ابن عطية ويقراً فيه ، وفي خلال
شرحه يذكر الهاماته وإشاراته . .

وهي الهامات وإشارات مبثوثة هنا وهناك لم تجمع في كتاب ، ولم تطبع
مستقلة !

ولقد سميناها إشارات لأن الإشارات الروحية ، والتوجيهات الإلهية
للقلوب والبصائر من خلال القرآن الكريم لا يحيط بها عد ، ولا يأتي عليها
الزمن .

هذه الإشارات للقلوب والبصائر تنبع وتفيض وتزداد بنسبة زيادة
الامعان في تحقيق معنى العبودية لله سبحانه وتعالى .

وهي إشارات لا تحرم حلالا ، ولا تحل حراما ، انها ليست من تأويلات
الباطنية هذه التأويلات المنحرفة ، والتي يهدمها من أساسها في سهولة ويسر
عمل رسول الله ﷺ . .

فقد طبق صلوات الله وسلامه عليه دين الله تطبيقا هو الاسبوبة التي
تحتذى ، والتي إذا خرج الانسان عن دائرتها في الدين فانه يكون خاطئا
ضالاً . .

لقد أخرج رسول الله ﷺ وصحابته البررة الأصفياء الأوامر الإلهية
والنواهي الإلهية عن دائرة النظريات إلى دائرة العمل ، وتحدد بذلك المعنى
المقصود من الأوامر والنواهي تحديدا لا لبس فيه ، وكل تأويل - إذن -

للأوامر والنواهي يخرجها عن أن تكون مطابقة لعمل رسول الله ﷺ وعمل الصحابة فأنما هو تأويل باطنى ضال . . .

أما الاشارات التى نثبها هنا ، فانها اشارات روحية ترشد إلى معارج الروح تتسامى بازدياد الانسان فى القرب من الله عن طريق الاستقامة .

ومن اشاراته :

• من أجل مواهب الله : الرضا بمواقع القضاء ، والصبر عند نزول البلاء ، والتوكل على الله عند الشدائد ، والرجوع إليه عند النوائب ، فمن خرجت له هذه الأربع من خزائن الأعمال على بساط المجاهدة ومتابعة السنة ، والافتداء بالأئمة فقد صحت ولايته لله ولرسوله وللمؤمنين :

[وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ

هُمُ الْغَالِبُونَ]

(سورة المائدة الآية ٥٦)

ومن خرجت له من خزائن المن على بساط المحبة فقد تمت له ولاية الله بقوله :

[وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ] . . .

ففرق بين الولايتين : فعبد يتولى الله ، وعبد يتولاه ، فهما ولايتان : صغرى وكبرى .

فولايتك الله : خرجت من المجاهدة ، وولايتك لرسوله : خرجت من متابعتك لسنته ، وولايتك للمؤمنين : خرجت من الافتداء بالأئمة ، فافهم ذلك من قوله :

[وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ

الْغَالِبُونَ]

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : كنت مع الشيخ فى سفره ونحن قاصدون إلى الاسكندرية حين مجئنا من المغرب ، فاختذنى ضيق شديد حتى ضعفت عن حملى ، فأتيت إلى الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه ، فلما أحس بنى قال :

أحمد - قلت : نعم ياسيدى . .

قال آدم خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأسكنه الجنة نصف يوم - خمسمائة عام - ثم نزل به إلى الأرض ، ، والله ما نزل الله بآدم إلى الأرض لينقصه ، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله - ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلق بقوله :

[إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً] .

(سورة البقرة الآية ٢٨)

ما قال فى الجنة ولا فى السماء ، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة ، لانزول اهانة ، فانه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف فأنزله الله الأرض ليعبده بالتكليف ، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة - وأنت أيضا لك قسط من آدم : كانت بداية فى سماء الروح فى جنة المعارف فأنزلت إلى النفس لتعبده بالتكليف ، فلما توفرت فىك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة . .

وفى قوله تعالى :

[وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ

لَا يَحْتَسِبُ] (سورة الطلاق الآية ٢)

فسر سهل بن عبد الله هذه التقوى من الحول والقوة وعدل عما تزين به الباطلون من مظاهر التقوى مع دنس باطنه وهذا صحيح فى عبد ظاهر المعاصى والشهوات ويحمل نفسه على أنواع الطاعات وقد سد الافق

بالدعوى ، وأضاف الحول والقوة إلى نفسه : فهذا عبد قد جاوز الحدود ،
وأعظم الفرية والعجب فلا يقوم خيره بشره ، والمحققون ينسبون له الأشياء
وينظرون إلى البواعث والثمار ، فإذا فقدت الثمار علموا أن علمه وعمله
مدخولان ، وإذا فقدت البواعث الصحيحة في الاصول فلا يعتبرون بأعمالهم ،
قال الله عز وجل : -

[وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا]

فيا مدعى التقوى أين المخرج ؟ فإذا رأيت المخرج (ثمرة لتقواك) وذلك
وعد الله وضمانه (فأنت على الصواب والخير) ، وإذا لم تجد بتقواك إلا تجبرا
فن الصادق ومن الكاذب ؟

ومن أصدق من الله قبلا :

[وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ]

(سورة الطلاق الآية ٢)

ولا يصح التوكل إلا لمتق .

ولا تتم التقوى إلا لمتوكل .

فدققوا النظر في البواعث والاصول والثمار والله يحب الصابرين . .

ولا يتأتى أن نترك حياة أبي الحسن دون أن ننبه إلى موقفه من معركة

المنصورة :

بدأ الصليبيون يزحفون صوب المنصورة وكانت مصر آنذاك تضم بين

أرجائها نخبة ممتازة من العلماء الدينيين الذين أخلصوا جهادهم لله وحده ، فلم

تغرم الدنيا بزخرفها وزينتها .

كان في مصر اذ ذاك : العزيز عبد السلام ، ومجد الدين القشيري ،

ومحيى الدين بن سراقه ، ومجد الدين الانحيمي ، وأبو الحسن الشاذلي ،

وغيرهم من خيرة العلماء .

لم يستقر هؤلاء العلماء في دورهم البعيدة عن الخطر ، وإنما هبوا جميعا
للجهاد في سبيل الله ، لقد هاجروا إلى المنصورة ليكونوا بين المجاهدين ،
ورغم أن العارف بالله أبا الحسن الشاذلي كان في آخر حياته ، وكان قد كف
بصره ، فإنه كان في مقدمة الذاهين إلى المنصورة !!!

هاهم أولئك العلماء الصوفية ، أو الصوفية العلماء ، بسمتهم الملائكي ،
وبإيمانهم الذي لا يتزعزع يسرون وسط الجند ، يحثون ويشجعون ، ويرشدون
ويذكرون بالله ، ويبشرون - كما وعد الله - بإحدى الحسينين : النصر أو
الجنة .

وإذا لزم الأمر عملوا بأيديهم مع العاملين .

ولقد كان مجرد سيرهم في الخواري والشوارع : تذكيرا بالنصر أو الجنة ،
وكان حفزا للهمم ، وتثبيتا للإيمان ، وتأكيدا لصورة الجهاد الإسلامية التي
قادها في عصور الإسلام الأولى رسول الله صلوات الله عليه ، وخلفاؤه
الراشدون ، رضوان الله عليهم . .

حتى إذا اطمأنوا إلى الأسباب والوسائل : المادية الظاهرة ، والمعنوية
الباطنة ، اجتمع هؤلاء الاعلام في خيمة من خيام المعسكر . . نعم في خيمة
من خيام المعسكر يتجهون إلى الله بصلاتهم ودعائهم ، يلتمسون منه النصر ،
فاذا ما فرغوا من ذلك أخذوا يتدارسون كتابا من الكتب . . .

وشغل أبو الحسن بأمر المسلمين ، فكان ليله ونهاره مشغولا بالله في أمرهم
حتى إذا ما أخذته سنة من النوم ليلة من الليالي ، رأى فيها يرى النائم ، رؤى
تتعلق بحالة المسلمين في المنصورة ومن : الرؤيا التي حكها كتاب « درة
الاسرار » قال :

« قال الشيخ أبو الحسن : كنت بالمنصورة ، فلما كانت ليلة الثامن من ذي
الحججة ، بت مشغولا بأمر المسلمين وبأمر الثغر ، وقد كنت أدعو الله وأضرع
إليه في أمر السلطان والمسلمين .

فلما كان آخر الليل ، رأيت فسطاطا واسع الأرجاء ، عاليا في السماء ،
يعلوه نور ويزدحم عليه خلق من أهل السماء ، وأهل الأرض عنه مشغولون ،
فقلت :

لمن هذا الفسطاط ؟

فقالوا :

لرسول الله ﷺ .

فبادرت إليه بالفرح ، ولقيت على بابه عصابة من العلماء والصالحين نحووا
من السبعين ، أعرف منهم الفقيه عز الدين بن عبد السلام ، والفقيه مجد
الدين مدرس قوص ، والفقيه الكتاب بن القاضي صدر الدين والفقيه المحدث
محيي الدين بن سراقه ، والفقيه عبد الحكيم بن أبي الخوافز ومعهم رجلان لم
أعرف أجمل منهما ، غير أنني وقع لي ظن في حالة الرؤيا : أنها الفقيه زكي
الدين عبد العظيم المنذرى المحدث والشيخ مجد الدين الاخمصي . . .

وأردت أن أتقدم لرسول الله ﷺ ، فالزمت نفسي التواضع والادب مع
الفقيه ابن عبد السلام وقلت : لا يصلح لك التقدم قبل عالم الامة في هذا
الزمان ، فلما تقدم وتقدم الجميع ، ورسول الله ﷺ يشير إليهم يمينا وشمالا :
أن اجلسوا وتقدمت ، وأنا أبكي بالهم والفرح ، أما الفرح ، فن أجل قرني
لرسول الله ﷺ بالنسب ، وأما الهم فن أجل المسلمين والثغر ، وهم ، طلبني
إليه ﷺ ، فد يده حتى قبض على يدي ، وقال :

لا تهتم كل هذا الهم من أجل الثغر ، وعليك بالنصيحة لرأس الامر -
يعني السلطان - فان ولي عليهم ظالم فما عسى ؟ وجمع اصابع يده الخمسة في
يده اليسرى ، كأنه يقلل المدة .

وان ولي عليهم تني : « الله ولي المتقين » وبسيط يده اليمنى واليسرى .

وأما المسلمون فحسبك الله ورسوله وهؤلاء المؤمنون - أي العلماء والفقهاء
والصالحون بالمجلس وقال :

[وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُم
الْغَالِبُونَ] .

وأما السلطان فيد الله مبسوطة عليه برحمته من وإلى أهل ولايته ونصح
المؤمنين من عباده فانصحه واكتب له وقل في الظالم عدو الله قولا بليغا :
[فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ]

(سورة الروم الآية ٦٠)

فقلت : نصرنا ورب الكعبة ، وانتهيت ، ونصر الله المسلمين نصرا
مؤزرا ، وأسر الملك لويس ، وأسر الكثيرون من قواده ، وأشاد الشعراء بهذا
النصر .

ومن قصيدة مشهورة لابن مطروح نقتطف منها مايلي : قال يخاطب
لويس :

وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون الفا لا يرى منهمو	إلا قتيل أو أسير أو جريح
وقل لهم ان أزمعوا عودة	لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشي صبيح



الإمام أبو العباس المرسى وتفسيره

لم يكن أبو العباس معنيا بالحديث عن نفسه ، ولم يكن مهتماً بالتاريخ لحياته انه لم يتحدث عن أسرته ، ولم يتحدث عن نفسه ، ولم يشد بأفعاله ، لقد فنى في أبي الحسن ، فلم يكن في آفاقه فراغ للحديث عن نفسه ، ثم فنى في الدعوة إلى الله بعد أبي الحسن ، فلم يكن في آفاقه فراغ للحديث عن نفسه .

ومحدثنا التاريخ أنه ولد في الاندلس « مرسية » التي ينسب إليها ، ولد سنة - ٦١٦ هـ - ١٢١٩ م ، ويتصل نسبه بالانصار الذين أخبر رسول الله ﷺ أن حبيهم من علامات الايمان ، ان نسبه يتصل بسعد بن عباد ، سيد الخزرج .

ولد في « مرسية » ونشأ بها ، حيث كان والده يعمل في التجارة ، ويبدو أن حالة الوالد كانت من اليسر بحيث مكنته من ارسال ابنه إلى مؤدب لتعلم القرآن ، والتفقه في أمور الدين ، يقول أبو العباس : -
« كنت وأنا صبي ، عند المؤدب ، جاء رجل فوجدني اكتب في لوح ، فقال الصوفي لايسود بياضا ، فقلت : ليس الأمر كما زعمت ، ولكن لايسود الصحائف بسود الذنوب » .

هذه القصة تدل دلالة واضحة على ذكاء غير عادي ، وعلى مهارة وفهم لا يوجدان في المستوى العام ، في اطفال المكاتب ، وترسم أيضا اتجاهها إلى الصلاح ، والتقوى منذ هذه السن المبكرة .

وعن بعض حوادثه مع المؤدب يقول : عمل إلى جانب دارنا خيال الستار ، وأنا اذ ذاك صبي فحضرته ، فلما أصبحت اتيت إلى المؤدب ، وكان من أولياء الله تعالى ، فأنشد حين رآني .

باناظرا صور الخيال تعجبا وهو الخيال بعينه لو أبصرا
فخجل أبو العباس ، وعزم في نفسه أن يأخذ في حياته مسلك الجد .
وأعظم حادث في حياة أبي العباس هو صلته بأبي الحسن الشاذلي وعن
بدء هذه الصلة يقول : فلما نزلت بتونس ، وكنت اتيت من « مرسية » - وأنا
إذ ذاك شاب - سمعت بذكر الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، فقال لي رجل :
تمضي بنا إليه ، فقلت حتى استخير الله فتمت تلك الليلة ، فرأيت كأني أصعد
إلى رأس جبل ، فلما علوت فوقه ، رأيت هنالك رجلا ، عليه برنس أخضر ،
وهو جالس ، وعن يمينه رجل ، وعن يساره رجل فنظرت إليه ، فقال :
عثرت على خليفة الزمان ، قال : فانتبهت .

فلما كان بعد صلاة الصبح ، جاءني الرجل الذي دعاني إلى زيارة الشيخ
فسرت معه فلما دخلنا عليه ، رأيت بالصفة التي رأيت بها فوق الجبل ،
فدهشت . . فقال لي : عثرت على خليفة الزمان ، ما اسمك ؟ فذكرت له
اسمي ، ونسبي ، فقال لي : - رفعت لي منذ عشر سنين ، وبهره أبو الحسن
بهره بحديثه المنطلق ، والهلماته المندفعة وسلوكه الرباني ، فلازمه أبو العباس
ملازمة المرید الصادق لشيخه العارف .

ورأى الشاذلي فيه فطرة طاهرة ، ونفسا خيرة ، واستعدادا طيبا ، للاقبال
على الله : فمنحه وده ، وغمره بعنايته ، وأخذ في تربيته تربية تؤهله ليكون
خليفة من بعده .

وحدث في تونس سوء التفاهم بين الشاذلي ، وقاضي القضاة ابن البراء .
هذا الخلاف الذي سبق ان فصلناه في كتابنا عن « المدرسة الشاذلية » وكانت
نتيجته ان غادر الشاذلي تونس ، ميمًا شطر الديار المصرية ، ورافقه في هذا
السفر جماعة كان على رأسهم أبو العباس .

• • •

واستمر أبو العباس مع الشاذلي يسير في ضوء تربيته ، ومنهج طريقه لا يحد عنه قيد شعره إلى ان كانت وفاة الشاذلي .

لقد بشر الشاذلي بأنه سيموت ويدفن بأرض لم يعص الله عليها قط ، فلما كان في طريقه إلى الحج ووصل إلى حميثة ، وقد خيم الركب للمبيت جمع أصحابه وأوصاهم بأشياء وأوصاهم حزب البحر ، وقال لهم : حفظوه لأولادكم ، فإن فيه اسم الله الأعظم .

وخلا بأبي العباس وحده رضى الله عنها وأوصاه بأشياء ، واختصه بما اختصه الله به من البركات .

وقال لأصحابه : إذا أنا مت فعليكم بأبي العباس المرسى : فإنه الخليفة من بعدى ، وسيكون له بينكم مقام عظيم ، وهو باب من أبواب الله سبحانه يقول صاحب كتاب درة الأسرار نقلاً عن نجل الشيخ أبي الحسن : وبات تلك الليلة متوجهاً إلى الله سبحانه ، ذاكراً ، أسمعه يقول : الهى ، الهى . فلما كان السحر سكن فظننا أنه نام ، فحركناه فوجدناه ميتاً ، رحمه الله .

واستدعينا سيدى أبا العباس المرسى ، فغسله وصلينا عليه ، ودفناه بحميثة ، وهذا الموضع بيرة عذاب ، في واد على طريق الصعيد .

يقول صاحب « درة الأسرار » وقد شربت من مائها ، وزرت ضريحه ، ورأيت له البركات نفع الله به في الدنيا والآخرة .

وقال : ولما دفناه ، اختلف أصحابه في الرجوع ، أو التوجه ، فقال لهم سيدى أبو العباس : الشيخ أمرنى بالحج ووعدنى بكرامات ، وتوجهنا ، ورأينا تهوينا ، وبركات ، ورجعنا في صحبته .

• • •

وظهر أبو العباس من بعد الشاذلي ظهوراً عظيماً ، وظهرت له كرامات كثيرة على أنه كان يبدو واضحاً من مواقف أبي الحسن مع أبي العباس ومن

حديثه عنه أنه : كان يعده للخلافة ، بل لقد اقامه فيها بصورة تشبه أن تكون صريحة حينما استدعاه ، وقال له : يا أبا العباس ، تكلم بين الناس . فجلس في جامع العطارين بالاسكندرية فعاصره بالكلام والتدريس والدعوة إلى الله عن اذنه وبأمر منه ، وحمل أبو العباس لواء الدعوة إلى الله طيلة حياته متفانيا فيها ، باذلا كل ما يستطيع في سبيلها حتى انتهت به الحياة راضيا عن الله ، مرضيا عنه من الله وكان ذلك في الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٨٥ هـ - ١٢٨٧ م ، وكان يبلغ تقريبا سبعين عاما ، رحمه الله رحمة واسعة .

ويروون له كرامات كثيرة منها على سبيل المثال : إن السلطان يعقوب ، أمر بذبح دجاجة وخنق أخرى ، وطبخها ، وقدمها إليه ، وجلس ليأكل معه ، فلما نظر الشيخ أبو العباس إليهما ، أمر الخادم برفع الخنوقة ، وقال : هذه جيفة ، وقال : لولا تنجس الأخرى بالمرق النجس لأكلت منها ، وقاله الشعرائي : قال المناوي ، وقدم إليه رجل طعاما فيه شبهة يمتحنه فرده وقال كان الحاسبي ، إذا مديده إلى طعام فيه شبهة ضرب عرق باصبعه فأنا في يدي ستون عرقا تضرب .

ومن كراماته التي انفرد بها عن غالب الأولياء تسليكه لنحو ثلاثين قاضيا ، وكان يقول للعرشي : ليس الشأن أن تسلك كل يوم ألفا من العوام ، بل ان تسلك فقيها واحدا في مائة عام .

وقال الشيخ حسن العدوي في كتابه « شرح البردة البوصيرية » .

قال بعضهم : صليت خلف الشيخ أبي العباس فشهدت الأنوار ملأت بدنه . وانبثقت من وجوده ، حتى أني لم استطع النظر إليه .

مات سنة ٦٨٦ هـ بالاسكندرية ، رحمه الله .

ومع ذلك فقبل ان ننهي من الكرامات نقول انه رضى الله عنه كان يقول هذه الكلمة المخلصة .

« والله ماجلست حتى جعلت جميع الكرامات تحت سجادتي » .

« تفسير أبي العباس المرسى »

لم يكتب أبو العباس المرسى تفسيراً للقرآن ، يتدئ فيه من أوله وينتهي فيه بنهايته ، ولم يكتب مریدوه وتلاميذه تفسيره ولم يجعلوا له تفسيراً ، وإنما اكتفوا بأن تفسيره ماثوث هنا وهناك في كتب الشاذلية .

ونقل هنا بعض نماذج من هذا التفسير الذي يسير فيه - طبيعياً - على المنهج الصوفي ، في سورة الفاتحة أم الكتاب :

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ،
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ،
إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ] .

(سورة الفاتحة أم الكتاب)

قال الله سبحانه : الحمد لله رب العالمين :

قال الشيخ رضي الله عنه : علم الله عجز خلقه عن حمده ، فحمد نفسه بنفسه في ازله فلما خلق الخلق اقتضى منهم ان يحمده بجمده ، فقال الحمد لله رب العالمين ، أي قولوا الحمد لله رب العالمين ، أي أن الحمد لله الذي حمد نفسه بنفسه ، هو له لا ينبغي أن يكون لغيره ، فعلى هذا تكون الألف واللام للعهد .

يقول ابن عطاء الله : وسمعتة يقول في قوله عز وجل :

[إِيَّاكَ نَعْبُدُ ، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ] .

إياك نعبد ، شريعة .

وإياك نستعين ، حقيقة .

إياك نعبد ، إسلاما .

وإياك نستعين ، احسانا .

إياك نعبد ، عباده .

وإياك نستعين ، عبودية .

إياك نعبد ، فوق .

وإياك نستعين ، جمع .

ثم قال سبحانه وتعالى : « اهدنا الصراط المستقيم » .

فقال الشيخ رضى الله عنه : بالثبوت فيما هو حاصل ، والارشاد لما ليس بحاصل وهذا الجواب ذكره ابن عطية في تفسيره ، وبسطه الشيخ رضى الله عنه ، فقال : عموم المؤمنين يقولون :

اهدنا الصراط المستقيم ، أى بالثبوت فيما هو حاصل والارشاد لما ليس بحاصل ، فإنهم حصل لهم التوحيد ، وفاتهم درجات الصالحين .

فما هو حاصل ، والارشاد لما ليس بحاصل ، فإنه قد حصل له رتبة القطبانية ، وفاته علم إذا شاء الله ان يطلعه عليه ، اطلعه .

٢ - قال الله تعالى :

[سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا] .

(سورة الإسراء الآية ١)

ولم يقل بنبيه ولا برسوله وهو نبيه ورسوله ، وإنما كان كذلك لأنه أراد أن يفتح باب السرمان للاتباع ، فاعلمنا بأن الإسراء ، من بساط العبودية ، فالنبي ﷺ كان له كمال العبودية فكان له كمال الإسراء ، أسرى بروحه وجسمه وظاهره وباطنه .

فالأولياء لهم قسط من العبودية ، فلهم قسط من الاسراء ، يسرى بأرواحهم لأبشاحهم .

٣ - يقول الله تعالى :

[لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ] .

(سورة الحشر الآية ٢١)

قال رضى الله عنه فى هذه الآية : مدح لسيد المرسلين ﷺ ، أى أن هذا القرآن لا تثبت له الجبال لو أنزل عليها ، وأنت يا محمد ثبت لتزوله بالقوة الربانية ، التى أودعناها فىك .

وفىها ذم للكافرين ، أى أن هذا القرآن لو أنزل على جبل لخشع وتصدع ، وأنتم ما خشعتم ولا تصدعتم .



أبوحيات الأندلسي وتفسيريه (البحر المحيط) و (النهر الماد)

مفسر العصر ومحدثه ومؤرخه وأديبه والامام المطلق في النحو والتصريف
الامام أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان
الأندلسي الغرناطي .

ولد بمطخارش بالقرب من غرناطة آخر شوال سنة اربع وخمسين وستائة .
بدأ أبو حيان حياته بالقرآن الكريم حفظا ودراسة فقرأه على الخطيب
عبد الحق بن علي افرادا وجمعا ثم على الخطيب أبي جعفر بن الطباع ، ثم على
الحافظ أبي علي بن أبي الأحوص بمالقه والم رحمه الله بالقراءات صحيحها
وشاذها .

وقد حبيت إليه الرحلة لطلب العلم فكانت رحلاته ببلاد الاندلس
وحواضرها المشهورة ومواطن العلم والعناء في ذلك الوقت فسمع الحديث
بالأندلس وافريقيا والاسكندرية ومصر والحجاز من نحو اربعمائة وخمسين
شيخا منهم أبو الحسن بن ربيع وابن الأحوص والقطب العسكلاني وأجاز له
خلق من المشرق والمغرب منهم الشرف الدمياطي وابن دقيق العيد وغيرهم
الكثير .

ويقول ابن العماد في شذرات الذهب :

واكب - أبو حيان - على طلب الحديث واتفق له وشرع فيه وفي التفسير
والعربية والقراءات والادب والتاريخ واشتهر اسمه وطار صيته وأخذ عنه أكابر
عصره وتقدموا في حياته كالشيخ تقي الدين السبكي وولديه والجمال الاسنوي
وابن قاسم وابن عقيل والسمين وناظر الجيش وابن مكنوم وخلائق .

وقال الصفدى :

لم اره قط إلا يسمع أو يشتغل أو يكتب ، أو ينظر فى كتاب وكان ثباتا عارفا باللغة وأما النجوم والتصريف فهو الامام المطلق فيها خدم هذا الفن أكثر عمره حتى صار لا يدركه أحد فى اقطار الأرض فيها وله اليد الطولى فى التفسير والحديث وتراجم الناس ، ومعرفة طبقاتهم خصوصا المغاربة واقرا الناس قديما وحديثا ، الحق الصغار بالكبار ، وصارت تلامذته أئمة وشيوخا فى حياته .

ومما يذكر عن سبب رحلته ما نقله السيوطى قائلا :

« ورأيت فى كتابة النصار الذى ألفه فى ذكر مبدئه واشتغاله وشيوخه ورحلته : أن مما قوى عزمه على الرحلة عن غرناطة ان بعض العلماء بالمنطق والفلسفة والرياضة والطبيعة قال للسلطان فى ذلك الوقت - إني قد كبرت وأخاف أن اموت ، فأرى ان ترتب لى نطلبة اعلمهم هذه العلوم لينتفعوا من بعدى ، قال أبو حيان : فأشير إلى أن أكون من أولئك وترتب لى جيد وكسوة واحسان فتمنعت ورحلت مخافة أن اكره على ذلك » .

ومما يذكر لأبى حيان ما قاله عنه الادفوى وهو : -

(. . .) كان ثباتا صدوقا سالم العقيدة من البدع الفلسفية والاعتزال والتجسيم . . . كثير الخشوع والبكاء عند قراءة القرآن ، وكان شيخا طوالا حسن النفحة مليح الوجه ظاهر اللون مشربا بحمرة منور الشيبة كبير اللحية مسترسل الشعر) .

مؤلفاته : -

وقد كثرت مؤلفات أبى حيان كثرة فائقة نذكر منها :

البحر المحيط والنهر الماد وهما تفسيران مطول ومختصر ستحدث عنها .

إتحاف الاريب بما فى القرآن من الغريب .

والتذيل والتكميل فى شرح التسهيل .

ومطول الارتشا في ومختصره مجلدان - قيل عنها - : لم يؤلف في العربية
أعظم من هذين الكتاين ولا أجمع ولا احصى للخلاف والأحوال . وغير ذلك
الكثير .

شعره : -

ولأبي حيان شعر جيد يجعله في عداد الحكماء نذكر منه قوله :
عداى لهم فضل على ومنة فلا اذهب الرحمن عنى الأعاديا
هو بحثوا عن زلتى فاجتنبتها وهم نافسونى فاكتسبت المعاليا
هذا وقد انتهت بأبي حيان الحياة بعد عمر مديد في خدمة القرآن وعلومه
وكانت وفاته بمصر سنة خمس وأربعين وسبعمائة للهجرة فرحم الله أبا حيان
ورضى عنه وجزاه خير الجزاء .



تفسير أبي حيان البحر المحيط ، والنهر الماد - ومنهجه فيها

لقد شغل أبو حيان زمنا مديدا بخدمة القرآن وعلوم اللغة حتى قارب الستين من عمره ثم تفرغ لتفسير القرآن بعد أن حصل ادوات المفسر العالم الذي أدرك مابه سعادته الابديه .

يقول أبو حيان في مقدمة البحر المحيط .

وبعد : فإن المعارف جمّة ، وهى كلها مهمة ، وأهمها مابه الحياة الأبدية ، والسعادة السرمدية ، وذلك علم كتاب الله هو المقصود بالذات ، وغيره من العلوم كالادوات ، هو العروة الوثقى ، والوزر الأوفى الأقوى ، والحبل المتين والصراط المستقيم - ومازال يختلج في ذكرى ويلع في فكرى أنى إذا بلغت الأمد الذى يتفضض فيه الأديم ، ويتنغص برؤيتى النديم ، وهو العقد الذى يحل عرى الشباب المقول فيه : إذا بلغ الرجل الستين فإياه وأيا الشراب ، الوذ بجانب الرحمن واقتصر على النظر في تفسير القرآن ، فأتاح الله لى ذلك قبل بلوغ العقد وبلغنى ماكنت أروم من ذلك القصد . . وكان ذلك فى أواخر سنة عشر وسبعمائة وهى أول سنة سبع وخمسين من عمري ، فعكفت على تصنيف هذا الكتاب . . فكم حوى من لطيفة فكرى مستخرجها ومن غريبة ذهنى منتجها ، تحصلت بالعكوف على علم العربية . .

وقد ذكر أبو حيان فى مقدمته على البحر المحيط منهجه فى هذا السفر الضخم الذى يقع فى ثمانى مجلدات كبيرة ينتفع بها الباحثون فى علوم القرآن على وجه العموم والباحثون فى علوم اللغة من نحو وصرف على وجه الخصوص يقول : -

وترتيبى فى هذا الكتاب : أنى ابتدأت أولا بالكلام على مفردات الآية

التي افسرها لفظة لفظة فيما يحتاج إليه من اللغة والاحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب ، واذا كان للكلمة معنيان او معان ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة لينظر مايناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيحمل عليه .

ثم أشرع في تفسير الآية ذاكرة سبب نزولها إذا كان لها سبب ونسخها ومناسبتها وارتباطها بما قبلها حاشدا فيها القراءات شاذها ومستعملها ذاكرة توجيه ذلك في علم العربية ناقلا أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها . متكلمة على جليها وخفيها بحيث أني لا اغادر منها كلمة وان اشتهرت حتى اتكلم عليها مبديا مافيا من غوامض الاعراب ودقائق الأدب من بديع وبيان مجتهدا أني لا أكرر الكلام في لفظ سبق في جملة تقدم الكلام عليها ولا في أية فسرت بل اذكر في كثير منها الحوالة على الموضع الذي تكلم فيه على تلك اللفظة أو الجملة أو الآية ، وأن عرض تكرير فزيد فائدة ناقلا أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم في الأحكام الشرعية مما فيه تعلق باللفظ القرآني مجيلا على الدلائل التي في كتب الفقه ، وكذلك ما ذكره من القواعد النحوية أجيل في تقريرها والاستدلال عليها على كتب النحو ، وربما اذكر الدليل إذا كان الحكم غريبا أو خلاف مشهور ما قال معظم الناس بادئا بمقتضى الدليل ومادل عليه ظاهر اللفظ مرجحا له لذلك ما لم يصد عن الظاهر ما يجب اخراجه به عنه منكبا في الاعراب عن الوجوه التي تنزه القرآن عنها مبينا أنه مما يجب أن يعدل عنه وأنه ينبغي أن يعدل إلى أحسن اعراب وأحسن تركيب إذ كلام الله تعالى افصح الكلام فلا يجوز فيه جميع ما يجوز النجاة في شعر الشماخ والطرماح وغيرهما من سلوك التقارير البعيدة والتراكيب القلقة والمجازات المعقدة ، ثم اختتم الكلام في جملة من الآيات التي فسرتها افرادا وتركيبا بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع ملخصا . ثم اتبع اخر الآيات بكلام منشور أشرح به مضمون تلك الآيات على ما اختاره من تلك المعاني ملخصا جملها في أحسن ملخص . وقد ينجر معها ذكر معان لم تتقدم في التفسير ، وصار ذلك نموذجا

لمن يريد أن يسلك فيما بقي من سائر القرآن وستقف على هذا المنهج الذي ذكرته
إن شاء الله . . . الخ .

ويقول أبو حيان عن منهجه في تفسيره الثاني المسمى :

(النهر الماد) والمطبوع بهامش البحر المحيط :

وبعد : فإني لما صنفت كتابي الكبير المسمى بالبحر المحيط في علم التفسير
عجز عن قطعه - لطوله - السبايح ، وتفلت له عن اقتناصه البارح منه
والسائح ، فأجريت منه نهرا تجري عيونه ، وتلتقى بأبكاره فيه عيونه لينشط
الكسلان في اجتلاء جماله ، ويرتوي الظمآن بارتشاف زلاله وربما نشأ في هذا
النهر مالم يكن في البحر ، وذلك لتجدد نظر المستخرج للآلية المبتهج
بالفكرة في معانيه ، وما اخليته من أكثر ماتضمنه البحر من نقوده ، بل
اقتصرت على يواقيت عقوده ، ونكبت فيه عن ذكر ما في البحر من أقوال
اضطربت بها الحجة واعراب متكلف تعاصرت عنه خججه ، وتفكيك اجزاء
يخرج بها الكلام عن براعته ويتجرد من فاخر بلاغته ونصاعته ، وهذا النهر
مده من بحر ليس له جزر فيعسر وزوده على من حظه في النحو نزر ، لأن
ادراك عويص المعاني مرتب على تقدم معرفة المباني :

ولما اثرت در هذا النهر من بحره ، ونثرت حليه على مفرق الزمان وجيده
ونحوه : سميته بالنهر الماد من البحر ، والله أسأل أن يعيننا على ذلك - ويلطف
بنا في الدارين هنا وهناك .



نموذج من تفسيره

البحر المحيط ، والنهر الماد (أولا : من البحر المحيط) :

فى قوله تعالى :

[وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ

لما ذكر تعالى - فى الآية السابقة - أن لكل وجهة يتولاها أمر نبيه أن يولى وجهه شطر المسجد الحرام من أى مكان خرج لان قوله :

[فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا - فَوَلِّ وَجْهَكَ] .

ظاهره أنه أمر له باستقبال الكعبة وهو مقيم بالمدينة فبين بهذا الأمر الثانى تساوى الحالىن اقامه وسفرا فى أنه مأمور باستقبال البيت الحرام ثم عطف عليه .

[وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ] .

ليبين مساواتهم له فى ذلك أى فى حال السفر والأولى فى حال الإقامة ، وقرأ عبد الله بن عمير (وَمِنْ حَيْثُ) بالفتح فتح تخفيف ، وقد تقدم القول فى حيث فى قوله (وَحَيْثُ مَا) .

[وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ] .

هذا اخبار من الله تعالى بأن استقبال هذه القبلة هو الحق أى الثابت الذى لا يعرض له نسخ ولا تبديل ، وفى الأول قال :

[وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ] .

حيث كان الكلام مع سفهائهم الذين اعترضوا في تحويل القبلة فرد عليه بأشياء منها :

إن علماءهم يعلمون أن تحويل القبلة حق من عند الله ، وختم آخر هذه الآية بما ختم به آخر تلك من قوله :

[وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ] .

(سورة البقرة الآية ١٤٤)

في امثال هذا التكليف العظيم الذى هو التحويل من جهة إلى جهة - وذلك هو محض التعبد فالجهات كلها بالنسبة إلى البارى تعالى مستوية فكونه خصها باستقبال هذه زمانا . ونسخ ذلك باستقبال جهة اخرى متأيدة لا يظهر فى ذلك فى بادئ الرأى إلا أنه تعبد محض فلم يبق فى ذلك إلا امثال ما أمره الله به فأخبره تعالى أنه لا يفعل عن أعمالكم - بل هو المطلع عليها المجازى بالتواب من امثال أمره - وبالعقاب من خالفه .

وجاء فى قوله (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) - فى المكانين - وفى قوله : (وَمَا اللَّهُ) - فى المكانين - فحيث نبه على استدلال حكمته بالنظر إلى أفعاله ذكر الرب المقتضى للنعم ، لينظر منها إلى النعم ونستدل بها عليه ولما انتهى إلى ذكر الوعيد ذكر لفظ الله المقتضى للعبارة التى من أدخل بها استحق اليم العذاب . . .

ويقول أبو حيان فى تفسيره الآية السابقة فى النهر الماد :

[وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ] لما امر باستقبال الكعبة وهو عليه السلام مقيم بالمدينة بين تساوى الحالين فى الإقامة والسفر وبين بقوله : [وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ] تساوى جهاتهم وحاله عليه السلام فى ذلك - وختم هذه الآية بما ختم تلك الآية السابقة مبالغة فى امثال هذا التكليف العظيم الذى هو تحويل من جهة إلى جهة وهو تعبد محض .

البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن لابن الزمكاف

إن الذين يكتبون عن زوايا من إعجاز القرآن يتعرضون تعرضا عميقا لتفسيره في كثير من آياته ، وهم في ذلك مفسرون من أعلى طبقات المفسرين .
ومن هؤلاء كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزمكافى المتوفى سنة ٦٥١ هـ صاحب كتاب : « البرهان » الكاشف عن أعجاز القرآن ، الذى نشرته مديرية الأوقاف بالعراق بتحقيق نفيس قامت به الدكتورة خديجة الحديثي والدكتور أحمد مطلوب .

والزمكافى نسبة إلى زمكان بدمشق .

وقد درس حتى أصبح اماما من أئمة اللغة والأدب ووصل به أمر الوظائف إلى أن تولى القضاء ، وهذا يدل على أنه مع ضربه بسهم نافذ في الأدب فإنه انغمس أيضا في الفقه فكان له قدم فيه . . .

وقد كتب عدة كتب منها : -

١ - التبيان .

ولقد اهتم مؤلفنا بإعراب القرآن الكريم ، فكتب كتاب :

٢ - المفيد في إعراب القرآن المجيد .

٣ - الخصائص النبوية

على أن كتب صاحب البرهان تدل على أنه اهتم اهتماما كاملا بالسيرة النبوية الشريفة فألف فيها كتاب « الخصائص النبوية » .

ولقد اجتذبت الخصائص النبوية كثيرا من المؤلفين ، منهم الإمام السيوطى الذى كتب كتابا ضخما في الخصائص ، وهو كتاب نفيس . . .

ويؤلف المؤلفون أيضاً في الخصائص تحت عنوان « الشماثل » .
ومن أشهر الكتب في ذلك كتاب « الشماثل » للترمذى .
وعنه يقول صاحب شذرات الذهب :

ابن الزملكاني العلامة كمال الدين عبد الواحد بن خطيب زملكا أبو محمد
عبد الكريم بن خلف الأنصاري السامري الشافعي صاحب علم المعاني
والبيان ، كان قوى المشاركة في فنون العلم خيراً متميزاً ذكياً سرياً ولى قضاء
صرخد ، ودرس مدة ببعلبك ، وله نظم رائق ، وهو جد الكمال الزملكاني
المشهور ، واسطة عقد البيت ، وتوفي عبد الواحد في المحرم بدمشق وكان له
ولد يقال له أبو الحسن علي ، امام جليل ، وافر الحرمة ، حسن الشكل ،
درس بالأمينية وتوفي في ربيع الأول سنة تسعين وستائة ، وقد نيف على
الخمسين .

وفيه يقول صاحب طبقات الشافعية :

عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف : الشيخ كمال الدين أبو المكارم ،
ابن خطيب زملكا .

قال أبو شامة : كان عالماً خيراً متميزاً في علوم عدة ، ولى القضاء
بصرخد ، ودرس ببعلبك .

قلت : وهو جد الشيخ كمال الدين محمد بن علي بن عبد الواحد
الزملكاني ، وكانت له معرفة تامة بالمعاني والبيان ، وله فيها مصنف ، وله
شعر حسن ، توفي في المحرم بدمشق سنة إحدى وخمسين وستائة . . .

ومع كثرة خوضه في التفسير وفي الفقه ، ومع كونه كان قاضياً معروفاً فإن
نزعة الأدباء إلى الشعر خصوصاً من كانت عنده الوهبة ، قد غلبت عليه ،
فكان يقول شعراً ، بل كان يبدأ كعادة الشعراء قصائده بغزل في غاية
العدوثة ، وفي بعض قصيدة له يقول :

اطرفك من هاروت يعقد لي سحراً اريقك أم طانوت يعصر لي خمراً

وما الفيش إلا أن أرى لك عاشقا
 جمالك يكسو كل حسن ملاحه
 غذارك لام كل صدقك صاده
 وفي فيك أم عقد اللآلى منظم
 أليس يبدع أن تصيد قلوبنا

وكان يقول الشعر في المدح ، ومن قصيدة له في مدح الوزير أبي الحسن

على الأمين : -

أسد فريسته أغائه مدنف
 جبل على الأبطال عند نزالهم
 السعد في نظراته ، والموت في
 عجباً أبا الحسن الوزير غضنفر
 ابت المكارم أن تجود لدهرها
 الصاحب الندب الجواد ومن له

أخنى عليه الدهر في تجواله
 يابويح من يدعى ليوم نزاله
 سطواته ، والفضل في أفعاله
 والخائفون امانهم بظلاله
 بمثاله ، ولغيره بخصاله
 شرف بمحتده وحسن فعاله

ومما ذكره الدكتور أحمد مطلوب من أهم آرائه التي عرضها في البرهان

مايلي :

١ - اختار الرأي القائل بأن البسمة من الفاتحة .

٢ - رد على أبي هلال العسكري في تعريف البلاغة وقال : إن الفصاحة من عوارض الألفاظ مع ملاءمة المعنى ، والبلاغة من عوارض المعاني وهو تكميل المعنى باللفظ الذي يفهمه من قولهم (بلغ كذا) إذا انتهى إليه ، فإن اللفظ إذا كمل معناه أوصله إلى القلب . . أو أنه من (بلغ الشيء في نفسه) إذا انتهى نهايته ، وبلغ حده . .

٣ - ذهب إلى ان الم تر؟ بمنزلة : « هل رأيت ؟ » وذكر الأدلة على

ذلك .

٤ - أنكر الترادف بين الألفاظ غير القديمة ، وأن من ادعى لها قدما فقد

زل قدما وسيعض بنانه يوم القيامة ندما ، كيف والقديم واجب الوجود لذاته لايقبل العدم ، ولايوصف بحلول في صدور البشر ، ولايلحن احد فيه بلسان أو قلم ، ولايضاف إلى لغة عرب ولاعجم . . .

والنموذج الذي نذكره مكون في الواقع من عدة نماذج ، فهو نص يتضمن عدة نصوص يتحدث فيه المؤلف من :

« أسباب التقديم والتأخير في الآيات القرآنية » .

يقول :

التقدم في اللسان تبع للتقدم في الجنان ، على ما سنيين أن الألفاظ تبع للمعاني والمعاني تتقدم باعتبارات خمسة :

الأول : تقدم العلة والسبب على المعلول والسبب ، كتقديم المضي على الضوء ، وليس تقدا بالزمان لأن جرم الشمس ينفك عن الضوء .

الثاني : التقدم بالذات كالواحد مع الاثني ، وليس الواحد علة لوجود الاثني بخلاف القسم الأول .

الثالث : بالشرف كتقدم الأنبياء (ﷺ) على الاتباع ، والعالم على الجاهل . . .

الرابع : بالرتبة ، كتقدم الامام على الماموم ، والجنس الأعلى على ماتحته إذا جعل مبدأ . . .

الخامس : بالزمان ، كالأبعد من الان مع الاقرب إليه ، ومنه تقدم الوالد على الولد ، فإن الوالد وجد في زمان لم يكن فيه الولد موجودا . . .

فما كان من المعاني مقدما على غيره بأحد هذه الاعتبارات أو بأكثرها كان في العبارة كذلك . . .

ومن التقدم بالزمان : « وعادا وثمود وقد تين لكم من مساكنهم » .

ومنه : [وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورَ] . (سورة الانعام الآية ١) .

فإن الظلمة سابقة على النور في الإحساس ، وكذلك الظلمة المعنوية سابقة على النور الوالد يؤيده قوله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم صب عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن اخطأ ضل » .

ومنه قوله تعالى :

[والله أنخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والافتدة] .

فانتفاء العلم ظلمة ، وهي متقدمة بالزمان على نور الإدراكات . . .
وقوله تعالى : « في ظلمات ثلاث » إشارة إلى ظلمة الرحم ، وظلمة البطن ، وظلمة المشيمة . . .

وقيل : ظلمة الصلب والرحم والبطن . . . فهذه ظلمات ثلاث محسة .
وفي الآية الأولى : ظلمات ثلاث معقولة : فقد السمع والبصر والفهم . . .

ومن التقدم بالذات قوله تعالى : « مثني وثلاث ورباع » .
ونحوه : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » . . . الآية ، وكذلك مراتب العدد ، فكل مرتبه هي ادنى من الأخرى ، فهي متقدمة على ما فوقها .

ومن التقدم بالسبب « العزيز » على « الحكيم » ، لأنه إذا عز حكم .
ومنه : « يحب التوايين ويحب المتطهرين » ، فإن التوبة سبب للطهارة . . .
وكذلك : « كل أفاك أثيم » فإن الأفاك سبب للأثيم ، وكذلك « معتد أثيم » .

ومن التقدم بالرتبة قوله تعالى :

[يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ]

(سورة الحج الآية ٢٧)

فإن الذين يأتون رجالا الغالب انهم يكونون من المكان القريب ، والأتیان على الضامر ان يكون من مكان بعيد على أنه قد ورد عن ابن عباس (رضي الله عنها) :

« وددت أني لو حججت راجلا ، فإن الله قدم الرجالة على الركبان في القرآن ، .

فجعله من باب التقدم بالفضيلة والشرف ، والمعنيان موجودان عند كثير من العلماء . . .

وقوله تعالى :

[هُمَا زِمَاءٌ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ] .

(سورة ن الآية ١١)

وذلك لا يفتقر إلى مشي بخلاف النيمة فإنها نقل للحديث من مكان إلى مكان عن شخص إلى شخص .

ومن التقدم بالشرف قوله عز و علا :

[فَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرءوسِكُمْ وَأرجلكم إِلَى الكَعْبَيْنِ] :

(سورة المائدة الآية ٦)

فإن الوجه اشرف بالنسبة إلى أعضاء البدن ، واليدان اشرف باعتبار الأعمال ، والبدن سابق على عمله ، والرأس اشرف من الرجلين لاشتماله على

القوى الراكبة وهى القوى المدركة والحافظة والحافظة ، وذلك من عالم الغيب
لامن عالم الشهادة . . فلا جرم تأخر عن الوجه واليدين إذ قواهما تظهر - فى
عالم المشاهدة من الابصار والذوق والنطق . .

ومن التقدم بالشرف قوله تعالى : « من النبيين والصدّيقين » . .

ومنه تقديم السمع على البصر ، وسميع على بصير ، لأن السمع يدرك
أخبار الأوائل والأواخر واحكام الآخرة . . وأيضا يدرك ما غاب وحضر ،
والبصر إنما يتعلق بالحاضر فكان ادراك السمع أعم ، والأعم ابدا قبل
الأخص بالرتبة . . وقد جعل تقديم الجن على الانس من التقديم بالشرف
لاشتمال الجن على الملائكة ، وقال سبحانه : « وجعلوا بينه وبين الجنة
نسبا » .

وقال الأعشى :

وسخر من جن الملائك سبعة قياما لديه يعملون بلا أجر

ونحوه قوله تعالى :

[لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ] .

(سورة الرحمن الآية ٧٤) .

وقوله : [فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ] . .

(سورة الرحمن الآية ٣٩)

وقوله تعالى :

[وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا] .

(سورة الجن الآية ٥)

الجن فى ذلك كله لا يتناول الملائكة لتراهم عن العيوب ، ولايتوهم
عليهم الكذب وسائر الذنوب ، فلما لم يتناول الملائكة عموم لفظ الجن بدأ
بالآتى لفضلهم . .

الإمام ابن تيمية ومنهجه في التفسير

هو الإمام أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية ، المولود بجران من بلاد الشام في
عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١ ، وقد أقام بها بضع سنين ثم انتقل منها إلى دمشق
مع أبيه وأخويه سنة ٦٦٧ تحت ضغط هجوم التتار .

نشأ في دمشق ، وترعرع بها ، ثم بلغ أشده حتى أصبح من المشهورين ،
ونهل من شتى أنواع العلوم والمعارف الدينية في عصره ، ووصف ابن الوردي
نشأته العلمية فقال :

انه بعد أن تعلم الخط والحساب ، وحفظ القرآن في المكتب ، أقبل على
الفقه والعربية ، وبرع في النحو ، ثم أقبل على التفسير اقبالا كلياً حتى سبق
فيه ، وأحكم أصول الفقه .

ثم يقول ابن الوردي :

ونشأ في تصون تام ، وعفاف وتعبد ، واقتصاد في الملبس والمأكل ،
ومارس المناظرة في صغره ، وكانت له دراية واسعة بالسنة وفنونها مما ساعده
على الاستدلال على آرائه ومعارضة آراء الخصوم .

وبالجملة جمع إلى المنقول المعقول فكان من كبار العلماء .

تحدث المؤرخ كمال الدين بن الزملكاني عنه فقال :

كان إذا سئل عن فن من الفنون ظن الرأي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك
الفن ، وحكم أن أحدا لا يعرف مثله ، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا
جلسوا معه استفادوا في سائر مذاهبيهم منه ما لم يكونوا يعرفونه من قبل .

ولقد كثرت الثناء عليه قديما وحديثا كما كثرت في حقه الانتقاد ، فاغرم به

معجبون لا يصدرون إلا عن رأيه ويتعصبون لكل ما يصدر عنه ، ووقف في وجهه اعداء في حياته وبعد موته ، كرهوه وكرهوا كل ما يصدر عنه ، وتوسط منصفون فأعطوه حقه ، وقرءوه في انصاف فزيفوا مازاف ، واثبتوا ما يمكث في الأرض ، فكانوا مع الحق ، عنه يصدرون ، وعلى ضوئه يسرون .

جهاده السياسي : -

ولقد سخر ابن تيمية نفسه وعلمه لخدمة الحركة الكبرى للمسلمين ضد عدوهم الخطير « التتار » لقد تقدم بنفسه لمفاوضة ملك التتار ، واستطاع ان يأخذ منه الامان ، وهجم التتار مرة ثانية على الشام ففرغ الناس ، فكان ممن ثبت النفوس وساعد على رياضة القلوب بمواعظه المؤثرة ، وكلماته الحكيمة ، ولقد شهد معركة مع التتار في رمضان تحقق فيها النصر للمسلمين .

نقد ابن تيمية : -

لقد انتقد بعض العلماء ابن تيمية لجرأته لرأيه ومهاجمة رأى خصمه ، ولقد كان في تحمسه في هذه المهاجمة يتعد عن الحق احيانا غير متأن ، أو مترو ، ولو تأنى ، أو تروى لتيز له الأمر على حقيقته . ويؤخذ عليه أنه يتعصب لفكرته في الصفات ، والأستواء على العرش ، وهي ليست على منهج السلف الذين يتعدون عن الجدل في صفات الله ، مقتنعين بحق أنها من - المتشابه الذي نهينا عن البحث فيه ، وهذا الجدل في الصفات قد آثار عليه الكثير من كبار علماء الإسلام من المحدثين الذين يتبعون مذهب السلف ، ومن المتكلمين الذين يتبعون مذهب الخلف .

ويؤخذ عليه اسهابه المسهب في توضيح رأيه واكثاره من الاستدلال والتكرار فيما يستدل عليه وانطلاقه مع فكرته في اسلوب عنيف جارف يستميل العامة ، ولا يستسيغه كثير من الخاصة .

ومما أخذته عليه كثير من الناس حملته على الصوفية ، هذه الحملة التي يمدحها كثير من أصحابه والحق أن هؤلاء وأولئك لم يدرسوا ابن تيمية في هذا الجانب دراسة عميقة ، وذلك أن ابن تيمية يقدر الامام عبد القادر الجيلاني ، ويشرح كثيرا من فقراته مثنيا ومادحا . .

والإمام الجيلاني هو التصوف كله ، فلا يكاد يخرج رأى في التصوف إلا وله فيه باع طويل .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاواه ج ١١ ، ص ١٧ في تحديد معنى الصوفى : « هو في الحقيقة نوع من الصديقين ، فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه ، والصوفيون قد يكونون من أجل الصديقين بحسب زمانهم فهم من أكمل صديقي زمانهم ، والصديق في العصر الأول أكمل منهم ، والصديقون درجات وأنواع » .

ويقول ابن تيمية أيضا : « ولأجل ما وقع من كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه تنازع الناس في طريقتهم فطائفة ذمت الصوفية ، والتصوف وقالوا أنهم مبتدعون خارجون على السنة وطائفة غالت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء وكلا طرفي هذه الأمور ذميم والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل الطاعة ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين وفي كل من النوعين من قد يجتهد فيخطئ وفيهم من يذنب فيتوب أولا يتوب .

(تفسير ابن تيمية)

كان لابن تيمية فهم ممتاز في كتاب الله ، ولم يؤلف تفسيراً خاصاً ، بل نثر تفسيره في ثنايا كتبه وفتاواه ورسائله ، وكتب ما كتبه منه في أوقات مختلفة بحسب المناسبات وقد قام جامع فتاواه عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الجنيدى الحنبلى ، يجمع ما كتبه في مجال التفسير في المجلد الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، من مجموع فتاوى ابن تيمية فلم تخل سورة من تناول ابن تيمية لآية أو آيات منها مما يسهل لنا فهم منهجه في التفسير والبحث عن مطابقة هذا المنهج لما قام بتفسيره .

منهجه في التفسير : -

قسم ابن تيمية التفسير إلى نوعين : -

تفسير بالنقل ، وتفسير بالعقل .

أما عن التفسير بالنقل فذكر أن النبي ﷺ فسر القرآن كله للصحابة .

قال تعالى :

[وَأَنْزَلْنَا الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ] .

(سورة النحل الآية ٤٤)

وذكر أن الصحابة فسروا القرآن للتابعين ، وتحدث عن قلة الاختلاف بين الصحابة في التفسير ، ثم شاع الخلاف بعد عصرهم شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى حالة من التضاد والتناقض .

ويرى ابن تيمية أن الخلاف بين السلف في التفسير هو اختلاف تنوع

لا اختلاف تضاد كاختلافهم في تفسير الصراط المستقيم حيث قال بعضهم هو القرآن .

وقال بعضهم : هو الإسلام ، والقولان متفقان ، لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن ولكن كل واحد منها نبه على وصف غير الوصف الآخر ، وكذلك قول من قال هو السنة والجماعة وقول من قال : هو طريق العبودية ، وقول من قال هو طاعة الله ورسوله ﷺ وامثال ذلك فهؤلاء كلهم اشاروا إلى ذات واحدة ، يقصد اتباع القرآن ، لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها .

ويرى ابن تيمية أن احدا من علماء المسلمين لم يقل باختصاص اللفظ العام الوارد بسبب حادث معين بهذا الحادث ، وان الاختلاف إنما هو في اختصاص هذا اللفظ بنوع ذلك السبب وما يشابهه أو شموله لكل ما يتناوله اللفظ .

فمثلا روى أن قوله تعالى :

[وَأَنَّ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ] .

(سورة المائدة الآية ٤٩)

نزل في بني قريظة والنضير ، واللفظ عام ليس فيه اختصاص : فهل يشمل هذا القول ما يماثل سبب النزول فقط ، أو يعم كل حكم ، وكل حاكم على مدى الزمان .

ولم يقل أحد بتعطيل الآية ، أو الوقف عن الأخذ بها بعد زوال سببها وهم بنو قريظة وبنو النضير ، أو بعد زوال الوقت الذي نزلت فيه .

وقد تحدث ابن تيمية عن استطراد كثير من المفسرين بالنقل ، فيما يفيد ولا دليل على الصحيح منه مثل اختلافهم في لون كلب اصحاب الكهف ومقدار سفينة نوح ونوع خشبها ونحو ذلك - ويبين ان ما كان من هذا القبيل طريقه النقل الصحيح عن الرسول ﷺ فهو مقبول كالعلم بأن اسم صاحب

موسى الخضر وان كان عن غير طريق صحيح إلى الرسول ﷺ رددنا ما قطعنا
بكذبه وتوقفنا فيما صحح عن أهل الكتاب لقوله ﷺ :

لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بما أنزل إلينا وما أنزل
إليكم وإلها والهكم واحد ونحن له مسلمون .

ثم يتحدث ابن تيمية عن القسم الثاني من التفسير وهو التفسير بالعقل
فيقول : ان في هذا اللون من التفسير خطأ وهذا الخطأ له وجهان : -

الأول : - قوم اعتقدوا معاني ثم ارادوا حمل الفاظ القرآن عليها فراعوا
المعنى الذى رأوه واعتقدوه من غير نظر إلى ما استحقه الفاظ القرآن من الدلالة
والبيان ، يريد انهم يحلوا من كل ماورد مما يتصل بالآية كسبب النزول
والناسخ والمنسوخ والبيان النبوى لكثير من الآيات .

الثانى : - قوم فسروا القرآن بمجرد ما يفيد اللفظ العربى من غير نظر إلى
منزل القرآن والمنزل عليه والمخاطب به فراعوا جانب اللفظ وتركوا ما عداه وكل
من الطريقتين الآخرين فيما يرى ابن تيمية خطأ وأحسن طرق التفسير في نظره
تفسير القرآن بالقرآن فإن لم يتيسر ذلك فسرناه بالسنة فإنها شارحة للقرآن
وموضحة له ، قال الشافعى رحمه الله : كل ما حكم به الرسول ﷺ فهو بما
فهمه من القرآن - وهذا قال ﷺ .

« الا انى اوتيت القرآن ومثله معه » أى السنة والسنة ايضا تنزل عليه
بالوحي كما ينزل القرآن لا انها لا تتلى كما يتلى .

واذا لم يتيسر التفسير بالقرآن والسنة رجعنا الى اقوال الصحابة لاسيما
كبرائهم وعلمائهم كالخلفاء الراشدين وابن مسعود وابن عباس وغيرهم .

فهم الدين شاهدوا التنزيل وعاصروا اسباب النزول وعرفوا الناسخ من
المنسوخ وتلمسوا الجوانب المحيطة بالقرآن والمعانى التى اشار اليها الرسول ﷺ
وهم انصر الناس فيها واقدرهم على الاجتهاد والاستنباط .

فإن لم نجد التفسير في أقوال الصحابة آخرها اجمع عليه التابعون ثم
تخيرنا فيما روى عنهم ثم لجأنا إلى الاجتهاد بالرأى في حدود المنهج المقبول .
وهذا المنهج الذى رسمه ابن تيمية للتفسير منهج سلفى لا مجال للطعن فيه .
ولكن ابن تيمية في تفسيره قد ابتعد في بعض الأحيان عن هذا المنهج
واليك نموذجاً من تفسيره :

سئل رضى الله عنه عن قوله تعالى :
[ثُمَّ قَضَى أَجْلاً وَأَجْلاً مُّسَمًّى عِنْدَهُ] .

(سورة الانعام الآية ٢١)

وقوله تعالى :

[وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ] .

وقوله تعالى : « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ
الْكِتَابِ » .

(سورة الرعد الآية ٣٩)

هل المحو الاثبات في اللوح المحفوظ والكتاب الذى جاء في الصحيح (ان
الله تعالى كتب كتاباً فهو عنده على عرشه) الحديث .

وقد جاء : « جف القلم » فما معنى ذلك في المحو والاثبات ؟

وهل شرع في الدعاء ان يقول : « اللهم ان كنت كتبتى كذا فاعنى
واكتبى كذا فانك قلت : « يحو الله ما يشاء ويثبت » .

وهل صح ان عمر كان يدعو بمثل هذا ؟ وهل الصحيح عندكم ان العمر
يزيد بصلة الرحم كما جاء في الحديث ؟ افتونا ماجورين .

فأجاب رضى الله عنه : الحمد لله رب العالمين .

أما قوله سبحانه : [ثُمَّ قَضَى أَجْلاً وَأَجْلاً مُّسَمًّى عِنْدَهُ]

فالأجل الأول هو أجل كل عبد الذى ينقضى به عمره ، والأجل المسمى عنده هو أجل القيامة العامة .

ولهذا قال : « مسمى عنده » فإن وقت الساعة لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل ، كما قال : يسألونك عن الساعة إيان مرساها ؟ قل : انما علمها عند ربي ، لا يجليها لوقتها إلا هو بخلاف ما إذا قال مسمى .

كقوله : « إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى » إذ لم يقيد بأنه مسمى عنده ، فقد يعرفه العباد وأما أجل الموت فهذا تعرفه الملائكة الذين يكتبون رزق العبد وأجله وعمله ، وشقى أو سعيد كما قال فى الصحيحين عن ابن مسعود : أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه اربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث إليه الملك ، فيؤمر بأربع كلمات فيقال ، اكتب رزقه ، وأجله وعمله ، وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فهذا الأجل الذى هو أجل الموت قد يعلمه الله لمن شاء من عباده .

وأما أجل القيامة المسمى عنده فلا يعلمه إلا هو .

وأما قوله : [وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ] فقد قيل

ان المراد الجنس أى ما يعمر من عمر انسان ، ولا ينقص من عمر انسان ، ثم التعمير والتقصير يراد به شيان :

« أحدهما » أن هذا يطول عمره ، وهذا يقصر عمره ، فيكون تقصيره نقصاً له بالنسبة إلى غيره ، كما ان المعمر يطول عمره ، وهذا ينقص عمره ، فيكون تقصيره نقصاً له بالنسبة إلى غيره . كما ان التعمير زيادة بالنسبة الى آخر .

وقد يراد بالنقص من العمر المكتوب ، كما يراد بالزيادة الزيادة فى العمر المكتوب . وعن النبي ﷺ انه قال : « من سره ان يبسط له فى رزقه ،

وينسأله في اثره فليصل رحمه » وقد قال بعض الناس : ان المراد به البركة في العمر ، بأن يعمل في الزمن القصير مالا يعمله غيره إلا في الكثير ، قالوا : لأن الرزق : والأجل مقدران مكتوبان .

فيقال لهؤلاء تلك البركة . وهي الزيادة في العمل ، والنفع هي أيضا مقدره مكتوبة وتتناول لجميع الأشياء .

والجواب المحقق : ان الله يكتب للعبد اجلا في صحف الملائكة فإذا أوصل زاد في ذلك المكتوب وان عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك الكتاب .

ونظير هذا ما في الترمذى وغيره عن النبي ﷺ :

ان ادم لما طلب من الله ان يريه صورة الأنبياء من ذريته فأراه اياهم ، فرأى فيهم رجلا له بصيص ، فقال : من ذا يارب ؟ فقال : ابنك داود . قال : فكم عمره ؟ قال اربعون سنة . قال : وكم عمري ؟ قال : ألف سنة . قال : فقد وهبت له من عمري ستين سنة . فكتب عليه كتاب ، وشهدت عليه الملائكة ، فلما حضرته الوفاة قال : قد بقي من عمري ستون سنة . قالوا : وهبتها لابنك داود . فأنكر ذلك : فأخرجوا الكتاب ، قال النبي ﷺ ففسى ادم ففسيت ذريته : جحد ادم فجحدت ذريته ، وروى انه كمل لادم عمره ولداود عمره

فهذا داود كان عمره المكتوب اربعين سنة ، ثم جعله ستين ، وهذا معنى ما روى عن عمر انه قال : اللهم ان كنت كتبتني شقيا فاحني واكتبني سعيدا فإنك تمحو ما تشاء وتثبت . والله سبحانه عالم بما كان وما يكون ، ومالم يكن لو كان كيف كان يكون فهو يعلم ما كتبه له وما يزيد به اياه بعد ذلك والملائكة لا علم لهم إلا ما علمهم الله والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها .

فلهذا قال العلماء : ان المحو والاثبات في صحف الملائكة ، وأما علم الله سبحانه فلا يختلف ولا يبدله مالم يكن عالما به ، فلا محو فيه ولا اثبات . وأما اللوح المحفوظ فهو فيه محو واثبات على قولين . والله سبحانه وتعالى

أعلم .

ابن جزى وكتابه التسهيل

أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن جزى الكلبي الغرناطي من مشاهير العلماء بغرناطة ، وذوى الأصالة والنباهة فيها .

كان رحمه الله على طريقة مثلى من العكوف على العلم ، والاشتغال بالنظر والتقيد والتدوين ، جمع إلى الفقه جودة الحفظ واتقان التفسير ، وشارك في كثير من الفنون كالعربية والأصول والقراءات بالحديث والأدب ، وجمع في مكتبه العديد من الكتب المفيدة والمراجع المهمة ، وتولى الخطابة بالمسجد الأعظم في بلده على حداثة سنه ، فاتفق على فضله واشتهر جده وعلمه . . . وكان رحمه الله مستغرقا في همه ، وهمه بلوغ القمة في علوم الشريعة ، وتحصيل ما يستطيع تحصيله ، وبث ذلك في الناس ونشره ، ومما يعبر عن ذلك قوله :

لكل بنى الدنيا مراد ومقصد وان مرادى صحة وفراغ
لأبلغ في علم الشريعة مبلغا يكون به لى في الحياة بلاغ
ففى مثل هذا يسترىد اولوا النهى وحسبى من الدنيا الغرور بلاغ
فما العيش إلا فى نعيم مؤبد به العيش رغد والشراب يساغ
قرأ على الأستاذ أبى جعفر بن الزبير واستفاد منه فى العربية والفقه
والحديث والقراءات وعلى أبى عبد الله بن العماد ، ولزم الحافظ بن رشيد ،
ولازم الخطيب الفاضل أبى عبد الله بن برطال والأستاذ النظار المتفنن أبى القاسم
قاسم بن عبد الله . . .

وقد انتج ابن جزى فى مجال نشاطه كثيرا من المؤلفات منها :

الأنوار السنية فى الكلمات السنية .

الدعوات والأذكار المخرجة من صحيح الأخبار .

التنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنابلة .

تقريب الوصول إلى علم الأصول .

أصول القراء الستة غير نافع .

المختصر البارح في قراءة نافع .

القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية .

الفوائد العامة في لحن العامة .

النور المين في قواعد عقائد الدين .

ومن معالم شخصيته المميزة حبه للرسول ﷺ ، ويعبر عن ذلك قوله :

أرجم امتداح المصطفى فيردني قصورى عن ادراك تلك المناقب
ولو ان كل العالمين تألفوا على مدحه لم يبلغوا بعض واجب
فأمسكت عنه هيبة وتأدبا وخوفا وإعظاما لارفع جانب
ورب سكوت كان فيه بلاغة ورب كلام فيه عتب لعاتب

وكان رحمه الله من المجاهدين المحارين ، فكان يحرض الناس يوم معركة
طريف ، ومات شهيدا في جمادى الأولى سنة احدى وأربعين وسبعمائة .

* * *

تفسيره

قدم ابن جزى للتفسير بمقدمة جليلة فقال بعد الحمد والثناء :

أما بعد ، فإن علم القرآن العظيم هو ارفع العلوم قدرا ، واجلها خطرا ،
وأعظمها اجرا واشرفها ذكرا ، وان الله انعم على بأن شغلنى بخدمة القرآن
وتعلمه وتعليمه ، وشغفنى بتفهم معانيه ، وتحصيل علومه ، فاطلعت على

ما صنف العلماء رضى الله عنهم في تفسير القرآن من التصانيف المختلفة الأوصاف ، المتباينة الاصناف ، فمنهم من اثار الاختصار ومنهم من طول حتى كثر الأسفار ، ومنهم من تكلم في بعض العلم دون بعض ، ومنهم من اعتمد على نقل أقوال الناس ، ومنهم من عمل على النظر والتحقيق والتدقيق ، وكل احد سلك طريقا نجاه ، وذهب مذهبا ارتضاه ، [وكلاً وَعَدَّ اللَّهُ

الْحُسْنَى] (سورة الحديد الآية ١٠) ، فرغبت في سلوك طريقهم والانحراط في مساة. فريقيهم ، وضنفت هذا الكتاب في تفسير القرآن العظيم ، - وسائر ما يتعلق به من العلوم وسلكت مسلكا نافعا ، إذ جعلته جيزا جامعا ، قصدت به اربعة مقاصد تتضمن اربع فوائد :

الفائدة الأولى : جمع كثير من العلم في كتاب صغير الحجم ، تسهلا على الطالبين وتقريبا على الراغبين ، فلقد احتوي هذا الكتاب على ماتضمنته الدواوين الطويلة من العلم ولكن بعد تلخيصها ، وتنقيح فصولها ، وحذف حشوها وفصولها ، ولقد اودعته من فن من فنون علم القرآن اللباب المرغوب فيه ، دون القشر المرغوب عنه ، من غير افراط ولا تفريط ثم انى عزمت على ايجاز العبارة ، وافراط الاختصار ، وترك التطويل والتكرار . .

الفائدة الثانية : - ذكر نكت عجيبة ، وفوائد غريبة ، قلما توجد في كتاب ، لأنها من نبات صدرى وينايع ذكرى ، وما أخذته عن شيوخى رضى الله عنهم ، أو مما التقطته من مستطرفات النوادر الواقعة في غرائب الدفاتر . .

الفائدة الثالثة : - ايضاح المشكلات ، اما بجمل العقد المقفلات ، واما بحسن العبارة ورفع الاحتمالات ، وبيان الجملات .

الفائدة الرابعة : تحقيق أقوال المفسرين ، السقيم منها والصحيح ، وتمييز الراجع من المرجوح وذلك ان أقوال الناس على مراتب : فمنها الصحيح الذى يعول عليه ، ومنها الباطل الذى لا يلتفت إليه ، ومنها ما يحتمل الصحة

والفساد ، ثم ان هذا الاحتمال قد يكون مساويا أو متفاوتا والتفاوت قد يكون قليلا أو كثيرا ، واني جعلت لهذه الأقسام عبارات مختلفة ، - تعريفها كل مرتبة وكل قول ، فادناها ما صرح بأنه خطأ أو باطل ، ثم ما أقول فيه أنه ضعيف أو بعيد ، ثم أقول أن غيره أرجح أو أقوى ، أو اظهر أو اشهر ، ثم ما أقدم غيره عليه اشعارا بترجيح المتقدم أو بالقول فيه : قيل كذا قصدا للخروج من عهده ، واما صرحت باسم قائل القول فاني افعل ذلك لاحد امرين :

اما للخروج عن عهده ، واما لنصرته إذا كان قائله ممن يقتدى به .
ثم قال : وسميته « كتاب التسهيل لعلم التنزيل » وقدمت في أوله مقدمتين : أحدهما : في أبواب نافعة ، وقواعد كلية جامعة ، والآخري فيها كثر دوره من اللغات الواقعة ثم قدم لكتايه مقدمات :

المقدمة الأولى : فيها اثنا عشر بابا .

الباب الأول : في نزول القرآن على رسول الله ﷺ من أول ما بعثه الله بمكة وهو ابن اربعين سنة إلى ان هاجر إلى المدينة ثم نزل عليه بالمدينة إلى ان توفاه الله .

الباب الثاني : - في السور المكية والمدنية .

الباب الثالث : - في المعاني والعلوم التي تضمنها القرآن .

الباب الرابع : - في فنون العلم التي تتعلق بالقرآن .

الباب الخامس : - في أسباب الخلاف بين المفسرين ، والوجوه التي يرجح بها بين أقوالهم .

الباب السادس : - في ذكر المفسرين .

الباب السابع : - في النسخ والمنسوخ .

الباب الثامن : - في جوامع القراءة .

الباب التاسع : - في الوقف .

الباب العاشر : - في الفصاحة والبلاغة وادوات البيان .

الباب الحادى عشر : - في اعجاز القرآن واقامة الدليل على انه من عند الله عز وجل .

الباب الثانى عشر : - في فضل القرآن .

المقدمة الثانية : - في تفسير معانى اللغات أى الكلمات التى يكثر ورودها فى القرآن أو تقع فى موضعين فأكثر من الأسماء والأفعال والحروف . وكان فى كل ذلك سالكا سبيل الاختصار ، مكتفيا بالتركيز عن الاطالة ، ممهدا الطريق لبدء تفسير الآيات ، فاشتملت المقدمة على كثير مما حال الاختصار دون ذكره فى تفسير الآيات ، وحقق بها ما يمكن ان يضم إلى الكتب المؤلفة فى كل فن من الفنون التى اشتملت عليها .

ومن نماذجه : قال تعالى :

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا
تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَّا تَيْمُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ
وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا
وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا]

(سورة النساء الآية ١٩)

[لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ] قال ابن عباس :

كانوا فى الجاهلية إذا مات الرجل كان اولوالحق بامراته ان شاءوا تزوجها احدهم وان شاءوا زوجوها من غيرهم ، وان شاءوا منعوها التزوج ، فنزلت الآية فى ذلك ، فعنى الآية على هذا : لا يحل لكم ان تجعلوا النساء يورثن عن الرجال كما يورث المال .

وقيل : الخطاب للازواج الذين يمسون المرأة في العصمة ليرثوا مالها من غير غبطة بها .

وقيل الخطاب للاولاد الذين يمنعون امهاتهم من التزوج ليرثوهن دون الزوج .

ولاعتضلوهن : معطوف على ان ترثوا او نهى ، والعصل المنع ، قال ابن عباس : هي أيضا في اولياء الزوج الذين يمنعون زوجته من التزوج بعد موته ، إلا أن قوله « مَاآتَيْتُمُوهُنَّ » على هذا معناه ماآتاها الرجل الذي مات .

وقال ابن عباس : هي في الأزواج الذين يمسون المرأة ويسيتون عسرتها حتى تفتدى صداقها وهو ظاهر اللفظ في قوله « مَاآتَيْتُمُوهُنَّ » ويقول « وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ » فإن الاظهر فيه ان يكون في الأزواج ، وقد يكون في غيرهم . . . وقيل للأولياء . . .

[إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ] : قيل الفاحشة هنا الزنا ، وقيل نشوز المرأة وبغضها في زوجها ، فإذا نشزت جاز له ان يأخذ ماآتاها من صداق أو غير ذلك من مالها ، وهذا جائز على مذهب مالك في الخلع إذا كان الضرر من المرأة ، والزنا أصعب على الزوج من النشوز فيجوز له أخذ الفدية . . .

[فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ] الآية . . . معناها ان كرهتم النساء لوجه فاصبروا فعسى ان يجعل الله الخير في وجه آخر . . .

وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : لا يترك مؤمن مؤمنة ، ان سخط منها خلقا رضى آخر . . .

• • •

الإمام النسفي وتفسيره

من علماء المذهب الحنفي المشهورين ، ومن لهم قدم راسخ في كثير من العلوم ، المفسر الشهير ، والعالم النحرير ، حافظ الدين أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي المنسوب الى نَسَف ببلاد السند بين جيحون وسمرقند .

كان عالما بالفقه وأصول الدين وأصول الفقه والتفسير وامتازت مؤلفاته بجودة التحرى ودقة التعبير وشدة التركيز وحشد المعلومات المتنوعة في حيز بسيط حتى ليعسر على غير المتخصص الأخذ عنها ، وفهم كل ما يشير اليه .

وقد استفاد من شتى طرق البحث السابق عليه فخرج بين استدلالات المتكلمين وجدل الأصوليين واستنباط الفقهاء متميزا بطريقته الخاصة في التأليف . كما استفاد من شيوخه المشاهير ومنهم شمس الأئمة الكردي ، وأحمد ابن محمد العتابي وغيرهم من كبار العلماء المتخصصين .

مؤلفاته :

للإمام النسفي مؤلفات طبع أكثرها ، وأخذ مجاله في سوق العلم حتى اشتهر كمفسر ، وأشتهر كفقيه ، وأشتهر كباحث في أصول الدين وباحث في أصول الفقه . . . ومن هذه المؤلفات :

- ١ - عمدة العقائد في الكلام .
- ٢ - شرح عمدة العقائد وسماه الاعتماد .
- ٣ - منار الأنوار في أصول الفقه .
- ٤ - الكافي في شرح الوافي في الفقه الحنفي .
- ٥ - كثر الدقائق في الفقه الحنفي .

صفاته :

كان الامام النسفي على نسق غيره من كبار العلماء المسلمين مشهوراً بالزهد والصلاح والتقوى ، فضلا عن تفرغه للعلم والدراسة والبحوث وقد اشتهر علمه وذاع فضله في عصره وبعد عصره وبارك الله في مؤلفاته ، فأصبحت مرجع الباحثين ، ومجال البحث والدراسة بين الدارسين ، لما فيها من تدقيق وتحقيق ، واكتفاء بالإشارة عن التفصيل ، وبالإيجاز عن الاطناب .

وقد قدره العلماء حق قدره ، فقد كتب عنه صاحب (الدرر الكامنة) فوصفه بهذه الكلمة المدوية (علامة الدنيا) .

وكتب عنه الحافظ عبد القادر في طبقاته فقال :

« أحد الزهاد المتأخرين ، صاحب التصانيف المفيدة في الفقه والأصول ، له المستصفي في شرح المنظومة ، وله شرح النافع سماه بالمنافع ، وله الكافي في شرح الوافي ، وله كنز الدقائق ، وله المنار في أصول الفقه ، وله العمدة في أصول الدين ، تفقه على شمس الأئمة الكردي ، وروى الزيادات عن أحمد بن محمد العتابي . . . »

والنسفي باعتباره من أئمة أهل السنة كان له مواقف في غاية القوة ، وفي غاية العمق ، في الرد على كل انحراف في تفسير القرآن ، وخصوصا تفسير الكشاف . . . ، ولم يقتصر في الرد على المعتزلة على ما كتبه عن تفسير الكشاف ، وإنما فعل ذلك في كل كتبه الكلامية التي كانت لقيمتها الكبرى مجال اهتمام في رحاب الأزهر ، قررت على الطلبة في مختلف مراحل التعليم ، وقام الأساتذة باختصارها ، وبشرحها ، وبالتعليق عليها مستفيدين منها ، ومفيدة للغير بها - والله سبحانه وتعالى يقول :

[وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ] . سورة يس الآية ١٢

وان آثار الامام النسفي في الخير هائلة .

وفاته :

وكانت وفاة الأمام النسفي رحمه الله عام واحد وسبعمائة من الهجرة ببلدة

ابذج بين خوزستان واصبهان .

رحمه الله ونفع بعلمه . .

تفسير النسفي

سماه الأمام النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ويعتبر هذا التفسير من التفاسير العلمية المحررة ، ليس بالطويل الممل ، ولا بالقصير المحمل . وقد تحدث الأمام النسفي عن السبب الذي دعاه إلى تأليف هذا التفسير فقال :

(سألني من تتعين أجابته كتابا وسطا في التأويلات ، جامعا لوجوه الاعراب والقراءات ، متضمنا لدقائق علمي البديع والاشارات ، حاليا بأقاويل أهل السنة والجماعة ، خاليا عن أباطيل أهل البدع والضلالة ، ليس بالطويل الممل ، ولا بالقصير المحمل . . ثم ذكر أنه تردد في الاجابة . . ولكنه قطع هذا التردد ، وسار في تأليفه يجد ، حتى أتمه في مدة يسيرة .

والناظر في هذا التفسير يجد فيه فهما واعيا ، وخبرة دقيقة ، واطلاعا واسعا ، وحسن استفادة من هذا الاطلاع . .

وقد استفاد من تفسيري البيضاوي والكشاف أيما استفادة ، فأخذ من البيضاوي معناه الدقيق ، وفهمه الواعي ، وتوجيهه السديد ، وإيجازه المركز . . وأخذ من الزمخشري في كشافه خبرته الواسعة باللغة ، ومناقشته للآراء المتعددة ، واختيار ما يراه . . على أنه لم يقع فيما وقع فيه الزمخشري في كشافه من التعصب لمذهب الاعتزال ، وحمل الآيات في تعسف عنى تأييد أصوله وقواعده .

إنه على العكس من ذلك اتخذ موقفا مضادا ، فحارب ما يخالف المذهب الأشعري مستفيدا من طريقة الزمخشري ، رادا عليه ، متقدا طريقته وحججه .

ويمتاز تفسير النسفي باقلامه من الاسرائيليات ، وابتعاده ما استطاع عنها .

كما يمتاز بتحريره في اختيار أكثر الأحاديث ، ويظهر ذلك أبلغ ما يظهر في تركه ذكر الاحاديث الموضوعية في فضائل السور . .

كما أنه لم يتوسع في الإعراب ، ولم يدخل في تفاصيل فرعية ، تشتت الذهن ، وتبتعد بالقارئ عن الجو القرآني .

ولم يخل تفسيره من الإشارة إلى المذاهب الفقهية في بعض آيات الأحكام ، والانتصار لمذهبه الحنفي .

تفسير قوله تعالى :

[إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] .

(سورة المائدة الآية ١١٢)

عن الحسن : أن المائدة لم تنزل ، ولو نزلت لكانت عيدا الى يوم القيامة ، لقوله : وآخرنا . . . والصحيح أنها نزلت :

فمن وهب : نزلت مائدة منكوسة تطير بها الملائكة ، عليها كل طعام إلا اللحم . . .

وقيل : كانوا يجدون عليها ما شاءوا .

وقيل : كانت تنزل حيث كانوا بكرة وعشيا .

ما يؤخذ على تفسيره :

ولا يسلم تفسير النسفي على وجه العموم من النقد :
لقد اكتفى بإشارات في غاية الإيجاز إلى الآراء المختلفة فيما يتعلق بالآيات
التي استدلت بها الفرق ، وكأنه يفترض شهرة هذه الآراء ، ومعرفة الكل
بها ، ودوام هذه المعرفة ، ويتمثل لنا ذلك في تفسير قوله تعالى :
[أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ]

(سورة الملك الآية ١٤)

إنه يقول : أنكر أن لا يحيط علما بالمضمر والمسر والمجهر من خلقها ، وصفته
أنه اللطيف أي العالم بدقائق الأشياء ، الخبير العالم بحقائق الأشياء ، وفيه
إثبات خلق الأقوال فيكون دليلا على خلقه أفعال العباد ، وقال أبو بكر بن
الأمم وجعفر بن حرب من مفعول والفاعل مضمر وهو الله تعالى ، فاحتالا
بهذا لئني خلق الأفعال ..

ولم يسلم من الإسرائيليات رغم احتياطه وتحفظه ، فتراه عند تفسيره لقوله
تعالى من سورة النمل :

[وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مِنْ مَنَاطِقِ الطَّيْرِ

وَأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين] .

(سورة النمل الآية ١٦)

روى أنه صاحب فاخنة (طائر معروف) فأخبر أنها تقول : ليت ذا الخلق
لم يخلقوا ، وصاح طاووس فقال : يقول : كما تدين تدان ، ثم ذكر أصنافا
من الطير ، وقول كل صنف من هذه الأصناف ، دون أن يعقب على ذلك ،
بل دون أن يحتري من ذكر مثل هذه الأقوال التي لا سند لها من الأحاديث
الصحيحة .

ونأخذ عليه : أن أسلوبه يعلو على مستوى العامة ، حيث حشد مفسره فيه ألوانا من العلوم المتعلقة بالقرآن لا يفهمها إلا من عنده فكرة سابقة عنها . . وفي آية المائدة التي ذكرناها سابقا يذكر آراء عن الحسن وعن وهب وعن غيرهما دون أن يوجه نظره الى ما رواه الترمذى بسنده عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ :

(انزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً . . الخ الحديث) . .

والواقع أنه على الرغم من منزلة الإمام النسفي الكبرى فإن مكانته في علم الكلام هي مناط شهرته ، ومصدر ذبوع صيته ، أما تفسيره على ماله من مكانة كبيرة لا تنكر ، ومن منزلة سامية لا يشك فيها ، فإنه - كان فيه عالة على تفسير الإمام البيضاوي ، وعلى تفسير الإمام الزمخشري ، في مجال معين هو مجال الجوانب البلاغية التي برع فيها جار الله الزمخشري ولم يجاره فيها مجار والإمام النسفي وإن كان عني عناية بالغة بالرد على الإمام الزمخشري فإنه تبني كل ما كتبه الإمام الزمخشري تقريباً في البلاغة القرآنية .

ورحم الله الإمام النسفي رحمة واسعة جزاء زهده ونشره للعلم فقها وأصولاً وكلاماً وتفسيراً .

نماذج من تفسير النسفي

١ - يقول الله تعالى :

[وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ]

(سورة التوبة : آية ١٠٠)

« وَالسَّابِقُونَ » مبتدأ ، (الأولون) صفة لهم (مِنَ الْمُهَاجِرِينَ) تبين لهم وهم الذين صلوا الى القبليتين ، أو الذين شهدوا بدرا . أو بيعة - الرضوان (والأنصار) عطف على المهاجرين ، أى ومن الأنصار . وهم أهل بيعة العقبة الأولى ، وكانوا سبعة نفر ، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين (والذين اتبعوهم بإحسان) من المهاجرين والأنصار ، فكانوا سائر الصحابة ، وقيل : هم الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة ، والخبر (رضى الله عنهم) بأعمالهم الحسنة (ورضوا عنه) بما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية (وأعد لهم) عطف على رضى (جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) من تحتها مكى (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

٢ - يقول الله تعالى :

[لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ]

(سورة التوبة الآية ١٢٨ و ١٢٩)

« لقد جاءكم رسول » محمد ﷺ (من أنفسكم) من جنسكم . ومن نسبكم ، عربى قرشى مثلكم (عزيز عليه ما عنتم) شديد عليه شاق - لكونه بعضا منكم - عنتم لقاءكم المكروه . فهو يخاف عليكم الوقوع فى العذاب (حريص عليكم) على ايمانكم (بالمؤمنين) منكم ومن غيركم (رءوف رحيم) قيل : لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله ﷺ (فإن تولوا) فإن أعرضوا عن الأيمان بك وناصروك (فقل حسبي الله) فاستعن بالله وفوض اليه أمورك . فهو كافيك وناصرك عليهم (لا اله إلا هو عليه توكلت) فوضت أمرى اليه (وهو رب العرش) هو أعظم خلق الله ، خلق مطافا لأهل السماء ، وقبنة للدعاء (العظيم) بالجبر وقوى بالرفع على نعت الرب جل وعز . عن أبى : آخر آية نزلت : لقد جاءكم رسول من أنفسكم . الآية .

الإمام ابن كثير وتفسيره

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين . سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين . . .

نبدأ مع الإمام ابن كثير بالحديث عن منهجه في تفسير القرآن الكريم لأنه منهج من المناهج المثالية التي تتبع في التفسير .

إن أصح الطرق في تفسير القرآن الكريم - حسبما يرى ابن كثير - هي : -

١ - أن يفسر القرآن بالقرآن . وذلك أنه كثيراً ما يكون الجمل في مكان قد بسط في موضع آخر .

٢ - فإذا تعذر ذلك فعلى المفسر بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له . بل لقد قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ورضي عنه حسبما يذكر ابن كثير :
« وكل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ما فهمه من القرآن .
قال الله تعالى :

[إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ
اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا]

(سورة النساء الآية ١٠٥)

وقال تعالى :

[وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ
وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] (سورة النحل الآية ٦٤)

وقال تعالى :

[وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ]

(سورة النحل الآية ٤٤)

ولهذا قال رسول الله ﷺ « الا أنى أوتيت القرآن ومثله معه » يعنى السنة .
والسنة أيضا تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن ، الا أنها لا تتلى كما يتلى
القرآن .

٣ - فإذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة رجعنا فى ذلك الى أقوال
الصحابة فانهم ادرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التى اختصوا
بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح ، لاسيما علماءهم
وكبرائهم كالائمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المبتدئين المبدين ، وعبد
الله بن مسعود - رضى الله عنهم - واخبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم
رسول الله ﷺ وترجمان القرآن .

٤ - وإذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ولا وجدته عند الصحابة
فقد رجع كثير من الأئمة فى ذلك الى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر فإنه
كان آية فى التفسير ، وكسعيد بن جبیر ، وعكرمة مولى ابن عباس وعطاء ابن
ابى رباح والحسن البصرى ومسروق بن الاعدع ، وسعيد بن المسيب وابى
العالية والربيع بن انس والضحاك بن مزاحم وغيرهم من التابعين وتابعيهم
ومن بعدهم فتذكر أقوالهم فى الآية .

وهؤلاء فيما يرى ابن كثير يقع فى ارائهم اختلاف ، ولكن ابن كثير ينظر الى
ارائهم نظرة تشبه القداسة ويقول فى ذلك حرفيا : فيقع فى عبارتهم تباين فى
الألفاظ بحسبها من لا علم عنده اختلافا فيحكيها أقوالا - أى يحكيها آراء
متباينة مختلفة . . والكلمة بمعنى واحد فى أكثر الأماكن فيتفطن اللبيب لذلك .

ونحن وان كنا نشكر ابن كثير على موقفه هذا من آراء التابعين الذي يدل على نزعة طيبة نحو التقريب وتقليل شقة الخلاف فإننا نرى أن التابعين بحكم اصالتهم كانت لهم آراؤهم المتباينة .

وإذا سألت الآن عن موقف ابن كثير من التفسير بالرأى فإنه يقول : «أما التفسير بالرأى فقد ورد عن السلف ما يدل على تخرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه .»

وهذا الرأى لابن كثير رأى موفق ، أنه لا حرج على من تكلم في التفسير بالرأى مادام قد استكمل عدة ذلك من اللغة ومن الشرع .

وقد طبق ابن كثير منهجه هذا النفيس في كتابه ومن أجل ذلك كان تفسيره من انفس التفاسير ، يرجع إليه المحققون وقد استفاد منه الكثيرون فيما بعد فاغترف منه اغترافا صاحب محاسن التأويل وصاحب تفسير المنار وغيرهم كثير . .

ومن أمثلة هذا التفسير ما يلي :

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ
يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ]

(سورة البقرة الآية ٢٥٤)

يأمر الله تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله سبيل الخير ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم وملئكمهم وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا .

(من قبل أن يأتي يوم) يعني يوم القيامة .

(لا يبيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) أى لا يباع أحد من نفسه ولا يفادى بمال لو بذله ولو جاء بملء الأرض ذهبا لا تنفعه خلة أحد يعنى صداقته بل ولا نسابته كما قال : (فإذا نفخ في الصور فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) .

(ولا شفاعة) أى لا تنفعهم شفاعة الشافعين.

وقوله (والكافرون هم الظالمون) مبتدأ محصور فى خبره ، أى ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافرا ، وقد روى ابن أبى حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال : « الحمد لله الذى قال (والكافرون هم الظالمون) ولم يقل : « والظالمون هم الكافرون » .

وقال تعالى : [وَأَقَدُّ أَهْلَكُنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ] يعنى أهل مكة وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسول مما حولها كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام وكذلك سبأ وهم أهل اليمن ومدين وكانت فى طريقهم وممرهم إلى غزة . وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يبرون بها أيضا :

وقوله عز وجل : [وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ] أى بينها وأوضحناها [لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] . (سورة الأحقاف الآية ٢٧)

وإذا كنا قد قدمنا الحديث عن المنهج لأهميته ، فإننا نتحدث الآن عن الشخص وعن تقدير العلماء له .

انه الحافظ الكبير . المدقق المحقق ، عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير البصرى ثم الدمشقى الفقيه الشافعى :

ولد سنة إحدى وسبعائة بقرية شرقى بصرى من أعمال دمشق وابتدأ فى طلب العلم من صغره ورحل فى طلبه . وقدم دمشق وله سبع سنين سنة ست وسبعائة مع أخيه

وقد مات أبوه وهو طفل لم يشب عن الطوق فى سنة ٧٠٣ وساعده أخوه فى شئون حياته واتجه بكليته إلى العلم : دارسا ومتفقها : ومتعرفا على ألوان العلوم فحفظ والف وكان - فى كل ذلك - كثير الاستحضار . قليل النسيان ، جيد الفهم ، يشارك فى العربية وينظم نظما وسطا .

و لم يتحصل له العلم إلا بعد أن سمع من كثير من العلماء وتفقه على العديد من الشيوخ كالشيخ برهان الدين الفزاري وكمال الدين بن قاضي شهبة ، ثم ساهر الحافظ أبا الحجاج المزى ولازمه وأخذ عنه ، وأقبل على علم الحديث وأخذ الكثير عن ابن تيمية وقرأ الأصول على الأصبهاني ، وسمع الكثير ، وبرع في حفظ المتون ومعرفة الأسانيد والعلل والرجال والتاريخ حتى برع في ذلك وهو شاب .

قال عنه الإمام الذهبي في معجمه :

«الإمام المنقذ المحدث البارع : فقيه متقن ومحدث متقن ، ومفسر نقاد .

وقال ابن حجر في الدرر :

سمع من ابن الشحنة وابن الزاراد وإسحاق الأمدى وابن عساكر والمزى وابن الرضى وأجاز له من مصر : الدبوسى والوانى والختنى وغيرهم . . . واشتغل بالحديث مطالعة في متونه ورجاله ، فجمع التفسير ، وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يكمل ، وجمع التاريخ الذى سماه البداية والنهاية وعمل طبقات الشافعية وخرج أحاديث مختصر ابن الحاجب وشرع في شرح البخارى . ولازم المزى وقرأ عليه تهذيب الكمال وصاهره على ابنته وأخذ عن ابن تيمية ، ففطن بحبه وامتنحن بسببه .

وقال عنه ابن حبيب : زعيم أرباب التأويل ، سمع وجمع وصنف وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف . وحدث وأفاد وطارق أوراق فتاويه في البلاد ، واشتهر بالضبط والتحرير وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير .

وقال تلميذه الحافظ شهاب الدين بن حجرى :

«كان احفظ من ادركناه لمتون الأحاديث ، واعرفهم بتخريجها ورجاها وصحيحها وسقيمها وكان اقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك ، وكان يستحضر شيئا كثيرا من الفقه والتاريخ قليل النسيان وكان فقيها جيد الفهم صحيح

الذهن ، يشارك في العربية مشاركة جيدة وينظم الشعر ، وما اعرف أنى
اجتمعت به على كثرة ترددى إليه إلا واستفدت منه .

وقال ابن حجر :

كان كثير الاستحضر ، حسن المفاكحة ، سارت تصانيفه في البلاد في
حياته وانتفع بها الناس بعد وفاته .

وقد انتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والتفسير والحديث فولى مشيخة أم
الصالح بعد موت الذهبي ، ومشيخة دار الحديث الاشرفية بعد موت السبكي
مدة يسيرة ، ثم أخذت منه .

وهو القائل :

تمر بنا الأيام تترى وانما نساقي إلى الآجال والعين تنظر
فلا عائد هذا الشباب الذى مضى ولا زائل هذا المشيب المكدر



بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزبادى

مؤلف هذا الكتاب أمام مشهور، وعالم فاضل، برز في اللغة وعلومها، والحديث وفنونه، وضم إلى ذلك معرفة تاريخية صائبة وسلوكا صوفيا طيبا، وجمع كل معارفه فنسقا تنسيقا لم يسبق إليه، وقدمها تقديما حاول به أن يسر القرآن للباحثين، ويكشف للعالم عن وجوه الإعجاز فيه فجاء وافيا بآية محققا للغاية المنشودة منه.

والفيروزبادى: مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازى الشيخ العلامة.

كان بروزه إلى ساحة الحياة في سنة تسع وعشرين وسبعائة بكازرون لاب كان من علماء اللغة والأدب بشيراز فحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين وشغل بكتب اللغة من هذه السن ثم انتقل إلى شيراز في سن الثامنة فأخذ اللغة من أبيه والحديث من محمد بن يوسف الزرندي الحنفي.

وانطلق في رحلاته بين أرجاء العالم الإسلامى محصلا جامعا متفهما متعلما: يقول ابن حجر في أنباء الغمر: (ودخل الديار الشامية بعد الخمسين فسمع بها وظهرت فضائله وكثر الآخذون عنه، ثم دخل القاهرة ثم جال في البلاد الشمالية والشرقية ودخل الهند وعاد منها على طريق اليمن قاصدا مكة، ودخل زبيد فتلقاها الملك الأشرف إسماعيل بالقبول، وكان ذلك بعد وفاة جمال الدين الريمى قاضى الأفضية باليمن كله فقرره الملك الأشرف مكانه وبالغ في إكرامه فاستقرت قدمه بيزيد واستمر في ذلك إلى مات وقدم في هذه المدة مكة مرارا وأقام بها وبالطائف، ثم رجع).

ومن معالم شخصيته البارزة قوة الحفظ فقد حكى عنه أنه قال: «ما كنت أنام حتى احفظ ما تتي سطر».

ومن هذه المعالم طيب النفس وسماحة السلوك وحسن الصحبة، قال ابن حجر: (اجتمعت به في زبيد وفي وادي الخصيب وناولني جل «القاموس» واذن لي مع المناولة أن أرويه عنه وقرأت عليه من حديثه عدة أجزاء وسمعت منه «المسلسل» بالأولية بسماعة من السبكي وكتب لي تقریظا على بعض تخریجاتي أبلغ فيه وأنشدني لنفسه في سنة ثمانمئة بيزيد.

وقد كان لهذه السماحة أطيّب الأثر في إقبال أهل عصره واحرصهم على تكريمه فكان كما قال ابن حجر: (لم يقدر له قط أنه دخل بلدا الا وأكرمه متوليه وبالغ في إكرامه مثل شاه شجاع صاحب تبريز والأشرف صاحب مصر والأشرف صاحب اليمن وابن عثمان صاحب الروم وأحمد بن ادريس صاحب بغداد وغيرهم.

أما من علمه فقد كان عزيزا، لقد استفاد بكبار علماء عصره، واستنار بما دون في الكتب من العلوم ومع دقة حفظه وسعة اطلاعه فقد كانت المراجع لا تفارقه في حله وترحاله لقد كان لا يسافر إلا وصحبته عدة اجمال من الكتب يخرج أكثرها في كل منزلة فينظر فيها ويعيدها إذا رحل وكان إذا املق باعها.

ونقل السخاوي عنه أنه قال: اشتريت بخمسين ألف مثقال ذهبا كتباً.

أما عن شيوخه فقد قرأ القراءات العشر على الشهاب أحمد بن علي الديواني وأخذ ببغداد عن التاج محمد بن السباك والسراج عمر بن علي القزويني، وفي دمشق أخذ عن الشيخ تقي الدين السبكي وابنه التاج عبد الوهاب وفي الشام أخذ عن صلاح الدين العلائي وفي القاهرة أخذ عن بهاء الدين ابن عقيل شارح الألفية وجمال الدين الاسنوي وابن هشام النحوي.

والناظر في تفسيره يجد أنه قد رسم له خطته وحدد طريقته فقال في

مقدمته:

وبعد : فهذا كتاب جليل ومصنف حفيظ ايتمرت بتأليفه الأوامر الشريفة
العالية المولية الامامية السلطانية العامية الهمتمية الصمصاوية الأعدلية
الأفضلية السعدية الأجلية الملكية الاشرفية ممد الدنيا والدين ، خليفة الله في
العالمين أبو العباس إسماعيل بن العباس بن علي بن داود بن يوسف بن
عمر بن رسول خلد الله سلطانه . وأثار في الخافقين برهانه قصد بذلك نصره
الله - جمع شتات العلوم وضم أنواعها ، على تباين أصنافها في كتاب مفرد
تسهيلا لمن رام سرح النظر في أزاهير أفنان الفنون وتيسيرا لمن أراد الاستمتاع
برائع أزهارها ، ويانع ثمارها الغض المصون .

فاستعنت بتوفيق الله وتأييده ، ورتبته على مقدمة وستين مقصدا :
المقدمة في تشويق العالم إلى استزادة العلم الذي طابه فرض ، وتميز العلوم
بعضها من بعض .

المقصد الأول : في لطائف تفسير القرآن العظيم .

أما المقاصد الباقية فتتعلق بعلوم أخرى كعلم الحديث وعلم الفقه وعلم
الحروف وخواصها ونحو ذلك .

المقصد الأول :

وبعد المقدمة يقول المقصد الأول في لطائف تفسير القرآن العظيم .

اعلم أن رتبنا هذا المقصد الشريف على أغرب اسلوب وقدمنا أمامه
مقدمات ومواقف :

أما المقدمات : ففي ذكر فضل القرآن الكريم ووجه اعجازه وعدد اسمائه
ومالابد للمفسرين من معرفته : من ترتيب نزول سور القرآن واختلاف أحوال
آياته وفي مواضع نزوله وفي وجوه مخاطباته وشيء من بيان الناسخ والمنسوخ
وأحكامه ومقاصده : من ابتداء القرآن إلى انتهائه . ثم يقول : (واذكر في كل
سورة على حدة سبعة أشياء) .

موضع النزول ، وعدد الآيات ، والحروف والكلمات واذكر الآيات التي

اختلفت فيها القراءات ومجموع فواصل آيات السورة ، وما كان للسورة من اسم أو اسمين فصاعدا ، واشتقاقه ومقصود السورة وما هي متضمنة له وآيات الناسخ والمنسوخ منها والمتشابه منها وبيان فضل السورة مما ورد فيها من الأحاديث .

ثم اذكر موقفا يشتمل على تسعة وعشرين بابا على عدد حروف الهجاء ثم اذكر في كل باب من كلمات القرآن ما أوله حرف ذلك الباب مثاله أنى اذكر في أول باب الألف الألف واذكر وجوهه ومعانيه ثم اتبعه بكلمات أخرى مفتحة بالألف وكذلك في باب الباء والتاء إلى آخر الحروف فيحتوى ذلك على جميع كلمات القرآن ومعانيها على أتم الوجوه .

واختتم ذلك بباب الثلاثين اذكر فيه أسماء الأنبياء ومتابعيهم من الأولياء ، ثم أسماء أعدائهم المذكورين في القرآن واشتقاق كل ذلك لغة ، وما كان له في القرآن من النظائر واذكر ما يليق به من الأشعار والأخبار واختم الكتاب بذكر خاتم النبيين .

ثم استفاض في تفسيره على النمط الذى ذكره ومن أمثله ما يلي :

«بصيرة» - أنا انزلناه

السورة مكية عند بعض المفسرين ، مدنية عند الأكثرين .

آياتها ست في عد الشام وخمس عند الباقيين .

وكلماتها ثلاثون وحروفها مائة واثنا عشرة .

فواصل آياتها على الراء .

سميت سورة القدر لتكرر ذكره فيها .

معظم مقصود السورة : بيان شرف ليلة القدر في نص القرآن ونزول

الملائكة المقربين من عند الرحمن واتصال سلامهم طوال الليل على أهل

الإيمان في قوله حتى مطلع الفجر السورة محكمة .

المتشابهات :

قوله تعالى :

[إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ... وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ

الْقَدْرِ] (سورة القدر الآية ١ ، ٢)

ثم قال (ليلة القدر) فصرح به ، وكان حقه الكناية مرفعا لمنزلتها فإن الإسم قد يذكر بالصرح في موضع الكناية تعظيما وتخويفا كما قال الشاعر :
لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغص الموت ذا الغنى والفقيرا
فصرح باسم الموت ثلاث مرات تخويفا وهو من أبيات كتاب سيبويه

فضل السورة :

فيه أحاديث ضعيفة : عن أبي : من قرأها أعطى من الأجر كمن صام
رمضان واحيا ليلة القدر.

وقال جعفر : من قرأها في ليلة نادى مناد : استأنف العمل فقد غفر الله

لك .

وقال : يا على ، من قرأها فتح الله في قبره باين من الجنة وله بكل آية قرآن
ثواب من صلى بين الركن والمقام ألف ركعة .

بصيرة في الرزق :

والرزق - بالكسر - ما ينتفع به ويقال للعطاء الجارى تارة دنيويا كان أو
أخرويا وللنصيب تارة ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة والجمع أرزاق .
والرزق - بالفتح - المصدر الحقيقي والمرة الواحدة رزقه والجمع رزقات
ويقال : أعطى السلطان رزق الجند ورزقت علما : قال تعالى : (وانفقوا مما
رزقناكم) من المال والجاه والعلم .

وقوله :

[وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكذِّبُونَ]

(سورة الواقعة ٨٢)

أي تجعلون نصيبكم من النعمة تحرى الكذب وقوله:

[وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ] (سورة الذاريات ٢٢)

قيل: عنى به المطر الذى به حياة الحيوان.

وقيل: هو كقوله:

[فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً] (سورة الحجر ٢٢)

وقيل: تنبيه ان الحظوظ بالمقادير وقوله: (فليأتكم برزق منه) أى بطعام يتعدى به.

وقوله (رزقا للعباد) قيل عنى به الأغذية ويمكن أن يحمل على العموم فيما يؤكل ويلبس ويستعمل. وقال فى العطاء الآخروية. وقوله:

[إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ] (سورة الذاريات الآية ٥٨)

عمول على العموم.

والرزاق يقال لخالق الرزق معطيه والسبب له وهو الله تعالى ويقال للإنسان الذي يصير سببا فى وصول الرزق فلا يقال إلا الله تعالى وقوله:

[وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ] (سورة الحجر الآية ٢٠)

أى بسبب رزقه ولا مدخل لكم فيه.

[وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا]

(سورة النحل الآية ٧٣)

الآية: أى ليسوا بسبب فى رزقهم بوجه من الوجوه وبسبب من الأسباب.

وارتزق الجنند: أخذوا أرزاقهم، والرزقه ما يعطونه دفعة واحدة. اهـ.

النيسابورى

المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

هو الامام الكبير . والعالم الشهير . نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين الخراسانى النيسابورى .

ولد ينسابورى وأقام بمدينة « قم » وكان منشؤه وموطنه بديار نيسابور . .
كان ملماً بالعلوم العقلية والنقلية . عارفاً باللغة العربية . متمكناً من ناحية التعبير عارفاً بالتأويل والتفسير . واعياً بالقراءات . وضم إلى ذلك الشهرة العلمية الواسعة على جانب كبير من الورع والتقوى . ومعرفة واسعة بالتصوف وعلوم الاشارات .

كانت له كتب مفيدة . وآثار جيدة . ثلاثة كتب فى التفسير : كبير ومتوسط وموجز ومنها كتاب تعبير التحرير شرح لتحرير الجسطى للطوس . وتوضيح التذكرة النصيرية فى الهيئة هذا فضلاً عما كتبه فى أوقاف القرآن . .

تفسير النيسابورى

ومن أهم كتب النيسابورى تفسيره المشهور : غرائب القرآن ودرغائب الفرقان الذى الفه رغبة فى تيسير القرآن للدارسين . ومساعدة الراغبين فى فهمه . والتعرف على ما يمكن التعرف عليه من أسراره . .

وقد بين السبب فى قيامه بتأليفه فقال :

واذ وفقنى الله تعالى لتحريك القلم فى أكثر الفنون المنقولة والمعقولة . كما اشتهر بحمد الله تعالى ومنه فيما بين أهل الزمان . وكان علم التفسير من العلوم بمنزلة الانسان من العين والعين من الانسان . وكان قد رزقنى الله تعالى من ابان الصبا وعنفوان الشباب حفظ لفظ القرآن . وفهم معنى الفرقان . وطلماً

طالبني بعض أجلة الاخوان ، وأعزة الأخدان ، ممن كنت مشارا إليهم عندهم
بالبنان في البيان ، والله المنان ، يجازيهم عن حسن ظنونهم ، ويوفقنا لاسعاف
سؤهم وانجاح مطلوبهم ، ان اجمع كتابا في علم التفسير ، مشتملا على
المهمات ، مبينا على ما وقع لنا من نقل الاثبات وأقوال الثقات ، من الصحابة
والتابعين ، ثم من العلماء الراسخين ، والفضلاء المحققين المتقدمين والمتأخرين .
جعل الله تعالى سعيهم مشكورا ، وعملهم مبرورا ، فاستعنت بالمعبود
وشرعت في المقصود ، معترفا بالعجز والقصور في هذا الفن وفي سائر الفنون . .
ثم ذكر أهم المراجع التي اعتمد عليها في اعداد تفسيره فقال :

ولما كان التفسير الكبير المنسوب الى الامام الافضل . والهام الامثل . الخبير
التحرير ، والبحر الغزير ، الجامع بين المعقول والمنقول . الفائز بالفروع
والأصول ، أفضل المتأخرين . فخر الملة والحق والدين . محمد بن عمر بن
الحسين الخطيب الرازي ، تغمده الله برضوانه وأسكنه بحبوحة جنانه . اسمه
مطابق لمسماه ، وفيه من اللطائف والبحوث مالا يحصى . ومن الزوائد والفنون
مالا يحصى ، فانه قد بذل مجهوده . ونثله موجوده ، حتى عسر كتابه على
الطالين ، واعوز تحصيله على الراغبين . فحاذيت سياق مرامه . وأوردت
حاصل كلامه وقربت مسالك أقدامه . والتقطت عقود نظامه . من غير
اخلال بشيء من الفرائد . واهمال لما يعد من اللطائف والفوائد ، وضمت
اليه ، ما وجدت في الكشاف وفي سائر التفاسير من اللطائف المهمات إذ رزقني
الله تعالى من البضاعة المزجاة ، وأثبت القراءات المعتبرات والوقوف المعللات
ثم التفسير المشتمل على المباحث اللفظيات والمعنويات . مع اصلاح ما يجب
اصلاحه . واتمام ما ينبغي اتمامه . من المسائل الموردة في التفسير الكبير
والاعتراضات ، ومع حل ما يوجد في الكشاف من المواضع المعضلات .
سوى الايات المعقدات ، فان ذلك يوردها من ظن أن تصحيح القراءات
وغرائب القرآن انما يكون بالامثال والمستشهدات . كلا فان القرآن حجة على
غيره وليس غيره عليه . فلا علينا أن نقتصر في غرائب القرآن على تفسيرها

بالألفاظ المشتهرات وعلى إيراد بعض المتجانسات ، التي تعرف منها أصول الاشتقاقات . وذكرت طرفاً من الاشارات المقنعات والتأويلات الممكنات ، والحكايات المبكيات ، والمواعظ الرادعة عن المنهيات الباعثة على أداء الواجبات . . .

ثم قال مبيناً منهجه في التفسير :

« والتزمت إيراد لفظ القرآن الكريم أولاً مع ترجمته على وجه بديع ، وطريق منيع مشتمل على إبراز المقدرات ، وإظهار المضمرة ، وتأويل المتشابهات . وتصريح الكنايات وتحقيق المجازات والاستعارات ، فإن هذا النوع من الترجمة مما تسكب فيه العبرات ، ويزل المترجمون هنالك إلى العثرات ، وقلما يفتن له الناشئ الواقف على متن اللغة العربية ، فضلاً عن الدخيل القاصر في العلوم الأدبية ، واجتهدت كل الاجتهاد في تسهيل سبيل الرشاد . ووضعت الجميع على طرف التمام ليكون الكتاب كالبدري في التمام ، وكالشمس في افادة الخاص والعام ، من غير تطويل يورث الملام ، ولا تقصير يورع مسالك السالك ويبدد نظام الكلام ، فخبر الكلام ما قل ودل ، وحسبك من الزاد ما بلغك المحل .

وقد قدم لتفسيره بمقدمات هامة :

المقدمة الاولى : في فضل القراءة والقارىء وآداب القراءة وجواز اختلاف القراءات وذكر القراء المشهورين المعتمدين .

المقدمة الثانية : في الكلام على الاستعاذة المندوب اليها في قوله عز من قائل : (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) .

المقدمة الثالثة : في فوائد مهمة تتصل بتواتر القراءات السبع ، والكلام على نزول القرآن على سبعة أحرف .

المقدمة الرابعة في كيفية جمع القرآن . . .

المقدمة الخامسة في معاني المصحف والكتاب والقرآن والسورة والآية والكلمة والحرف وغير ذلك .

المقدمة السادسة : في ذكر السبع الطوال والمثنى والمئين والطرأسيم والحواسيم والمفصل والمسبحات وغير ذلك .

المقدمة السابعة : في ذكر الحروف التي كتب بعضها على خلاف بعض في المصحف وهي في الأصل واحدة

المقدمة الثامنة : في أقسام الوقف .

المقدمة التاسعة : في تقسيات يعرف منها اصطلاحات مهمة

المقدمة العاشرة : في أن كلام الله تعالى قديم أولا

المقدمة الحادية عشرة : في كيفية استنباط المسائل الكثيرة من الألفاظ القليلة .

ويبدأ بعد ذلك في تفسيره على ما رسمه في مقدمته .

أنه يبدأ بكتابة مجموعة من الآيات ثم يتحدث عما فيها من القراءات . وما تشتمل عليه من الوقوف ثم يبدأ التفسير ، وغالبا ما يعقب بالتأويل .

ولتعرض نموذجا صغيرا من تفسيره في قول الله تعالى :

[يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا تَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ] .

(سورة البقرة الآية ٤٨)

القراءات :

ولا تقبل بالتاء الفوقانية (قراءة) ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب

الوقوف :

العالمين (٥) (أى آخر آية) ينصرون (٥)

التفسير (ولطول الكلام فيه سنوجزه فيما يأتي) :

إنما أعاد سبحانه هذا الكلام توكيدا للحجة ، وتحذيرا من ترك اتباع محمد ﷺ ، كأنه قال : ان لم تطيعوني لاجل سوائف نعمتى عليكم ، فاطيعوني للخوف من عقابي في المستقبل .

والمراد بالعالمين ههنا : الجحيم الغفير من الناس ، كقوله [بَارَكْنَا فِيهَا

لِلْعَالَمِينَ] سورة الانبياء (٧١) ويمكن أن يكون المراد : فضلتكم على عالمي زمانكم ، لان الشخص الذى سيوجد بعد ذلك لا يكون من جملة العالمين ويحتمل ان يكون لفظ العالمين عاما للموجودين ولن يوجد ، لكنه مطلق فى الفضل ، والمطلق يكتفى فى صدقه صورة واحدة .

٢ - قال تعالى : [إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ

عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ] (سورة البقرة : ١١٩)

القراءات : -

« ولا تسأل » على النهى نافع ويعقوب . للباقون بضم التاء ، ورفع اللام

على الخبر .

الوقوف : -

« ونذيرا ولا » للعطف : أى نذيرا ، وغير مسئول إلا لمن قرأ (ولا تسأل)

على النهى لاختلاف الجملتين (الجحيم) تمام الآية .

التفسير :

لما بين غاية اصرارهم على العناد ، وتصميمهم على الكفر بعد نزول ما يكتفى فى باب الاقتداء والاهتداء من الآيات البيئات ، اراد أن يسلي

ويسرى عن رسوله لثلا يضيق صدره فقال : [إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ] يا محمد
 (بالحق) والصواب ماتقتضيه الحكمة ، وهو أن لا يكون لك أن تجبرهم على
 الايمان بل لا يتجاوز حالك عن أن تكون (بشيرا) لمن اتبعك بكل خير
 (ونذيرا) لمن خالفك بكل سوء (فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ
 حَسْرَاتٍ) (سورة فاطر : ٨) انك غير مسئول (عَنْ أَصْحَابِ
 الْجَحِيمِ) « سورة البقرة : ١١٩ » وهو من أسماء النار وكل نار عظيمة في
 مهواة فهي جحيم ، من قوله تعالى : -

[قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ] .

(سورة الصافات : ٧٧)

والجاحم : المكان الشديد الحر ، وهذا كقوله [فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ
 وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ] (سورة الرعد : ٤٠) وأما قراءة النهي ، فيروى أنه
 قال : « ليت شعري ما فعل أبواي ؟ » فهي عن السؤال عن أحوال الكفرة
 والاهتمام بأعداء الله ، وفي هذه الرواية بعد « لان سياق الكلام ينبوعن
 ذلك ، ولانه صلى الله عليه وسلم مع علمه الاجمالي بحال الكفار كيف يتمنى ذلك ؟
 والاقرب أن معناه تعظيم ما وقع فيه الكفار من المحن كما اذا سألت عمن وقع في
 بلية ، فيقال لك لانسأل عنه ، فكان المسئول يخرج أن يجرى على لسانه ما هو
 فيه لفظاعته ، أو يرى أنك لاتقدر على استماع خبره ، لانه يورث الوحشة
 والضجر . .

الإمام البيضاوى ومنهجه في التفسير

هو الإمام عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي . أبو سعيد أبو الخير ناصر الدين البيضاوى من قرية يقال البيضاء لها من بلاد فارس ولى القضاء بشيراز وفسر القرآن ، وألف في كثير من الفنون وتيسر له هذا المنصب بعد حادثة دلت على نبوغه . وكشفت عن عبقريته . . .

لقد دخل تبريز ، فصادف دخوله إليها مجلس درس قد عقد بها لبعض الفضلاء ، فجلس القاضي ناصر الدين في اخريات القوم ، بحيث لم يعلم به أحد فذكر المدرس نكتة زعم أن احدا من الحاضرين لا يقدر على جوابها ، وطلب من القوم حلها ، والجواب عنها ، فإن لم يقدر فالحل فقط فإن لم يقدر فأعادتها فلما انتهى من ذكرها شرع القاضي ناصر الدين في الجواب فقال له : لا اسمع حتى اعلم أنك فهمتها . فخبره بين اعادتها بلفظها أو معناها ، فهت المدرس ، وقال : اعداها بلفظها : فأعادها ثم حلها وبين أن في ترتيبه اياها خللا ، ثم اجاب عنها ، وقابلها في الحال بمثلها ، ودعا المدرس الى حلها . فتعذر عليه ذلك ، فأقامه الوزير من مجلسه . وادناه الى جانبه وساله من انت ؟ فاخبره انه البيضاوى ، وأنه جاء في طلب القضاء بشيراز ، فأكرمه . وخلع عليه في يومه ، وردده وقد قضى حاجته . . .

كان إماما علامة . عارفا بالفقه والتفسير وأصول الفقه وأصول الدين والعربية والمنطق وكان عالما بفنون المناظرة واداب المناقشة . صالح السلوك ، مجتهدا في العبادة ، زاهدا في متاع الدنيا الفاني ، شافعي المذهب . . .

قال ابن شهبة في طبقاته عنه صاحب المصنفات ، وعالم اذربيجان ،
وشيخ تلك الناحية

وقال السبكي : كان إماما مبرزاً نظاراً صالحاً معبداً . . .

وقال ابن حبيب : تكلم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته . ولو لم يكن
له غير المنهاج الوجيز لفظه المحرر لكفاه . . .

صنف الكتب المهمة في شتى الفنون الدينية . فصنف مختصر الكشاف .
والمنهاج في علم الأصول وشرح مختصر ابن الحاجب في الأصول وشرح المنتخب
في الأصول للإمام فخر الدين . وشرح المطالع في المنطق . والايضاح في
أصول الدين . والغاية القصوى في الفقه . وانطواع في الكلام . وشرح
الكافية لابن الحاجب . وشرح المنصايح ولب الباب في علم الاعراب مازال
مخطوطاً . والغاية القصوى في دراسة الفتوى في فقه الشافعية . ومازال في
عداد المخطوطات . . .

ومن أهم مصنفاته تفسيره المشهور الذي قدم له فقال بعد الحمد والثناء .
وبعد : فان أعظم العلوم مقدارا . وارفعتها شرفا ومنارا . علم التفسير
الذي هو رئيس العلوم الدينية ورأسها . ومبنى قواعد الشرع وأساسها . لا يليق
لتعاطيه والتصدي للتكلم فيه الا من برع في العلوم الدينية كلها - اصولها
وفروعها . وفائق في الصناعات العربية والفنون الادبية بانواعها . ولطالما
أحدث نفسي أن اصنف في هذا الفن كتابا يحتوي على صفوة ما بلغني من
عظماء الصحابة . وعلماء التابعين . ومن دونهم من السلف الصالحين .
وينطوي على نكت بارعة . ولطائف رائعة . استنبطتها أنا ومن قبلي من
افاضل المتأخرين . وامثال المحققين . ويعرب عن وجوه الفراءات المعزية الى
الأئمة الثمانية المشهورين . والشواذ المروية عن القراء المعبرين إلا أن قصور
بضاعتي يثبطني عن الاقدام . ويمنعني عن الانتصاب في هذا المقام . حتى
سنع لي بعد الاستخارة ماصح به عزمي على الشروع فيما اردته . والاتبان بما
قصدته . ناويا ان اسميه بعد ان اتمه به « انوار التزليل . وأسرار التأويل » .

ثم شرع في التفسير : -

والتأمل في تفسيره يجد أنه قد نحا فيه نحو الاختصار ، وركز فيه الأفكار .
ووجه الانظار الى ماتشتمل عليه الايات في كثير من نواحي الاعراب والفقه
والاصول ونحو ذلك ، معتمدا على ماسبقه من التفاسير كتفسير الكشاف
والرازي ونحوهما . . .

وقد افاض العلماء في الحديث عن هذا الكتاب محللين ومبينين ، فقال
السيوطي في حاشيته عليه : -

إن القاضي ناصر الدين البيضاوي لخص هذا الكتاب فاجاد ، وأتى بكل
مستجد وماز فيه أماكن الاعتزال ، وطرح موضع الدسائس وازال ، وحرر
مهمات ، واستدرك ثمات ، فظهر كأنه سبيكة نضار ، واشتهر اشتها
الشمس في رابعة النهار ، وعكف عليه العاكفون ، ولهج بذكر محاسنه
الواصفون ، وذاق طعم دقائقه العارفون ، فاكب عليه العلماء تدريسا
ومطالعة ، وبادروا الى تلقيه بالقبول رغبة فيه ومسارعة . . .

وقال صاحب كشف الظنون : -

تفسيره - أي البيضاوي - كتاب عظيم الشأن ، غني عن البيان ، لخص
فيه من الكشاف ما يتعلق بالاعراب والمعاني والبيان ، ومن التفسير الكبير -
رأي الرازي - ما يتعلق بالحكمة والكلام ، ومن تفسير الراغب ما يتعلق
بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الاشارات ، وضم اليه ماورى زناد فكره
من الوجوه المعقولة ، فجلا رين الشك عن السريرة ، وزاد في العلم بسطة
وبصيرة كما قال مولانا المنشي . . .

اولوا الالباب لم ياتوا بكشف قناع مايتلى
ولكن كان للقاضي يد بيضاء لاتبلى

ولكونه متبحرا في ميدان فرسان الكلام فظهر مهارته في العلوم حسبا يليق
بالمقام كشف القناع تارة عن وجوه محاسن الاشارة وملح الاستعارة ، وهتك

الاستار الاخرى عن اسرار المعقولات بيد الحكمة ولسانها ، وترجمان المناطقة وكيزانها ، فحل ما اشكل على الانام ، وذلك فهم صعاب المرام ، واورد في المباحث الدقيقة ما يدحض بعض الشبه المضلة ، واوضح لهم مناهج الادلة والذي ذكره من وجوه التفسير ثانيا أو ثالثا أو رابعا بلفظ قبل فهو ضعيف ضعف المرجوح أو ضعف المردود . . .

وأما الوجه الذى تفرد فيه وظن بعضهم انه مما لا ينبغي أن يكون من الوجوه التفسيرية السنية كقوله :

وحمل الملائكة العرش وخفيفهم حوله مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له ، ونحوه فهو ظن من لعله يقصر فهمه عن تصور مبانيه ، ولا يبلغ علمه الا الاحاطة بما فيه ، فن اعترض بمثله على كلامه كأنه ينصب الجبال للعنقاء ، ويروم أن يصيد نسر السماء . لانه مالك زمام العلوم الدينية ، والفنون اليقينية ، على مذهب أهل السنة والجماعة ، وقد اعترفوا له قاطبة بالفضل المطلق ، وسلموا اليه قصب السبق ، فكان تفسيره يحتوى على فنون من العلم وعرة المسالك ، وانواعا من القواعد المختلفة الطرائق ، وقل من برز في فن الاوصده عن سواه وشغله . والمرء عدو لما جهله ، حتى يسلم من الغلط والزلل . ويقتدر على رد السفسطة والجدل . . .

واستطرد صاحب كشف الظنون في الثناء على الكتاب وعلى صاحب الكتاب ، حتى قال بحق :

ثم ان هذا الكتاب رزق من عند الله سبحانه وتعالى بحسن القول عند جمهور الافاضل والفحول ، فعكفوا عليه بالدرس والتحشية ، فمنهم من علق تعليقه على سورة منه ، ومنهم من حشى تحشية تامة ، ومنهم من كتب على بعض مواضع منه . . .

ومن أشهر الحواشى عليه حاشية قاضى زاده (مطبوعة) وحاشية الشهاب الحفاجى (مطبوعة) وحاشية القونوى . . .

هذا هو تفسير البيضاوي مختصر في غير خلل ، ومشمول على الوان من العلم
النافع ، والخير الغزير ، ويتضح ذلك بذكر نماذج منه :

قوله تعالى : [قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، قُلْ إِنْ
صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ
لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ] . . .

(سورة الأنعام : ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣)

(قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) بالوحي والارشاد الى ما نصب
من الحجج . (دينا) بدل من محل « الى صراط » اذ المعنى : هداني
صراطا ، كقوله : ويهديكم صراطا مستقيما ، أو مفعول فعل مضمر دل عليه
الملفوظ ، (قيا) فعل من قام كسيد من ساد ، وهو ابلغ من المستقيم باعتبار
الزنه « الوزن » والمستقيم باعتبار الصيغة ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة
والكسائي : « قيا » على أنه مصدر ، وكان قياسه قوما كعوض فاعل الاعلال
فعله كالقيام ، (ملة ابراهيم) عطف بيان لدينا (حنيفا) حال من ابراهيم
(وما كان من المشركين) عطف عليه . . .

(قل ان صلاتي ونسكي) عبادتي كلها ، أو قرباتي ، أوحجتي (ومحياي
ومماتي) وما انا عليه في حياتي واموت عليه من الايمان والطاعة ، اوطاعات
الحياة والخيرات والمضافة الى المات كالوصية والتدبير ، أو الحياة والمات
أنفسها . وقرانا فع : محياي باسكان الياء اجراء للوصل مجرى الوقف لله رب
العالمين لاشريك له ، خالصة لاشرك فيها غيره ، (وبذلك) القول أو
الاخلاص (امرت وأنا أول المسلمين) لانه اسلام كل نبي متقدم على اسلام
امته . . .

الدر المنثور فى التفسير بالمأثور

للحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى

ولد الأمام السيوطى فى أول رجب سنة ٨٤٩هـ وكانت وفاته فى جمادى الأول سنة ٩١١ ودفن فى حوش قوصون خارج باب القرافة بالقاهرة.

أفرد الحافظ الداودى - وهو تلميذ الامام السيوطى - ترجمة كتاب مستقل عن أستاذه الحافظ السيوطى، وقد ترجم الحافظ السيوطى لنفسه فى كثير من كتبه يذكر فى أحدها ما لم يذكره فى الآخر، وترجم له كثيرون من محبيه ومن خصومه، ومن المعتدلين بين هؤلاء ومن ترجم له من القدماء ابن اياس فى تاريخه، وصاحب الكواكب السائرة، وعبد الغنى النابلسى.

وترجم له من المحدثين العالم المحقق الثبت السيد عبد الحى الكنانى.

ولقد كان السيوطى قمة من القمم التى أثارها الكثير من الحديث عنها فيما بين ذام ومادح، وقد كان خصبا فى التأليف، وكان صاحب ذاكرة قوية وجد واجتهاد منذ صغره، فحفظ القرآن الكريم وما بلغ الثامنة من عمره بعد.

ودرس على مشايخ وتعلم على أساتذه، وصل بعضهم بعددهم إلى ستمائة، أما مشايخه فى الرواية سماعا واجازة فقد وصل إلى مائة وخمسين.

وكتبه بلغ تقديرها أكثر من خمسمائة، وهذه الكتب منها المؤلف الأصيل، ومنها ما هو مختصر من كتب سابقه ومنها ما هو جمع أو تنسيق، والسيوطى فى كل ذلك له طابعه الموجود فى كل كتبه، وأعنى به طابع السهولة، فكتبه لا تعقيد فيها، سواء أكانت تأليفا أم جمعا وتنسيقا.

يقول ابن العماد في الشذرات :

« ان تلميذه الخافظ الداودي استقصى أسماء مؤلفاته الخافلة الكبيرة الكاملة الجامعة فنافت عدتها على خمسمائة مؤلف ، وقد أشهر أكثر مؤلفاته في أقطار الأرض شرقا وغربا وكان آية كبرى في سرعة التأليف ، قال تلميذه الداودي :

عاينت الشيخ وقد كتب في يوم واحد ثلاث كراريس تأليفاً وتحريراً ، وكان مع ذلك يملئ الحديث ، ويجيب عن المتعارض منه بأجوبة حسنة »
أ.هـ .

ويقول أبو الحسنات : محمد عبد الحى اللكنوى في حواشيه على الموطأ بعد أن ذكر السيوطى :

« وتصانيفه كلها مشتملة على فوائد لطيفة ، وفوائد شريفة ، تشهد كلها بتبحره وسعة نظره ودقة فكره ، وأنه حقيق بأن يعد من مجددى الملة المحمدية في بدء المائة العاشرة ، وآخر التاسعة ، كما ادعاه بنفسه ، وشهد بكونه حقيقاً به من جاء بعده ، كعلى القارى المكى فى المرأة شرح المشكاة .

ويقول السيد محمد عبد الحى الكنانى :

« وفد ظفرت » فى مصر بكراسة من تأليف السيوطى عدد فيها تأليفه إلى سنة ٩٠٤ قبل موته بسبع سنين اوصل فيها عدد مؤلفاته إلى ٥٣٨ . فعدد ماله فى علم التفسير ٧٣ ، وفى الحديث ٢٠٥ ، والمصطلح ٣٢ ، والفقه ٧١ ، وأصول الفقه ، والدين والتصوف ٢٠ ، واللغة والنحو والتصريف ٦٦ ، والمعانى والبيان والبديع ٦ والكتب الجامعة من فنون ٨ الطبقات والتاريخ ٣٠ ، الجميع ٣٧ . أ.هـ .

وفى فترة من فترات حياته كان له مثل عليا يجب أن يصل إلى مكانة علمية تماثلها :

فهو يتحدث قائلاً : انه لما حج شرب من ماء زمزم لأمر منها .

١ - أن يصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني .

٢ - وفي الحديث إلى رتبة الحافظ بن حجر .

ولكن السيوطي فيما بعد كتب يقول :

« وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى ، أقول ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى لافخرا ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفا بأقوالها وادلتها النقلية ومداركها ونقوحها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها والقدرة على ذلك من فضل الله لا بحولي ولا بقوتي فلا حول ولا قوة إلا بالله » .

ومن استكمل الات الاجتهاد ولا يكون مثله الأعلى في الفقه الشيخ سراج الدين البلقيني وفي الحديث الحافظ بن حجر ، وذلك أن من استكمل الات الاجتهاد يكون قد تربح على القمة في مختلف الفنون .

ورتبة الاجتهاد قد ادعاها الامام السيوطي فجرت عليه مشاكل وأثارت حوله جدلا واضطر هو أن يدافع ويهاجم ، وأن يدخل معركة تتعلق بجدارته وكفاءته كان في غنى عنها ، لقد قال بعضهم - وهو قول باطل - ان من يبلغ رتبة الاجتهاد لا بد وأن يكون عالما محققا في فن المنطق ، والسيوطي ليس من أئمة المنطق فهو ليس مجتهدا .

ورغم أن هذه الدعوى باطلة وذلك أن الكثير من أئمة الاجتهاد توفاهم الله قبل أن يترجم المنطق الأرسطي إلى اللغة العربية ، وكثير من أئمة الاجتهاد نأوا بأنفسهم عن المنطق بعد أن ترجم ولم يتهمهم أحد بنقص في اجتهادهم .

ولكن بمجرد أن وجه هذا النقد إلى الامام السيوطي كتب يرد عن نفسه

وفي كتابه الجميل :

« صون المنطق والكلام » عن : « فني المنطق والكلام »

أخذ يدافع عن نفسه ويعلن أنه اتقن علم المنطق اتقان ائمه وأنه لذلك مستوف شرائط الاجتهاد ، ولكن السيوطي لم يدع الاجتهاد فحسب ، وإنما ادعى أنه مجدد القرن العاشر .

لقد روى أبو داود وغيره بسند صحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إن الله يبعث إلى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها».

والناس من قديم يتنازعون في شخصية المجدد لكل قرن، ويختلفون على اسمه، وقد أراضى الامام بن كثير أغلب العلماء حين عمم في الموضوع وجعله شاملا لكثيرين. انه يقول:

«وقد ادعى كل قوم في امامهم أنه المراد بهذا الحديث، والظاهر أنه يعم جملة من العلماء من كل طائفة وكل صنف ومن مفسر ومحدث وفقه ونحوي ولغوي وغيرهم».

وعن ذلك وعن تقدير الامام السيوطى القارى فى شرح المشكاة:

«شيخ شيوخنا السيوطى هو الذى أحيا علم التفسير فى الدر المنثور، وجمع جميع الاحاديث المتفرقة فى جامعته المشهور، وما ترك فنا الا فيه له متن أو شرح مسطور، بل وله زيادات ومخترعات يستحق أن يكون هو المجدد فى القرن العاشر كما ادعاه وهو فى دعواه مقبول ومشكور».

ونختم هذا بقول العارف بالله الشيخ الحافظ التيجانى أطال الله فى عمره:

«ولما بلغ العلامة السيوطى أربعين سنة من عمره أخذ فى التجرد للعبادة والانقطاع إلى الله تعالى والاشتغال به صرفا والاعراض عن الدنيا وأهلها كأنه لم يعرف أحدا منهم وشرع فى تحرير مؤلفاته التى سبقت الاشارة إليها وترك الافتاء والتدريس واعتذر عن ذلك فى مؤلف ألفه فى ذلك وسماه بالتنفيس، وأقام فى روضة المقياس فلم يتحول منها إلى أن مات، ولم يفتح طاقات بيته التى على النيل من سكناه، وكان الأمراء والأغنياء يأتون إلى زيارته ويعرضون عليه الأموال النفيسة فيردها وأهدى إليه القوم خصيا وألف دينار فرد الألف وأخذ الخصى فأعتقه وجعله خادما فى الحجرة النبوية، وقال لقاصد

السلطان : لاتعد تأتينا قط بهدية ، فان الله تعالى أغنانا عن مثل ذلك ، وكان لا يتردد إلى السلطان ، ولا إلى غيره وطلبه مرارا فلم يحضر إليه ، وقيل له : ان بعض الأولياء كان يتردد إلى الملوك والامراء في حوائج الناس فقال : اتباع السلف في عدم التردد عليهم أسلم لدين المسلم « أ . هـ .

ونأتى الآن إلى السيوطي والتفسير لقد ذكر السيوطي أنه ألف في التفسير وما يتعلق به ٧٣ رسالة وكتابا ، ويقول الامام السيوطي في مقدمة كتابه : « الدر المنثور »

« وبعد : فلما ألفت كتاب ترجان القرآن وهو التفسير المسند عن رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ، وتم بحمد الله في مجلدات فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرج منها رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله ورغبتهم في الاقتصار على متون الاحاديث دون الاسناد وتطويله فلخصت منه هذا المختصر مقتصرًا فيه على متن الأثر مصدرا بالعزو والتخريج إلى كل كتاب معتبر ، وسميته : بالدر المنثور في التفسير بالمأثور »

والله أسأل أن يضاعف مؤلفاته الأجور ويعصمه من الخطأ والزور . بمنه وكرمه أنه البر الغفور .

والدر المنثور هو أجمع كتاب للتفسير بالمأثور ، لم يبد فيه الامام السيوطي رأيا ، ولم يقل فيه كلمة مفسرة أو جملة شارحة ، وإنما التزم التزاما كاملا أن يكون تفسيره جمعا لاحاديث رسول الله ﷺ في الآية وسردا لبعض أقوال الصحابة رضي الله عنهم .

وهو في جمعه هذا لم يلتزم صحة الاحاديث والنقل ، ومن أجل ذلك فان هذا الكتاب الجليل في حاجة ماسة إلى عمل متقن ، في التحقيق والتخريج ، وبيان الصحيح من الاحاديث والحسن منها والضعيف .

ونورد الآن نموذجا يعني عن غيره :

يقول في قول الله تعالى : [إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ] (سورة الفاتحة)

« أخرج ابن جرير عن ابى حاتم عن ابن عباس فى قوله : « إياك نعبد »
ويعنى إياك نوحى وتخاف ونرجو ربنا لاغيرك ، « وإياك نستعين » على طاعتك
وعلى أمورنا كلها ، وأخرج وكيع والغربانى عن ابن رزين قال سمعت علياً قرأ
هذا الحرف كان قرشياً عربياً فصيحاً « إياك نعبد وإياك نستعين » إهدنا ،
بِرَفْعِهِمَا جَمِيعاً .

وأخرج الخطيب فى تاريخه عن أبى رزين أن علياً قرأ : إياك نعبد وإياك
نستعين « فهمز ومد وشد »

وأخرج أبو القاسم البغوى. والماوردى معا فى معرفة الصحابة والطبرانى فى
الأوسط وأبو نعيم فى الدلائل عن انس بن مالك عن أبى طلحة قال : كنا مع
رسول الله ﷺ فى غزوة فلقى العدو فسمعته يقول :

« يا مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين » قال : فلقد رأيت الرجال
تصدع تضربها الملائكة من بين يديها ومن خلفها »



الإمام أبو السعود وتفسيره

الإمام أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العماري الحنفي صاحب التفسير المشهور ، وصل إلى مرتبة عالية في العلوم الدينية ، بعد أن قرأ على أبيه وعلى كبار علماء عصره ، وتنقل في المدارس المتنوعة .

وأهله هذه الدراسة الجادة مع مامنع من ميزات شخصية لتقلد أرقى المناصب الدينية الهامة - فتقلد القضاء في عدد من البلاد التركية ، كان آخرها قضاء العسكر في ولاية روم «أيلي» ودام عليه مدة ثمان سنين .

ولما توفي مفتي تركيا سعد الله بن عيسى بن أميرخان تولى الفتيا مكانه ، فكان له فيها أطيب الأثر ، وأجمل الذكر ، سارت بفتاويه الركبان ، وأشبع حاجة السائلين ، واتسع عمله لاجابة الطالبين - وسجلت آراؤه السديدة بأسلوبه اللطيف ، الذي صبغت حقائقه العلمية في أساليب ادبية طيبة ، وما ذكر في ذلك أنه سئل عن شخص لاهو مريض ولا هو صحيح ولا حي ولا ميت ولا عاقل ولا مجنون ، ولا نائم ولا يقظان ، فأجاب متكلماً بقوله : أن كان لهذا وجود فهو الترياق .

وسئل عن شرب القهوة قبل أن يكمل اشتهاها بعد ماقرر له اجتماع الفسقة على شربها ، فأجاب بقوله : ماأكب أهل الفجور على تعاطيه ، فينبغي أن يجتنبه من يخشى الله ويتقيه .

لقد حرمها بسبب اجتماع الفساق على تعاطيها وان كانت في نفسها حلالا ، لأن اجتماع الفسقة على شيء ، ينقل خبثهم إليه ، ويخرجه عما هو عليه من السلامة إلى الضياع . .

وقد كثر ثناء العلماء عليه ، فقال صاحب شذرات الذهب :
وكان من الذين تعدوا من الفضائل والمعارف على سنامها وغاربيها ،
وضربت له نوبة الامتياز في مشارق الأرض ومغاربها .
تفرد في ميدان فضله ولم يجاره أحد ، وانقطع عن القرين والمائل في كل
بلد . وحصل له من انجد والاقبال والشرف والافضال ، ما لا يمكن شرحه
بالمقال .

ويقول صاحب الكواكب السائرة :

وكان المولى أبو السعود عالما . واماما كاملا ، شديد التحرى في فتاويه ،
حسن الكتابة عليها ، حسن المحاوره ، وافر الانصاف ، دينا خيرا . سالما ابتلى
به كثير من موائ الروم ، من أكل المكيفات ، سالم الفطنة جيد القرينة ،
لطيف العبارة ، حلو النادرة .

أما صاحب الاعلام فيقول عنه :

وأضيف إليه الافتاء سنة ١٩٥٢ هـ . وكان حاضر الذهن ، سريع
البديهة ، كتب الجواب مرارا في يوم واحد على ألف رقعة باللغات العربية
والفارسية والتركية تبعا لما يكتبه السائل .

وقد عاقه المدرس والفتوى ، والاشتغال بما يقتضيه المنصب ، عن التفرغ
للتصنيف ، غير أنه - كما قال صاحب شذرات الذهب - اختلس فرصا ،
وصرفها إلى التفسير الشريف ، وقد أتى فيه بما لم تسمع به الأذهان ، ولم تفرغ
بمثله الاذان ويتحدث الامام أبو السعود عن ظروف اعداد هذا التفسير مبرزا
ظروف حياته في صفحات خاطفة فيقول :

وكنت اتردد في ذلك بين اقدام واحجام ، لقصور شأني وعزة المرام ،
أين الحضيض من الدرى ؟ شتان بين الثريا وهيهات اصطيداد العنقاء بالشباك .
واقتياد الجوزاء من بروج الافلاك فضت عليه الدهور والسنون . وتغيرت
الاطوار وتبدلت الشؤون ، فابتليت بتدبير مصالح العباد ، برهة في قضاء

البلاد، وأخرى في قضاء العساكر والاجناد، فحال بيني وبين ما كنت أخال، تراكم المهمات وتزاحم الاشغال، وجروح العوارض والعلائق، وهجوم الصوارف والعوائق والتردد إلى المغازى والأسفار، والتنقل من دار إلى دار. . . وكنت في تضاعيف هاتيك الامور، أقدر في نفسي أن انتهر نهزه من الدهور، ويتسنى لي القرار، وتطمئن بي الدار، وأظفر حينئذ بوقت خال، أتبتل فيه جانب ذي العظمة والجلال، وأوجه إليه وجهتي، وأسلم له سرى وعلانيتي، وأنظر إلى كل شيء بعين الشهود، وأتعرف سر الحق في كل موجود، تلافيا لما قد فات، واستعدادا لما هو آت، وأتصدى لتحصيل ما عزمت إليه، وأتولى لتكميل ما توجهت إليه، برفاة واطمئنان، وحضور قلب وفراغ جنان، فبينما أنا في هذا الخيال، إذ بدا لي ما لم يخطر بالبال تحولت الاحوال والدهر فوقعت في أمر أشق من الأول: أمرت بحل مشكلات الأنام، فيما شجر بينهم من النزاع والخصام، فلقيت معضلة طويلة الذبول، وصرت كالهارب من المطر إلى السول. . . فاضحيت في ضيق المجال وسعة الاشغال أشهر عن يضرب بها الامثال، فجعلت اتمثل بقول من قال:

لقد كنت أشكو والحوادث برهة واستمرض الأيام وهي صحائح
إلى أن تغشتنى وقيت حوادث تحقق أن السالفات منائح
فلما انصرمت عرى الآمال عن الفوز بفراغ البال عزمت على انشاء ما
كنت أنويه، توجهت إلى املاء ما ظلت ابتغيه ناويا أن اسميه عند تمامه بتوفيق
الله وأنعامه:

(ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)

فشرعت فيه مع تفاقم المكاره على، وتزاحم المشادة بين يدي، متضرعا إلى رب العظمة والجبروت خلاق عالم الملك والملكوت، في أن يعصمني عن الزيف والزلل، ويقيني مصارع السوء في القول وانعمل ويوفقني لتحصيل ما أروي وأرجوه ويهديني إلى تكميله على أحسن الوجوه. . .

وتلمح من ذلك ما كان لأبي السعود من شخصية اجتماعية ممتازة ، وما كان يتحلى به من إيمان قوى وروح طيبة واستمساك صادق بعرى الدين .
ومن ملامح العبقرية عند أبي السعود اشارته الواضحة إلى ما في أسرار الخلق والايجاد من آيات بينات ، ثم قوله :

لكن الاستدلال بتلك الآيات والدلائل ، والاستشهاد بتلك الامارات والمخايل ، والتنبيه لتلك الاشارات السرية والتفطن لمعاني تلك العبارات العبقرية وما في تضاعيفها من رموز أسرار القضاء والقدر ، وكنوز آثار التعجيب والعبير . مما لا يطيق به البشر . إلا بتوفيق خلاق القوى والقدر ، اذن مدار المراد ليس إلا كلام رب العباد . اذ هو المظهر لتفاصيل الشعائر الدينية . والمفسر لمشكلات الآيات التكوينية . والكاشف عن خفايا حضائر القدس ، والمطلع على خبايا سرائر الانس ، وبه نكتسب الملكات الفاخرة وبه يتوصل إلى سعادة الدنيا والآخرة .

ثم يبين أنه قرأ عن القرآن الكتب الكثيرة ، فاغرم بتفسيرى الكشاف وأنوار التنزيل فقام بجلده نظم درر فرائدهما وترتيب غرر فوائدهما وأن يضيف إليهما ما في غيرهما من جواهر الحقائق وزواهر الدقائق فكان هذا الكتاب .

وتم يقتصر نشاط أبو السعود على تأليف هذا الكتاب بل ألف غيره من الكتب على ضيق وقته . واتساع نشاطه ، ومما نقل في ذلك أنه ألف تحفة الطلاب في المناظرة ورسالة في المسح على الخفين ، ورسالة في مسائل الوقوف ، ورسالة في الأوقاف . وقصة هاروت وماروت .

وكان له إلى جانب أسلوبه البارع في النثر شعر جميل مطبوع ، ومما اشتهر عنه من ذلك قصيدته الميمية التي أولها :

أبعد سليمى مطلب ومرام وغير هواها لوعة وغرام
وهيبات أن تشنى إلى غير بابها عنان المطايا أو يشد حزام
تم يقول :

فكم عشرة ما أورثت غيراً ورب كلام مقتضاه كلام

ولد أبو السعود سنة ٨٩٨ . . وكانت وفاته بالقسطنطينية في الثلث الأخير من ليلة الأحد خامس جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة ، وكانت جنازته حافلة ، وصلى عليه في حرم جامع السلطان محمد الكبير في جمع كبير ، ودفن بمقبرته بالقرب من مدفن أبي أيوب الأنصاري الصحابي رضي الله عن الجميع .

ومن تفسيره مايلي :

قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ، إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهْلٍ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] .

(سورة البقرة : ١٧٢ ، ١٧٣)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، أى مستلذاته .

« واشكروا لله » : الذى رزقكموها ، والالفات لتربية المهابة .

« ان كنتم آياه تعبدون » : فان عبادته تعالى لاتم إلا بالشكر له . . وعن

النبي ﷺ ، يقول الله عز وجل : إني والانس والجن فى نبا عظيم ، أخلق

ويعبد غيرى ، وأرزق ويشكر غيرى .

« إنما حرم عليكم الميتة والدم » أى أكلها والانتفاع بها ، وهى التى ماتت

على غير ذكاة والسّمك والجراد خارجان عنها بالعرف ، أو استثناء الشرع ،

وخرج الطحال من الدم .

« ولحم الخنزير » انما خص لحمه مع أن سائر اجزائه أيضا فى حكمه لأنه

يؤكل من الحيوان ، وسائر أجزاءه أيضا فى حكمه لأن معظمها يؤكل من

الحيوان ، وسائر أجزاءه بمنزلة التابع له .

« وما أهل به لغير الله » ، أى رفع به الصوت عند ذبحه للصنم ،
والإهلال أصله رؤية الهلال ، لكن لما جرت العادة برفع الصوت بالتكبير عند
ذلك سمي أهلالا ، ثم قيل لرفع الصوت وأن كان لغيره .

« فن اضطر غير باغ » بالاستئثار على مضطر آخر .

« ولا عاد » سد الرمق والجوع ، وقيل : غير باغ على الوالى ولا عاد بقطع
الطريق .

وعلى هذا لا يباح للعاصي بالسفر وهو ظاهر مذهب الشافعى ، وقول أحمد
رحمها الله : « أى أن من سافر فى معصية لا يجوز له تناول شيء مما حرم عليه
ولو اضطر لذلك لأنه تسبب فى هذا الاضطرار »

« فلا اثم عليه » : فى تناوله .

« ان الله غفور » : لما فعل .

« رحيم » : بالرخصة .

ان قيل : كلمة انما تفيد قصر الحكم على ما ذكر ، وكم من حرام لم
يذكر .

قلنا : المراد قصر الحرمة على ما ذكر مما استحلوه لا مطلقا ، أو قصر حرمة
على حالة الاختيار ، كأنه قيل : إنما حرم عليكم هذه الاشياء ما لم تضطروا
إليها .

السراج المنير للخطيب الشرييني

يقول المؤلف في هذا التفسير:

« فدونك تفسيراً كأنه سبيكة عسجد ، أودر منضد ، جمع من التفاسير معظمها ، ومن القراءات متواترها ، ومن الأقاويل أظهرها ، ومن الأحاديث صحيحها وحسنها محرر الدلائل في هذا الفن مظهراً للدقائق استعملنا الفكر فيها إذا الليل جن » .

ولقد يظن بعض الناس من هذه الكلمة أن الخطيب الشرييني يحب الفخر أو يشعر بالخيلاء ، ولكن ذلك أبعد الأشياء عن فطرته .

ولقد كانت فطرته التي صقلتها دراسته الدينية من أنقى الفطر وأطهرها وإذا نظرت إلى حياته فإنك تجده من كبار العلماء .

تلقى العلم على أعلام عصره مثل الشيخ أحمد البرلسي ، والنور المحلي ، والشهاب الرملي وغيرهم .

ولقد أجازوه بالافتاء وتدريس في حياتهم ، فدرس وأفتى في حياة أشياخه ، وقد انتفع بعلمه : تدريساً وكتبا خلق لا يكادون يحصون .

ومن كتبه شرح كتاب المنهاج وشرح كتاب التنبيه وهما شرحان نفيسان أقبل الناس على قراءتهما وكتابتهما في حياته ، وله على الغاية شرح مطول حافل .

وكان الشيخ يستخدم علمه في كل الظروف ، وكان حركة لا تهدأ فإنه كان حينما يحج لا يركب ، وإنما يستمر سائراً على قدميه إلى أن يبلغ به التعب مداه فيركب إلى أن يستريح ثم يعود إلى السير من جديد .

وكان إذا خرج من بلدته « بركة الحاج » إلى الحج لم يزل يعلم الناس مناسك الحج ومناسك الحج لا يعلمها كثير من الذاهيين إلى بيت الله الحرام .

فكان الشيخ يعلمهم المناسك ويعلمهم آداب السفر وذلك أن للسفر في الجوى الإسلامى آدابا معينة هى من آداب الإسلام.

وكان يحث رفاقه على الصلاة ويعلمهم القصر أثناء السفر والجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء.

وكان هو يكثر فى الطريق من قراءة القرآن، ومن الذكر والصلاة على الرسول ﷺ.

أما حينما يكون بمكة فإنه يكثر من الطواف فإنه العبادة المفضلة فيما يتعلق بالنوافل حينما يكون الإنسان بالمسجد الحرام.

وكان يكثر من الصوم فى السفر وفى مكة.

وكان يؤثر على نفسه فقد كان يحاول دائما أن يكون من الذين يؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة.

ويقول المؤرخون: أجمع أهل مصر على صلاحه ووصفوه بالعلم والعمل، ووصفوه بالزهد والورع، ووصفوه بكثرة النسك والعبادة. ومما يدل على اتجاهه إلى العبادة ومرضات الله تعالى أنه حينما كان يحل شهر رمضان يعتكف فى أول يوم من الشهر ويستمر فى المسجد عابدا مصليا قائما قارئا للقرآن ولا يخرج من الجامع إلا بعد صلاة العيد.

ويقول المؤرخون حينما ينتهون من الحديث عن حياته:

«وبالجملة: كان آية من آيات الله تعالى، وحجة من حججه على خلقه».

ومع أنه كان بهذه المكانة العلمية والاجتماعية، فإنه كان يؤثر «الخمول» كما تقول الكتب التى تؤرخ له، وما كان الشيخ خاملا، كلا، وهو صاحب هذا النشاط الجسمى، وإنما يقصدون بالخمول أنه ما كان يجرى وراء دنيا وما كان يتهافت على المناصب ولا يقف بأبواب الحكام.

ولقد أعلن الشيخ عن ظروف تأليف الكتاب ، وعن منهجه في التأليف من حيث الحجم ، ومن حيث التزام الصحة في الروايات ، ومن حيث النحو ، ومن حيث القراءات وفي كل ذلك يقول :

«... ثم سألني بعد ذلك جماعة من أصحابي المخلصين... أن أجعل لهم تفسيرا وسطا بين الطويل الممل ، والقصير المحلل ، فأجبتهم إلى ذلك ممثلا وصية رسول الله ﷺ فيما يرويه أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال :

«ان رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين ، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا» .

واقترء بالماضين من السلف في تدوين العلم ابقاء على الخلف . وليس على ما فعلوه مزيد ، ولكن لا بد لكل زمان من تجديد ما طال به العهد ، وقصر للظالمين فيه الجد والجهد ، تنبيها للمتوقفين ، وتحريضا للمثبطين ، وليكون ذلك عوناً لي ، وللقاصرين . مثلي مقتصر فيه : على أرجح الأقوال ، وإعراب ما يحتاج إليه عند السؤال وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية وأعراب محلها كتب العربية ، وحيث ذكرت فيه شيئا من القراءات فهو من السبع المشهورات ، وقد اذكر بعض أقوال وأعراب لقوة مداركها أولورودها ولكن بصيغة « قيل » ليعلم أن المرضي أولها... .

ولقد حاول الشيخ حقا أن يجرد كتابه عن الروايات الضعيفة وينتقد ما ذكره منها المفسرون ولكنه هو لم يسلم من إيراد بعضها ، ولكن يلاحظ أن الروايات الضعيفة التي يأتي بها عليها جميعها سمة الموعظة والغبرة ، وليس فيها ما يمس أمرا من أمور الدين في أصوله أو في فروعها .

والملاحظ في التفسير أن أسلوبه سهل وعبارته فصيحة ، وأنه يعتمد كثيرا على تفسير الفخر الرازي ، ولكنه لا يتبعه اتباعا أعمى وذلك أنه في كثير من الأحيان يرد عليه وينتقده .

والمؤلف لا ينكر أنه استفاد من الذين سبقوه وإنما يعلن ذلك في صراحة ،
أنه يقول : وقد تلقيت التفسير - بحمد الله - من تفاسير متعددة ، رواية
ودراية ، عن أئمة ظهرت وسهت مفاخرهم ، واشتهرت وانتشرت
مآثرهم #

وهذه شيمه العلماء الأعلام : أنهم يعترفون بالفضل لأولى الفضل فلا
ينقصهم الاعتراف بل يزيدهم فضلاً ورفعاً .

وهاك نموذجاً من تفسيره : قال في قوله تعالى :

[لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي
أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] . (سورة البقرة : ٢٨٤)

« لله ما في السموات وما في الأرض » خلقاً وملكاً - قال الجلال
السيوطي : وعبيداً ولعل ذكره بعد « ملكاً » لثلاثتهم أن « ما » لما لا يعقل
« وإن تبدوا » أي تظهروا . . . « ما في أنفسكم » من سوء والعزم عليه « أو
تخفوه » أي تسروه « يحاسبكم » أي يجزكم « به الله » يوم القيامة والآية حجة
على من أنكر الحساب كالمعتزلة والروافض . « فيغفر لمن يشاء » مغفرته « ويعذب
من يشاء » تعذيبه ، وهذا صريح في نفي وجوبه ، وقرأ ابن عامر وعاصم برفع
الراء من « يغفر » ، ورفع الياء من « يعذب » على الاستثناف ، والباقون يجزئها
عطفاً على جواب الشرط ، وأدغم الراء المجزومة في اللام : السوس .

وقول الزمخشري ، ومدغم الراء في اللام مخطىء خطأ فاحشاً ورواية عن
ابن عمر يعني : السوس - مخطىء مرتين : لأنه يلحن وينسب اللحن إلى أعلم
الناس بالعربية مما يؤذن بجهل عظيم ، والسبب في نحو هذه الروايات قلة ضبط
الرواة ، والسبب في قلة الضبط قلة الدراية ولا يضبط نحو هذا إلا أهل النحو
مردود لأنه مبني على القول بأن الراء إنما تدغم في الراء لتكرره الفاتحة
بادغامها في اللام . . .

ورد بأن ذلك قراءة أبي عمرو وهي متواترة مع أن القول بامتناع ادغام الراء في اللام إنما هو مذهب البصريين ، وأما الكوفيون - بل وبعض البصريين كأبي عمرو فقائلون بالجواز - كما نقله عنهم أبو حيان - ونقل أبو عمرو والكسائي وأبو جعفر صحة ادغام : « صار لي » و « صار لك » عن العرب - ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ووجه الجعري ادغام الراء في اللام بتقارب نخرجيها على رأى سيويه وتشاركها على رأى الفراء ، وتجانسها في الجهر والانفتاح والاستقلال .

« والله على كل شيء قدير » فيقدر على جزائكم ومحاسبتكم ...

نموذج آخر في تفسير قوله تعالى :
 [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ، وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ
 لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] .

الآية الأخيرة من سورة آل عمران :

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا » على مشاق الطاعة ، وما يصيبكم من الشدائد وعن المعاصي « وصابروا » أي وغالبوا أعداء الله في الصبر على شدائد الحرب فلا يكونوا أشد صبرا منكم « ورابطوا » أي أقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدين للغزو ، قال الله تعالى : « ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال « من رباط يوما وليلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه لا يفطر ولا يفتل عن صلاته إلا لحاجة » وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « من الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة » « واتقوا الله » في جميع أحوالكم « لعلكم تفلحون » أي تفوزون في الجنة وتنجون من النار وقال بعض العلماء :

اصبروا على السراء والضراء ، ورابطوا في دار الأعداء ، واتقوا الله الأرض والسماء لعلكم تفلحون في دار البقاء ..

رحم الله الخطيب الشربيني ونفع بعلمه ...

هذا وبالله التوفيق .

روح البيان في تفسير القرآن لاسماعيل حقي

إن هذا التفسير مشهور شهرة كبيرة تسمع به هنا وتسمع به هناك ، وهو مشهور في أوساط العرب ، ومشهور في أوساط العجم يعجب به أولئك ويقده هؤلاء ، ألفه إسماعيل حقي ابن مصطفى الاسلامبولي .

وهو تركي ولد في آيدوس ، وتعلم كما كان طلبة العلم إذ ذاك يتعلمون : العربية في استفاضة حتى تزيل العجمة ، وحتى تكون هي الطابع الغالب على طالب العلم ، وتعلم الطالب إسماعيل حقي في إطار اللغة : النحو والصرف وتعلم البلاغة بأقسامها وكان نابها نابغا في المدارس في الدرس ممتازا وفي القسطنطينية تعلم عن طريق العربية والتفسير والحديث والفقہ ، والعلوم الإسلامية على وجه العموم .

وكان يقف كثيرا أمام آيات القرآن التي تتحدث عن التقوى وعن القرب

مثل :

[التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ
الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ] . (سورة التوبة : ١١٢)

ومثل :

[إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ
وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ
وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ
وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ

كثيراً والذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

(سورة الأحزاب ٣٥)

ويقف عند الآيات التي تتحدث عن التوكل ، ويبحث في الجواز الذي نزلت فيه وهكذا في كل ما يتصل بالقلب في القرآن الكريم .

أما في الأحاديث الشريفة ، فانه كان يطيل النظر فيما يسمى الرقائق ، والرقائق كلمة يراد بها في الحديث كل ما يتصل بالسرائر والبواطن تهديبا واصلاحا ، أو - على حد تعبير القرآن الكريم - تزكية ، والله سبحانه وتعالى يقول :

[قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا] [سورة الشمس : ٩] ويقوده ذلك كله إلى أن يتجه شطر التصوف وينخرط في سلك المريدين ، وأخذ طريق الخلوتيه .

وكان للطريق اذ ذاك منهج اصطلاحي يرقى بالمريد خطوة فخطوة إلى القرب من الله تعالى ، ولم يكن الطريق سلبيا ، وإنما الجهاد للنفس والجهاد في المجتمع حتى تستقيم النفس ويستقيم المجتمع على أمر الله .

ولكن الجهاد في المجتمع محفوف دائما بالاشواك وذلك أن الغرائز والشهوات والتزعجات والفساد المختلف الألوان حينما يستشري في المجتمع ، فان اقتلعه مشير دائما للخواطر ، ولم يبان اسماعيل حتى بهذه المخاطر ، وإنما جابه المجتمع بكل ما يعتقد أنه حق ، وثار ذوو الاغراض الفاسده .

وكان إسماعيل حتى قد انتقل من القسطنطينية إلى « بروسه »

وأعلن منهجه الاصلاحى وجاهد في سبيله فنتى إلى « تكفور طاغ » .

وناله من الأذى الكثير : لقد اودى في نفسه وفي ماله واستمر الايذاء امدا من الدهر ، ثم عاد إلى بروسه واستمر إلى أن مات سنة ١١٢٧هـ - ١٧١٥م أما تأليفه فانه كان تارة يؤلف بالعربية : الرسالة الخليلية « في التصوف .

وهي رسالة الخلة : شروطها وطريقها وثمرتها وغايتها ، الخلة التي وصل

إليها سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما أصبح خليل الله ، وهي درجة لا تتأني
لغير الأنبياء ، ولكن وضعها كذروة يسير الانسان نحو انوارها ويهتدى بهديها
وهوما يجوز لغير الأنبياء : ان الله سبحانه وتعالى حينما يقول :

[لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ] سورة

(الأحزاب : ٢٢)

إنما أحب سبحانه أن نتخذ منه المنارة التي تسير نحوها في اضوائها ،
والرسالة الخليلية إنما تهج هذا المنهج .

ومن عادة كثير من كبار العلماء أن يختاروا أربعين حديثا من الاحاديث
الشريفة ينتخبونها في دقة ويذيعونها ويشرحونها يستشفعون بها إلى الله في أن
يكتب لهم النجاة ومن أشهرها « الأربعون النبوية » التي جمعها الأمام النووي
رضي الله عنه ، وسلك الأمام إسماعيل حتى هذا المسلك فجمع من
الاحاديث الشريفة أربعين وسماها « الأربعون حديثا » .

أما أثره الخالد فانه كتابه في التفسير وهو تفسير لغوي بياني صوري ، أي أنه
جمع ميزة التفسير العادي الذي يلتزم أسباب النزول والآثار والقراءات ،
واللغة ، وميزة التفسير الصوفي ، ولعل مكانة هذا التفسير عند الصوفية لا
تضارعها مكانة تفسير آخر ذلك أنه خلا من الشطط ومن انغلافة والتزم القصد
والاعتدال مع اعتماد على الأثر واللغة .

وفيما يلي بعض الأضواء على جوانب من حياته وعلى ظروف تأليف
التفسير ، انه يقول : « وبعد : فيقول العبد الفقير سمي الذبيح الشيخ إسماعيل
حتى الناصح المهاجر كلاًه الله من قن الغدايا والعليا والهواجر ، لما أشار إلى
شيخني الأمام العلامة ، واستاذي الجهيد الفهامه ، سلطان وقته ونادرة
زمانه ، حجة الله على الخلق بعلمه وعرفانه ، مطلع أنوار العناية والتوفيق ،
وارث أسرار الخليلي على التحقيق ، المشهود له بسر التجديد في رأس العقد
الثاني من الألف الثاني ، معدن الالهام الرباني السيد الثاني ، الشيخ الحبيب

النسيب سمي بن عفان نزيل قسطنطينيه ، أمدته الله وأمدنا به في السر والعلانية ، بالنقل إلى بروج الأولياء مدينة بروسا ، صينت عن تطاول يد الضراء والبؤس في العشر السادس من العشر العاشر من العقد الأول من الألف الثاني ولم أجد بدا من الوعظ والتذكير في الجامع الكبير والمعبد المنير الشهير ، وقد كان منى حين انتواء الإقامة ببعض ديار الروم ، بعض صحائف ملتقطه من صفحات التفاسير وادوات العلوم ، مشتمله على مايزيد عن آل عمران ، من سورة القرآن ؛ ولكنها مع الاطناب الواقع فيها كانت متفرقة كأيدى سبا جزء منها حوته الصبا ، وارتدت أن الخصى ما فرط من الالتقاط ، وأضم إليها مما سنح لي من المعارف ، وأجعله في سخط ما أنظمه ، وأسرد بانملة البراعة ، وإن كنت قليل البضاعة قصير الباعة ما يلبه إلى آخر النظم الكريم ، ان أمهلني الله العظيم إلى قضاء هذا الوطر الجسم ، وأبيض للناس قدر ما حررته في الاسابيع والشهور وافرزته بالتسوية أثناء السطور ليكون ذخرا للاخرة يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، وشفيعا لي حين لا يجدي نفعا غير الصاد والنون وأسأل الله تعالى أن يجعله من صالحات الأعمال ، ونخالصات الآثار ، وباقيات الحسنات إلى آخر الاعمال ، فانه إذا أراد بعبد خيرا حسن عمله في الناس ، وأهله لخيرات هي بمنزلة العين من الرأس وهو الفياض » اهـ

ويقول في آخر التفسير :

« هذا وقد تم تحرير روح البيان في تفسير القرآن ، في مدة الوحي تقريبا لما أن أقصت الاقدار إلى أقاصي أقطار الأرض ، وأيدى الاسفار النائية تداولتني من طول إلى عرض ، حتى أقامني الله مقام الاتمام ، فجاء باذن الله التمام يوم الخميس الرابع عشر من جمادى الأولى المنتظم في سلك شهور سنة سبع عشرة ومائة وألف » اهـ

وقد اتقن إسماعيل حتى الفارسيه أيضا وكثيرا ما يستخدم الفارسيه والتركيه في تفسيره فيورد أبياتا من الشعر بالفارسيه أو التركيه وجملا بهذه . وبتلك .

وهالك نموذجاً من تفسيره :

[تِلْكَ الرُّسُلُ] إشارة إلى الجماعة الذين من جملتهم النبي عليه الصلاة والسلام فاللام في الرسل للاستغراق [فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ] بأن خصصناه بمنقبة ليست لغيره ، وأعلم أن الأنبياء كلهم متساوون في النبوة لأن النبوة شيء واحد لا تفاضل فيها وإنما التفاضل باعتبار الدرجات بلغ بعضهم منصب الخلة كإبراهيم عليه الصلاة والسلام ولم يحصل ذلك لغيره ، وجمع لداود الملك والنبوة وطيب النعمة ولم يحصل هذا لغيره ، وسخر لسليمان الجن والانس والطير والريح ولم يحصل هذا لأبيه داود ، وخص محمداً عليه وعليهم السلام بكونه مبعوثاً إلى الجن والانس ، ويكون شرعه ناسخاً لجميع الشرائع المتقدمة ، ومنهم من دعا امته بالفعل إلى توحيد الأفعال وبالقوة إلى الصفات والذات ، ومنهم من دعا بالفعل إلى الصفات أيضاً وبالقوة إلى الذات ومنهم من دعا إلى الذات أيضاً بالفعل وهو إبراهيم عليه السلام فإنه قطب التوحيد إذ الأنبياء كانوا يدعون إلى المبدأ أو العباد إلى الذات الأحادية الموصوفة ببعض الصفات الإلهية الأحادية ولذا أمر الله نبينا ﷺ باتباعه بقوله [ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً] سورة النحل : ١٢٣) فهو من أتباع إبراهيم باعتبار الجمع دون التفصيل إذ لا تتم لتفاصيل الصفات إلا هو ولذلك لم يكن غيره خاتماً فالأنبياء وإن كانوا متفاوتين في درجات الدعوة بحسب مشارب الأمم إلا أن كلهم واصلون فانون في الله باقون بالله لأن الولاية قبل النبوة حيث أن آخر درجات الولاية أول مقامات النبوة فهي تبنى على الولاية ومعنى الولاية الفناء في الله والبقاء بالله فالنبي لا يكون إلا واصلاً محرراً جميع مراتب التوحيد من الأفعال والصفات والذات [مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ] أي فضله الله بأن كلمه بغير واسطة وهو موسى عليه الصلاة والسلام فهو كلمه بمعنى مكالمه واختلفوا في الكلام الذي سمعه موسى وغيره من الله تعالى هل هو الكلام القديم الأزلي الذي ليس من جنس الحروف والاصوات قال ، الأشعري وأتباعه المسموع هو

ذلك الكلام الازلي قالوا كما أنه لم تمتنع رؤية ماليس بمكيف فكذا لا يستبعد سماع ماليس بمكيف ، وقيل سماع ذلك الكلام محال وانما المسموع هو الحروف والصوت [وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ] (سورة البقرة : ١٥٣) أي عمل درجات أي على درجات فانتصابه على نزع الخافض وذلك بأن فضله على غيره من وجوه متعددة أو بمراتب متباعدة والظاهر أنه أراد محمدا ﷺ لأنه هو المفضل عليهم أوتي مالم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ثلاثة الاف آية وأكثر ولو لم يؤت الا القرآن وحده لكنى به فضلا منيفا على سائر ما أوتي الأنبياء لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات ، وفي الحديث (فضلت على الأنبياء بست أوتيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب واحللت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون) ، قال في التأويلات النجمية اعلم أن فضل كل صاحب فضل يكون على قدر استعلاء ضوء نوره لأن الرفع في الدرجات على قدر رفعة الاستعلاء كما قال تعالى : [وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ] (سورة المجادلة : ١١) فالعلم هو الضوء من نور الوجدانية فكما ازداد العلم زادت الدرجه فناهيك عن هذا المعنى قول النبي عليه السلام فيما يخبر عن المعراج أنه رأى آدم في السماء الدنيا ومحيى وعيسى في السماء الثانية ويوسف في السماء الثالثة وأدريس في السماء الرابعة ، وهارون في السماء الخامسة ، وموسى في السماء السادسة وإبراهيم في السماء السابعة وعبر النبي عليه السلام حتى رفع إلى سدرة المنتهى ومن ثم إلى قاب قوسين أو أدنى ، فهذه الرفع في الدرجه في القرب إلى الحضرة كانت له على قدر قوة ذلك النور في استعلاء ضوئه وعلى قدر غلبات أنوار التوحيد على ظلمات الوجود كانت مراتب الانبياء بعضهم فوق بعض فلما غلب نور الوجدانية على ظلمة انسانية النبي عليه السلام ضمحلت وتلاشت وفنيت ظلمة وجوده بسطوات تجلى صفات الجلال والجلال فكل نبي بقدر بقية ظلمة وجوده بقى في مكان من أماكن السموات فانه صلى الله تعالى عليه وسلم ما بقى في مكان ولا في الامكان لأنه كان غائبا عن ظلمة

وجوده باقيا بنور وجوده ولهذا سماه الله نورا وقال [قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ
نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ] (سورة المائدة : ١٥) فالنور هو محمد عليه السلام
والكتاب هو القرآن ، فافهم واحتمم فانك لا تجد هذه المعاني الا ههنا ، انتهى
كلام التأويلات النجمية .



فتح القدير للإمام الشوكاني

لقد كتب مفسرنا تاريخاً لحياته وكتابه تاريخ الحياة في جو مفكرى الاسلام نادر وربما كان أول من بدأ كتابة تاريخ حياته الفكرية في عالمنا الاسلامى هو الأمام الغزالي في كتابه « المنقذ من الضلال » ولكن مفسرنا كتب حياته الانسانية يختلط فيها الفكر بالنسب والحسب والدراية والتحصيل انه من هجرة شوكان وهو يعتز بهذه البلدة وإليها ينتسب الشوكاني ويقول عنها .

وهذه الهجرة معمورة بأهل الفضل والصلاح والدين من قديم الازمان لا يخلو وجود عالم منهم في كل زمن ولكنه يكون تارة في بعض البطون وتارة في بطن أخرى .

تولى والده القضاء مدة أربعين عاما وكان عالما ورعا تقيا وعنى عناية فائقة بابنه وتثقف الابن الثقافة الاسلامية كاعمق ما يكون المثقف لقد حفظ القرآن وجوده وهذا من أهم الامور لمن يشتغل بعلوم الدين والعربية فالقرآن الكريم هو الاساس الأول لكل دارس للدين ولكل نابغ في العربية .

وبينما كان يدرس القرآن في المكتب عن له سؤال سأله لوالده القاضي :
انه يقول :

(واني أذكر وأنا في المكتب مع الصبيان أني سألت والدى رحمه الله عن أعلم من بالديار اليمنية اذ ذاك فقال :

فلان يعنى : « عبد القادر بن أحمد » .

ووطن نفسه على أن ينال - عندما يكون أهلا لذلك - فن علم هذا

الشيخ .

وقد كان الشوكاني صاحب ذاكرة قوية فحفظ منذ صغره كثيرا من متون

العلم والمتون هي الصورة الموجزة المركزة لفنون العلم . راقه في بواكير شبابه
الاشتغال بكتب التواريخ وبجميع الأدب .

ووصل الأمر بنبوغه وجدده في طلب العلم أنه تصدر للافتاء وهو في سن
العشرين وكان مثله في ذلك مثل العالم الكبير أمير المؤمنين في الحديث سفيان
الثوري العالم النابغة الذي تصدر للفتوى هو الآخر وهو في سن العشرين .

وكل ذلك حصله في صنعاء وكان في صنعاء ذلك الوقت كثير من أفذاذ
العلماء وكان يروق للشوكاني أن يدرس الكتاب على عدة من اعلام العلم ليرى
منهج كل منهم وليوازن ويقارن بين أفهام النابيين من أولى العلم وكان هذا الأمر
كأنه هو اية عنده .

لقد استمع لشرح كتاب « الأزهار » على أربعة من العلماء . بل انه قرأ
شرح « الأزهار » على العالم الكبير أحمد بن محمد الرازي ثلاث مرات ويقول
عن ذلك في طرافة « اثنتان إلى ماتدعو إليه الحاجة والثالثة استكملنا بها الدقيق
والجليل من ذلك مع بحث وتحقيق .

ويتحدث الشوكاني عن بعض قراءاته على شيخ واحد من مشايخه
فيقول : -

صحيح مسلم من أوله إلى آخره بلا فوت مع بعض شرحه للنورى ،
وبعض صحيح البخارى مع بعض شرحه فتح البارى ، وبعض جامع
الأصول لابن الأثير وسنن الترمذى من أولها إلى آخرها بلا فوت وبعض سنن
ابن ماجه وبعض الموطأ وبعض المنتقى لابن تيمية وبعض شفاء القاضى
عياض .

وسمعت منه كثيرا من الاحاديث المسلسلة . . . وقرأت عليه في علم
الاصطلاح بعض منظومة الزين العراقى وشرحها .

وفى الفقه بعض ضوء النهار وبعض البحر الزخار مع حواشيهما . .

وفي علم أصول الدين بعض المواقف العضدية وشرحها للشريف وبعض القلائد وشرحها .

وفي أصول الفقه بعض جمع الجوامع وشرحه للحملى وفي اللغة بعض الصحاح وبعض القاموس ومؤلفه الذى سماه « فلك القاموس »
ولما استكمل الشوكانى شيئاً من النصح العلمى أصبحت تلمذته نوعاً من الاستفادة والافادة وهو يصف نمطاً من ذلك فيقول :

وكانت القراءات جميعها تجرى فيها المباحث الجارية على نمط الاجتهاد فى الاصدار والايراد ما تشد إليه الرجال وربما انجد البحث إلى تحرير رسائل مطولة ووقع من هذا كثير .

وكنت أحرر ما يظهر لى فى بعض المسائل واعرضه عليه فان وافق مالديه من اجتهاده فى تلك المسألة . . قرظة تارة بالنظم الفائق ، وتارة بالثر الرائق . .

وان لم يوافق كتب عليه ثم أكتب على ما كتبه ثم كذلك فان بعض المسائل التى وقعت فيها المباحثه حان القراءة اجتمع ما حررته وحرره فيها إلى سبع رسائل .

وكانت هذه الطريقة هى بداية التأليف عند الامام الشوكانى .

ولقد ساعده على التأليف استاذه الكبير عبد القادر بن أحمد الذى دله عليه والده وهو فى المكتب صبياً لقد كان هذا الشيخ يدفعه دفعا إلى القراءة فى كتب معينة يرشده إليها ويقول الشوكانى فى ذلك .

وما سألته القراءة عليه فى كتاب فابى قط بل كان يبتدئني تارات ويقول .
تقرأ فى كذا وكان يبذل لى كتبه ويؤثر بها على نفسه .

بل كان يقترح عليه الكتب التى يؤلفها كما رغبه فى تأليف شرح المنتقى فشرع الشوكانى فى هذا وعرض عليه عدداً من الكراريس التى انتهى منها

فقال : اذا تم على هذه الكيفية كان في نحو عشرين مجلدا وأهل العصر لا يرغبون فيما بلغ من التطويل إلى دون هذا المقدار .
ثم أرشدني إلى الاختصار ففعلت . . .

وما كان هذا الشيخ وحده هو الذي يفعل مع الشوكاني ذلك ، وإنما كان غيره من خيرة الشيوخ يفعلون ذلك أيضا ، وكان الشيوخ اذ ذاك يتخذون العلم رسالة يريدون بها وجه الله ، ولا يتخذونه حرفة أو مهنة ، وكانوا كلما رأوا طالبا مجدا ساعدوه مساعدة فعالة ، ساعدوه في العلم وساعدوه في السلوك حتى يصبح شيئا له تلاميذ يساعد المجد منهم في العلم ، ويساعده في حسن السلوك .

وترجع الشوكاني على منصة العلم في صنعاء ، ودرس وأفتى ، وكان الناس لا يكادون يذهبون في الفتوى إلى غيره ، وكانوا يحبون أن ينفحوه على الفتوى بعض المال فكان يأبى ويقول هذه الكلمات النفيسة :

« أنا أخذت العلم بلا سبب فأريد انفاقه كذلك » .

وفي سنة ١٢٠٩ هـ كان الشوكاني في السادسة والثلاثين من عمره المبارك ، توفي قاضي القضاة ، وترك الآن للشوكاني يقص ماجرى ، وهي قصة لها مغزاها العميق نضعها أمام طلاب الدنيا والمناصب الذين يجرون وراء الرياسة والحكم :

وكان المتولى لهذا المنصب مرجع العامة والخاصة وعليه المعول في الرأي والاحكام ومستشار الامام الوزراء فيما يعرض لهم وللدولة من احداث أو ماينوبهم من أمور :

فلما مات في ذلك التاريخ وكنت اذ ذاك مشغلا بالتدريس في علوم الاجتهاد والافتاء والتصنيف مجتمعا عن الناس لاسيما أهل الأمر وأرباب الدولة ، فاني لا اتصل بأحد منهم كائنا من كان .

ولم يكن لي رغبة في شيء سوى العلم وكنت أدرس للطلبة في اليوم الواحد نحو ثلاثة عشر درسا منها ماهو في التفسير كالكشاف وحواشيه ، ومنها ماهو في الأصول كالعضد وحواشيه والغاية وحواشيتها ، وجمع الجوامع وشرحه وحاشيته .

ومنها ماهو في المعاني والبيان كالمطول والمختصر وحواشيتها ، ومنها ماهو في النحو كشرح الرضى على الكافية والمغنى ، ومنها ماهو في الفقه كالبحر وضوء النهار ، ومنها ماهو في الحديث كالصحيحين وغيرهما ، مع ما يعرض من تحرير الفتاوى ويمكن من التصنيف : فلم أشعر إلا بطلاب لي من الخليفة بعد موت القاضي المذكور بنحو اسبوع فعزمت إلى مقامه العالي فقال لي أنه قد رجح قيامي مقام القاضي المذكور ، فاعتذرت له بما كنت فيه من الاشتغال بالعلم ، فقال : القيام بالأميرين ممكن وليس المراد إلا القيام بفصل ما يصل من الخصومات إلى ديوانه العالي في يومى اجتماع الحكام فيه .

فقلت : سيقع مني الاستخارة لله والاستشارة لاهل الفضل وما اختاره الله ففيه الخير .

فلما فارقت ما زلت مترددا نحو اسبوع ولكنه وفد إلى غالب من يتسبب إلى العلم في مدينة صنعاء واجمعوا على أن الاجابة واجبة ، وأنهم يخشون أن يدخل هذا المنصب . الذي إليه مرجع الاحكام الشرعية في جميع الأقطار اليمنية - من لا يوثق بدينه وعلمه وأكثروا من هذا وأرسلوا إلى بالرسائل المطولة . فقبلت مستعينا بالله ومتكلا عليه .

ولقد ألف الشوكاني كثيرا من الكتب منها :

١ - نيل الاوطار في الفقه .

٢ - ارشاد الغبي وهو كتاب نفيس يتحدث فيه الشوكاني عن وجوب البعد عن ذم الصحابة أو سبهم وهو كتاب ضروري في أوساط الشيعة .

٣ - كتاب البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع .

٤ - تفسير القرآن المسمى : فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية من التفسير .

وعنوان هذا الكتاب يشرح الطريقة ، فهي ليست طريقة التفسير بالمأثور تقتصر على ايراد ماورد في الآية من الآثار كما فعل مثلا الامام السيوطي في تفسيره الذي اقتصر فيه على ايراد ماورد من المأثورات .

وليس تفسيراً يجعل كل همم العقليات كما فعل مثلا أبو مسلم الاصفهاني أو الفخر الرازي وإنما هو تفسير يجمع بين « الرواية والدراية » والرواية ، هي ايراد المأثورات والدراية هي ابداء الرأي الشخصي بعد الفهم والتأمل في الآية وما روى عنها ، ونأق الآن بنموذج منه .

يقول الله تعالى في سورة الأنبياء [إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ
مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ، قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا
عَابِدِينَ ، قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ]
(سورة الأنبياء : ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤)

وهكذا يجب هؤلاء المقلدة من أهل الملة الاسلامية ، فان العالم بالكتاب والسنة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأي المدفوع بالدليل . قالوا : هذا قد قال به امامنا الذي وجدنا آباءنا له مقلدين وبرأية آخذين . وجوابهم هو ماأجاب به الخليل ههنا (قال لقد كنتم أنتم وأباؤكم في ضلال مبين) أي في خسران واضح لا يخفى على أحد ولا يلتبس على ذي عقل ، فإن قوم إبراهيم عبدوا الاصنام التي لاتضر ولاتنفع ولا تسمع ولا تبصر ، وليس بعد هذا الضلال ضلال ، ولا يساوى هذا الخسران خسران . وهؤلاء المقلدة من أهل الاسلام استبدلوا بكتاب الله ، وبسنة رسوله كتابا فدونت - اجتهادات عالم من علماء الاسلام ، زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها : أما لقصور منه ، أو لتقصير في البحث ، فوجد ذلك الدليل من وجده ، وابرزه واضح المنار كأنه علم في رأسه نار ، وقال : هذا كتاب الله أو هذه سنة رسول الله .

ويقول في تفسير : [وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا
بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ] (سورة آل عمران : ١٦٩)
وقد اختلف أهل العلم في الشهداء المذكورين في هذه الآية من هم ؟
فقيل : شهداء أحد . وقيل في شهداء بدر ، وقيل في شهداء بئر موة . .
وعلى فرض أنها نزلت في سبب خاص فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص
السبب . . ومعنى الآية عند الجمهور : أنهم أحياء حياة محققة . . ثم
اختلفوا : فمنهم من قال : أنها ترد إليهم ارواحهم في قبورهم فينتعمون . وقال
بجاهد : يرزقون من ثمر الجنة ، أى يجدون ريحها وليسوا فيها . وذهب من عدا
الجمهور إلى أنها حياة مجازية والمعنى : أنهم في حكم الله مستحقون للنعم في
الجنة ، والصحيح الأول ، ولا موجب للمصير إلى المجاز وقد وردت السنة
المطهرة بأن ارواحهم في اجواف طيور خضر ، وأنهم في الجنة يرزقون
ويأكلون . .



الإمام الألوسى وتفسيره روح المعاني

الألوسى هو العلامة المحقق شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادي مفتي بغداد .

وكان مولده في جانب الكرخ من بغداد سنة سبع ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية .

أخذ العلم عن العلماء الاعلام ، وعلى رأسهم والده وكان من العلماء الكبار والشيخ على السويدي ، والشيخ خ/لد النقشبندی . . وكان حرصه على العلم وما وهبه الله من قدرة على التحصيل ، وتمكن من الفهم ، وعمل على التزود من العلم من العوامل التي جعلت منه أرضا خصبة صالحة للانبات ، فأثمر علما يانعا جعل منه شيخ علماء العراق ، وصاحب التفسير الجامع الكبير .

ابتدأ النشاط العلمي الزاخر وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، ودرس في عدة مدارس وكان حريصا على تبليغ العلم كما كان حريصا على جمعه ، فكان يشجع طلاب العلم ويواسيهم بما يملك ، ويقدم لهم ما يستطيع من وسائل الحياة ومتطلباتها ليتفرغوا للبحث والتحصيل .

وتقلد الألوسى الكثير من المناصب العلمية ، والاعمال المتصلة بالناحية الدينية فعين مفتيا للحنفية في السنة الثامنة والأربعين بعد المائتين والألف من الهجرة المحمدية .

كما تولى قبل ذلك أوقاف المدرسة المرجانية . . . وتفرغ في شوال سنة ثلاث وستين ومائتين بعد الألف لتفسير القرآن الكريم حتى أتمه ، ثم سافر إلى القسطنطينية في السنة السابعة والستين بعد المائتين والألف عارضا تفسيره على علي السلطان عبد المجيد خان ، فنال اعجابه ورضاه . .

تميز الألويس بسرعة الفهم ، واتساع الحافظة ، وثبات الحفظ ، حتى لقد
عبر عن ذلك شاكرا فقال :

ما استودعت ذهني شيئا فخائني ، ولا دعوت فكري لمعضلة إلا وأجابني
وكان جادا في تحصيل العلم ، لايبالي بما يصيبه فيه ، شعاره هذه البيت
المشهور :

سهرى لتنقيح العلوم الذي من وصل غانية وطيب عناق

وخلف رحمه الله كثيرا من المؤلفات المفيدة فضلا عن تفسيره المشهور . .
منها حاشية على القطر في النحو ، أكملها إلى موضع الحال ، وشرح المسلم في
المنطق والأجوية العراقية عن الأسئلة اللاهورية ، والأجوية العراقية على
الأسئلة الايرانية ودرة الغواص في أوهام الخواص ، والنفحات القدسية في
المباحث الامامية والفوائد السنية في علم آداب البحث . .

وقد توفي رحمه الله في يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذي القعدة
١٢٧٠هـ ودفن مع أهله في مقبرة الشيخ معروف الكرخي . . رحمه الله ونفع
بعلمه . .

التفسير

قدم الألويسي لكتابه بمقدمة مهمة ، بين فيها منهجه ، وحدد فيها سبب
تأليفه له ، وألمح إلى بعض مظاهر حياته ، وجوانب شخصيته فقال بعد
الحمد والثناء :

أما بعد ، فيقول عيبة العيوب ، وذنوب الذنوب ، أفقر العباد إليه عز
شأنه ، مدرس دار السلطنة العلية ، ومفتي بغداد الحمية ، أبو الثناء شهاب
الدين السيد محمود الألويسي البغدادي عني عنه .

ان العلوم وان تباينت اصولها وغربت وشرقت فصولها ، واختلفت احوالها
فهي بأسرها مهمة .

ثم بين أن اعلاها قدرا ، وأغلاها مهرا علم التفسير ، الباحث عما اراده الله
سبحانه بكلامه المجيد ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تتزيل
من حكيم حميد .

ثم قال بعد ذلك :

وأني - والله تعالى المنه - مذ ميّطت عنى التمام ، ونيّطت على رأسى العمام
لم أزل منتظبا لاستكشاف سره المكتوم ، مترقبا لارتشاف رحيقه المختوم طالما
فرقت نومي لجمع شوارده ، وفارقت قومي لوصل خرائده فلو رأيتنى وأنا
أصافح بالجين صفحات الكتاب من السهر ، واطالع - ان أعوز الشمع
يوما - على نور القمر ، فى كثير من ليالى الشهر ، وامثالى اذ ذاك يرفلون فى
مطارف اللهو ، ويرقلون فى ميادين الزهو ويؤثرون مسرات الاشباح على لذات
الارواح ، ويهبون نفائس الاوقات لنهب خصائص الشهوات ، وأنا مع حداثة
سنى ، وضيق عطنى ، لاتغرينى حالهم ولا تغرينى افعالهم ، كان لبنى لبانتى ،
ووصال سعدى سعادتى حتى وقفت على كثير من حقائقه ، ووفقت لحل وفير
من دقائقه ، وثقبت - والثناء لله تعالى - من دره بقلم فكرى درا مشمنا ، ولا
بدع فأنا من فضل الله الشهاب وأبو الثنا وقبل أن يكمل سنى العشرين جعلت
اصدح به واصدع ، وشرعت أذفع كثيرا من اشكالات الأشكال وادفع ،
وانجاهر بما الهمنيه رى مما لم أظفر به فى كتاب من دقائق التفسير ، وأعلق على
ما أعلق مما لم تعلق به ظفر كل ذى ذهن خطير ولست أنا أول من من الله تعالى
عليه بذلك ، ولا آخر من سلك فى هاتيك المسالك فكم وكم للزمان ولد
مثلى ، وكم تفضل الفرد بجز شأنه على كثير بأضعاف مثلى :

ألا أنما الأيام أبناء واحد وهذى انليالى كلها أخوات

ألا أن رياض الأعصار أعصار ، وحياض تيك الامصار اعترها

اعتصار ، فصار العلم بالقيوق والعلماء أعز من بيض الأنوق . والفضل معلق
باجنحة النسور ، وميت حي الأدب لا يرجى له نشور :

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ولكن الملك المنان - أبقى من فضلة الكثير قليلا من ذوى العرفان . في
هذه الازمان دينهم اقتناص الشوارد . وديدهم افتضاض ابكار الفوائد ،
يرون فيرمون . ويقدحون فيرون ، لكل منهم مزية لا يسترنورها ، ومرتبة
لا ينتثر نورها ، طالما اقتطفت من ازهارهم : واقتبست من انوارهم ، وكم
صدر منهم أودعت علمه صدرى ، وحرر فيهم افئيت في فوائده حبرى ، ولم
أزل مدة على هذه الحال لا أعبأ بما عبالى مما قيل أو يقال ، كتاب الله لى
أفضل مؤنس ، وسميرى اذا اخلوا لكشف ظلمة الخناوس .

نعم السمر كتاب الله أن له حلاوة هي احلى من جنى الضرب
به فنون المعانى قد جمعن فما تفر من عجب ألا إلى عجب
أمر ونهى وأمثال وموعظة وحكمة أودعت في أفصح الكتب
طائف يجتليها كل ذى بصر وروضة يجتنيها كل ذى ادب

وكانت كثيرا ما تحدثنى في القديم نفسى ، أن أحبس في قفص التحرير
ما اصطاده الذهن بشبكة الفكر ، أو اختطفه باز الالهام في جو حدس .
فاتعلل تارة بتشويش البال يضيق الحال ، وأخرى يفرط الملل وسعة المجال إلى
أن رأيت في بعض ليالى الجمعة من رجب الأصم سنة الألف والمائتين والأثنتين
والخمسین بعد هجرة النبي ﷺ رؤية لأعدها اضغاث احلام - ولا أحسبها
خيالات أوهام : إن الله جل شأنه - وعظم سلطانه امرنى بطى السموات
والأرض ورتق فتقها على الطول والعرض ، فرفعت يدا إلى السماء ، وخفضت
الأخرى إلى مستقر الماء - ثم انتهت من نومنى وأنا مستعظم رؤيتى فجعلت
اقتش لها عن تعبير ، فرأيت في بعض الكتب أنها اشارة إلى تأليف تفسير ،

فرددت حينئذ على النفس تعللها القديم وشرعت مستعينا بالله تعالى العظيم .
 وكأني إن شاء الله عن قريب عند امامه بعون عالم سرى ونجواى ، أنادى
 وأقول غير مبال بتشنيع جهول : هذا تأويل رؤياى ، وكان الشروع فى الليلة
 السادسة عشرة من شعبان المبارك من السنة المذكورة وهى السنة الرابعة
 والثلاثون من سنى عمرى جعلها الله تعالى بسنى لطفة ميسورة وهما نموذجاً من
 تفسيره : -

قال تعالى : [وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدُلُّوا بِهَا
 إِلَى الْحُكَّامِ - لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ
 تَعْلَمُونَ] .

(سورة البقرة : ١٨٨)

(ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) .

والمراد من - الأكل مايعم الأخذ والاستيلاء ، وعبر به لأنه أهم الحوائج
 وبه يحصل اتلاف المال غالباً . . .

والمعنى : لا يأكل بعضكم مال بعض ، فهو على حد (وَلَا تَلْمِزُوا
 أَنْفُسَكُمْ) سورة الحجرات : ١١ من تقسيم الجمع على الجمع ، كما فى
 « ركبوا دوابهم » حتى يكون معناه لا يأكل واحد منكم مال نفسه ، بدليل
 قوله سبحانه : (بينكم) فانه - بمعنى الوسطة - يقتضى أن يكون ما يضاف
 إليه منقسماً إلى طرفين ، يكون الأكل والمال حال الأكل متوسطاً بينهما ،
 وذلك ظاهر على المعنى المذكور ، والظرف متعلق ب « تأكلوا » كالجار والمجرور
 بعده ، أو بمحذوف حال من (الأموال) والباء للسببية ، والمراد - من
 « الباطل » الحرام ، كالسرقة ، والغضب ، وكل ما لم يأذن بأخذه الشرع .
 (وتدلوا بها إلى الحكام) عطف على تأكلوا ، فهو منهى عنه مثله ، مجزوم بما
 جزمه وجوز نصبه بأن مضمرة ، ومثل هذا التركيب وان كان للنهى عن
 الجمع إلا أنه لا ينافى أن يكون كل من الأمرين منبها عنه .

والادلاء في الاصل ارسال الخبل في البئر ثم استعير للتوصيل إلى الشيء أو
اللقاء والباء صلة الادلاء ، وجوز أن تكون سبيه ، والضمير المجرور للاموال
أى لا تتوصلوا أولا تلقوا بحكومتها والخصومه فيها إلى الحكام ، وقيل لا تلقوا
بعضها إلى حكام السوء على وجه الرشوة وقرأ أبى (ولا تدلوا) (لتأكلوا)
بالتحاكم والرفع إليهم .

فريقا : جملة .

من اموال الناس بالاثم : أى بسبب ما يوجب اثما كشهادة الزور واليمين
الفاجرة ومحتمل أن تكون الباء للمصاحبة ، أى متلبسين بالاثم ، والجار
والمجرور على الاول متعلق بتأكلوا . . وعلى الثانى حال من فاعله ، وكذلك :
(وانتم تعلمون) ومفعول العلم محذوف أى : تعلمون أنكم مبطلون .

وفيه دلالة على أن من لا يعلم أنه مبطل وحكم له الحاكم يأخذ مال يجوز
له أخذه اخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير مرسلأ أن عبد الله بن أشوع
الحضرمى وامرؤ القيس بن قابص اختصما فى أرض ولم تكن بينه ، فحكم
رسول الله ﷺ بأن يحلف امرؤ القيس فهم به ، فقرأ رسول الله ﷺ :

[إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا]

(سورة آل عمران : ٧٧)

فارتدع عن اليمين وسلم الأرض فنزلت .

واستدل بها على أن حكم القاضى لا ينقذ باطنا فلا يحل به الأخذ فى
الواقع وإلى ذلك ذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه ، وأبو يوسف محمد ،
ويؤيده ما أخرجه البخارى ومسلم عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أن رسول الله
صلى الله تعالى عليه وسلم قال : -

« إنما أنا بشر وانكم تختصمون إلى ، ولعل بعضكم أن يكون الخن بحجته
من بعض فأقضى له على نحو ما سمع منه فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا
يأخذنه فإنما اقطع له قطعة من النار» .

وذهب الامام أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه إلى أن الحاكم إذا حكم بينه
بعقد أو فسخ عقد مما يصح أن يبتدأ فهو نافذ ظاهرا وباطنا ويكون كعقد
فداء ، وإن كان الشهود زورا كما روى أن رجلا خطب امرأة هو دونها فأبت
فادعى عند على كرم الله تعالى وجهه أنه تزوجها ، وأقام شاهدين ، فقالت
المرأة لم أتزوجه وطلبت عقد النكاح فقال على كرم الله تعالى وجهه :
قد زوجك الشاهدان ، وذهب فيمن ادعى حقا في يدي وأقام بينه
تقتضى أنه له وحكم بذلك الحاكم أنه لا يباح له أخذه ، وإن حكم الحاكم
لا يبيع له ما كان قبل محظورا عليه وحمل الحديث على ذلك ، والآية ليست
نصافي مدعى مخالفه لانهم ان أرادوا أنها دليل على عدم النفوذ في الجملة فسلم
ولا نزاع فيه ، لأن الامام الأعظم رضى الله تعالى عنه يقول بذلك ، لكن فيما
سمعت والمسألة معروفة في الفروع والأصول ولها تفصيل في أدب القاضى فارجم
إليه .



حاشية الإمام الصاوي على الجلائين

والجلائين هنا هما جلال الدين المحلي ، وجلال الدين السيوطي ، وقد اشتركا في تفسير القرآن غاية في الإيجاز ، وربما كان أوجز تفسير للقرآن . أما الذي نتحدث عنه اليوم فهو حاشية العالم العلامة العارف بالله تعالى ، الشيخ أحمد الصاوي المالكي على هذا التفسير .

والشيخ الصاوي امام من أئمة علماء الأزهر ، وصوفي من كبار الصوفية ، وشيخه في الطريق هو الامام الدردير الملقب بابي البركات ، وشيخ الدردير هو الامام الأكبر الشيخ الحفني الملقب بأبي الأنوار . .

والشيخ الصاوي مالكي المذهب ، خلوق الطريقة ، من اقليم الغربية ، بلدة « صان الحجر » بمصر ، ولد سنة ١١٧٥هـ ١٧٦١ ميلادية .

وكانت وفاته بالمدينة المنورة سنة ١٢٤١هـ ١٨٢٥ ميلادية .

وله كتب ، وله حواش على بعض كتب شيخه الشيخ أحمد الدردير في فقه المالكية .

وله شرح مشهور على صلوات الدردير طبع عدة مرات بالقاهرة .

وهو يسير في تفسيره للقرآن على نمط العلماء المترين ، وعلى نهج الصوفية الصادقين المتواضعين

انه يقول مثلاً في أوائل حاشيته مفسراً منهجه وطريقته :

ويعد : فيقول العبد الفقير الذليل أحمد بن محمد الصاوي المالكي

الخلوقى :

ولما كان علم التفسير اعظم العلوم مقدراً ، وأرفعها شرفاً ومناراً . اذ هو

رئيس العلوم الدينية ورأسها ، ومبنى قواعد الشرع واساسها ، وكان كتاب الجلالين من أجل كتب التفسير ، واجمع على الاعتناء به الجهم الغفير ، من أهل البصائر والتنوير ، وجاءني الداعي الالهى بقراءته ، فاشتغلت به على حسب عجزى ، ووضعت عليه ملخصة من حاشية شيخنا العلامة المحقق المدقق الورع الشيخ سليمان الجمل ، مع زوائد وفوائد فتح بها مولانا من نور كتابه وإنما اقتصرنا على تلخيص تلك الحاشية لكوني وجدتها ملخصة من جميع كتب التفسير التي بأيدينا تنسب لنحو عشرين كتابا منها البيضاوى وحواشيه ، وحواشى هذا الكتاب . . . ومنها الخازن والخطيب والسمين وأبو السعود والكواشى والبحر والنهر والساقية والقرطبي والكاشف وابن عطية والتجبير والاتقان ، ولم انسب العبارات لاصحابها غالبا اكتفاء بنسبة الأصل ، والله على ما أقول وكيل ، وهو حسبي وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى . . .

وقد تلقيت هذا الكتاب من أوله إلى آخره مرتين عن العلامة الصوفى سيدى الشيخ سليمان الجمل وعن الامام أبى البركات العارف بالله تعالى استاذنا الشيخ أحمد الدردير ، وعن استاذنا العلامة الشيخ الامير ، وكل من هؤلاء الائمة تلقاه عن تاج العارفين شمس الدين سيدى محمد بن سالم الحفناوى ، وعن أبى الحسن سيدى الشيخ على الصعيدى العدوى ومما يرويه في مقدمته . هذا الترتيب الذى نقرؤه توقيفى .

ونزل القرآن على النبي ﷺ في ثلاث وعشرين سنة على حسب الوقائع لقول الله تعالى : -

[وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا]

(سورة الفرقان : ٣٣)

لكنه نزل لا على هذا الترتيب ، فإنه نزل عليه ثلاث وثمانون سورة بمكة قبل الهجرة وبالمدينة احدى وثلاثون على التحقيق .

فأول ما نزل بمكة : اقرأ .

وآخر ما نزل بها : قِيلَ : العنكبوت ، وقِيلَ : المؤمنون ، وقِيلَ المطففين ،
وأول سورة نزلت بالمدينة : البقرة .

وآخر سورة نزلت بها : المائدة .

وأما أول آية نزلت على الاطلاق : فأقرأ باسم ربك .

وآخر آية على الاطلاق : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » .

ومن طريق ما يقوله في مقدمته :

وعدة حروف القرآن : ألف ألف وخمسة وعشرون ألفاً .

وعدة آياته : ستة الاف وستمائة وستة وستون آية .

ونصفه بحسب الآيات قوله تعالى في سورة الشعراء :

[فَالْقَى مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ]

(الآية رقم ٤٥)

ونصفه بحسب الحروف قوله تعالى :

[لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا] (سورة الكهف : ٧٤)

فالنون من النصف الأول ، والكاف من الثاني .

ونصفه بحسب السور : الحديد . والمجادلة من النصف الثاني . .

وعدة كلماته سبعة وسبعون ألفاً وأربعمائة وخمسون كلمة .

وترتيب السور هكذا توقيفياً .

وأما وضع أسماؤها في المصاحف ، وتقسيمها إلى أعشار وأرباع . وأثلاث

وأجزاء ، وأحزاب فمن الخجاج الثقي بأخذ من الصحابة في وضع أسماء

السور . وباجتهاد منه في تقسيمه إلى ما ذكر ولذلك تجد ابتداء الربع وسط

قصة .

وكان الامام الصاوي يأخذ على الحجاج أنه لم يراع المعنى في ابتداء أرباع القرآن الكريم والنماذج التي نوردها نحاول أن تكون من خصائص الامام الصاوي .

فهو عند قوله تعالى [فَأَذْكُرُونِي أَذْكُمْ] (سورة البقرة : ١٥٢) يقول : معنى اذكروني : تذللوا لجلالي .

اذكركم : اكشف الحجب عنكم ، وافيض عليكم رحمتي واحساني ، وأحبكم ، وأرفع ذكركم في الملائكة الاعلى ، لما في الحديث : (من تقرب إلى شبرا تقربت منه ذراعا) .

وفي الحديث أيضا : إن الله إذا أحب عبدا نادى جبريل فقال له : يا جبريل ، إني أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى في السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء . ثم يوضع له القبول في الأرض . وهذا من جملة الثمرات المعجلة ، وأما المؤجلة فرؤية وجه ربه الكريم ، ورفع الدرجات وغير ذلك . . .

وينبغي للانسان أن يذكر الله كثيرا ، لقوله تعالى :
[وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا] . (سورة الاحزاب : ٣٥)

ولا يلتفت لواش ولا رقيب ، لقول السيد الحفني خطابا للعارف بالله تعالى ، استاذنا الشيخ الدردير :

يا مبتغي طرق أهل الله والتسليك
دع عنك أهل الهوى تسلم من التشكيك
أن اذكروني لرد المعترض يكفيك
فاجعل سلاف الجلالة دائما فيك

ولا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه ، فربما ذكر مع غفلة يجر لذكر

مع حضور ، لأنهم شبهوا الذكر بقدر الزناد ، فلا يترك الانسان القدر لعدم
ايقاده من أول مرة مثلاً ، بل يكرر حتى يوقد ، فاذا ولع القلب نارت
الاعضاء فلا يقدر الشيطان على وسوسته ، لقوله تعالى : -

[إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا]

(سورة الاعراف : ٢٠١)

وخفت العبادة على الاعضاء فلا يكون على الشخص كلفة فيها ، قال
العارف :

إذا رفع الحجاب فلا ملاله بتكليف الاله ولا مشقه
ويكنى الذاكر من الشرف قول الله تعالى في الحديث القدسي :

(أنا جليس من ذكرني)

وقوله تعالى : [وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ]

(الأنفال : ٤٥)

وهل الأفضل الذكر مع الناس ، أو الذكر في خلوة ؟ والحق التفصيل .
وهو ان كان الانسان ينشط وحده ، ولم يكن مدعوا من الله هداية الناس ،
فالخلوة في حقه أفضل وإلا فذكره مع الناس أفضل ، إما لينشط أو لتقتدى
الناس به .

نسأل الله أن يجعلنا من أهل ذكره .

وعند قوله تعالى :

[وَاشْكُرُوا لِي] (سورة البقرة : ١٥٢) يقول :

الحق أنه يتعدى بنفسه وباللام والمعنى واحد ، وهو من عطف الخاص على
لعام والنكتة في الذكر ، فإن المقاصد في الذكر مختلفة ، فمن قصد بذكره
لدنيا فقط فهو دني ، ومن قصد بذكره الجنة والنجاة من النار فهو اعلى من
لأول . ومن قصد بذكره شكر الله على خلقه اياه وانعامه عليه . ولم يقصد
غيره فهو من المقربين لما في الحديث : أفلا أكون عبداً شكوراً .



الأمام جمال الدين القاسمي وتفسيره محاسن التأويل

من علماء الشام الكبار المحقق المدقق العالم الجليل جمال الدين ابن محمد سعيد بن قاسم القاسمي .

ولد في سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف ونشأ في حجر والده وتلقى مبادئ العلوم الدينية والشرعية على يديه ثم تلقى سائر العلوم على كثير من علماء عصره ومن أبرزهم الشيخ بكرى العطار والشيخ عبد الرازق البيطار .

مدحه أمير البيان شكيب ارسلان فكان مما قال عنه : كان في هذه الحقبة الأخيرة جمال دمشق ، وجمال القطر الشامي بأسره في غزارة فضله وسعة علمه وشفوف حسه وذكاء نفسه وكرم اخلاقه وشرف منازعه وجمعه بين الشئائل الباهية والمعارف المتناهية .

وقد سما في العلم والفضل وعلا في سماء الشهرة والمجد حتى صار هو والشيخ عبد الرازق البيطار علمين من أعلام الشام تشابها كما يقول الأمير شكيب في سماحة الخلق ورجاحة العقل ونبالة القصد وغزارة العلم والجمع بين العقل والنقل والرواية والفهم ولم يكن في وقتها أعلى منها فكرا وأبعد نظرا وأثقب ذهنا في فهم المتون والنصوص والتمييز بين العموم والخصوص ، وكان وجودهما ضربة شديدة على الحشوية ، الفرقة المجسمة في العقائد تلك الطبقة الجاحدة التي صارت هي وأمثالها حجة على الاسلام في تدهوره ، وقال عنه الشيخ رشيد رضا :

هو علامة الشام ونادرة الايام والمجدد لعلوم الاسلام محيي السنة بالعلم والعمل والتعليم والتهديب والتأليف واحد حلقات الاتصال بين هدى السلف والارتقاء الذي يقتضيه الزمن الفقيه الاصولي المفسر المحدث الأديب المتفنن التقى الأبواب الحلیم الأواء - العفيف النزیه صاحب التصانيف الممتعة والابحاث المقنعة .

بدأ الشيخ حياته العلمية مدرساً في حياة والده فلما توفي والده تولى مكانة في خدمة امامه في جامع السنانين بدمشق ومارس نشاطه العلمي في التأليف والشرح والنقد والاصلاح حتى ازدهرت تأليفه وكثرت مصنفاة ووصل عددها إلى ما يقرب من الثمانين ما بين مخطوط ومطبوع ومن أشهرها:

- محاسن التأويل في تفسير القرآن الكريم .

- ومنها:

- فصل الكلام في حقيقة عود الروح إلى الميت حين الكلام .

- بحث في جمع القراءات المتعارف عليها .

- دلائل التوحيد .

- موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين .

- قواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث .

طريقته في التأليف:

تعتمد طريقته في التأليف على النقل الواعي من التراث الاسلامي الزاخر والاكتفاء بالترتيب والتبويب والتعقيب اللطيف أو الاستدراك الخفيف .

وكان من المعجبين بالشيخ ابن تيمية ومن اقطاب المدرسة السلفية وقد اكتسب خبرة واسعة في الاطلاع والاحاطة حتى لقد حكى عن نفسه أنه قد من الله عليه بفضلله فاسمع صحيح مسلم رواية ودراية في مجالس من اربعين يوماً

وسنن ابن ماجه احدى وعشرين يوما والموطأ في تسعة عشر يوما وطالع بنفسه
لنفسه كتاب تقريب التهذيب لابن حجر مع تصحيح سهو القلم فيه وضبطه
وتحشيته من نسخة مصححة جدا ثم قال : وهذه الكتب قرأتها اثر بعضها
فأجهدت نفسي وبصرى حتى رمدت .

ولقد ذكرنا ذلك لنعرف بهمة العالية واطلاعه الواسع وعلمه الغزير
ولشدة عنايته بالاصلاح واخلاصه في بث الدعوة ونشر الدين والحرص على
التجديد

اتهم بالدعوة إلى مذهب جديد في الدين سمي بالمذهب الجمالي وقبض عليه
وحقق معه ولكنه رد التهمة وأثبت براءته فأخلى سبيله .

ولم تخل حياته من التنقل والارتحال فرحل إلى مصر وزار المدينة وعاد إلى
دمشق فانقطع في منزله للتصنيف والقاء الدروس الخاصة والعامة في التفسير
والأدب وعلوم الشريعة إلى أن وافاه الموت في شهر رجب من سنة اثنين وثلاثين
وثلاثمائة وألف من الهجرة .
رحمه الله ونفع به .

تفسير القاسمي

إذا أحببت أن تقرأ تفسيراً كاملاً للقرآن لا تجد فيه خرافة ولا أسطورة ولا
شيئاً من الإسرائيليات المذمومة التي حشيت بها التفاسير فعليك بكتاب الإمام
القاسمي (محاسن التأويل) الذي فسر به القرآن الكريم تفسيراً يعتبر نموذجاً إلى
حد كبير . . .

وقد تحدث القاسمي في مقدمة تفسيره فقال بعد أن أثنى على القرآن :
(وإني كنت حركت الهمة إلى تحصيل ما فيه من الفنون والإكمال بأتم مطالبه
لتنوير العيون فأكبت على النظر فيه وشغفت بتدبير لاليء عقوده ودراريه

وتصفحت ما قدر لي من تفاسير السابقين وتعرفت - حين درست - ما تخللها من الغث والثمين - ورأيت كلا - بقدر وسعه - حام حول مقاصده ، وبمقدار طاقته جال في ميدان دلائله وشواهدة ، وبعد أن صرفت في الكشف عن حقائقه شطرا من عمري ووقفت على الفحص عن دقائقه قدرا من دهري أردت أن انخرط في سلك مفسريه الأكابر قبل أن تبلى السرائر وتفنى العناصر .

وقد استخار الله تعالى في تسميته وتأليفه ثم شرع في تنفيذ ما عزم عليه فكان هذا الكتاب الجليل .

وكان شروعه في هذا التفسير بعد تكرار الاستخارة في العشر الأول من شوال سنة ست عشرة وثلثمائة وألف من الهجرة وما أن تم هذا العمل الجليل حتى كان تفسيراً حافلاً في سبعة عشر مجلداً .

فسد فراغاً وحقق نفعاً للعامة والخاصة ونفع الله به المسلمين .

والناظر في هذا التفسير يجد أن مؤلفه قد أفرد جزءاً كاملاً مقدمة لتفسيره وفي هذه المقدمة يتجلى منهجه في التفسير بل في التأليف عموماً .

لقد ناقش قضايا عامة وخطيرة فيما يتصل بالتفسير ونقل كثيراً عن مشاهير العلماء في الأصول والتفسير وسائر العلوم القرآنية .

لقد تحدث عن مصادر التفسير وعد أن أصولها أربعة :

الأول : النقل عن النبي ﷺ وعلى المفسر بطريق النقل أن يحذر من الضعيف والموضوع .

الثاني : الأخذ بقول الصحابي إذ هو المعاصر للترسيل والفاهم لجو القرآن .

الثالث : الأخذ بمطلق اللغة .

الرابع : التفسير بما يقتضيه معنى الكلام ومفهوم الشرع .

ومصادر مقدمته غالباً من الشيوخ المعروفين :

الإمام الشاطبي والإمام ابن تيمية وشذرات من كلام العز بن عبد السلام .
والإمام الغزالي والراغب الاصفهاني وبعض العلماء المحدثين مثل الشيخ
محمد عبده والشيخ رشيد رضا .

لقد كان الإمام القاسمي بوفرة إطلاعه ودقة فهمه وأمانته في النقل ينتقى
أجود الأقوال فيما يختص بموضوع بحثه ثم ينقله في كتبه وعلى هذا النهج
جرى في تفسيره ، فتفسيره أشبه ما يكون بحديقة غناء لا ترى فيها إلا زرعا
ناضرا أو وردا عاطرا ولا تجد فيه ما يؤذي النفس ويشير الشعور ويمتاز هذا
التفسير الجليل زيادة على التحري في النقل وحسن الاختيار والبعد عن
الضعيف والموضوع بما يأتي :

١ - العناية بالمعاني اللغوية للمفردات وتوجيه الاعراف في سهولة ويسر
دون تفريع أو تطويل .

٢ - اعتماده في تفسير القرآن على القرآن ثم على السنة الصحيحة ثم على
أقوال الصحابة وآراء السلف الصالح .

٣ - اهتمامه بالآيات التي تحتاج إلى بحث واطالته النفس فيها وذلك أن في
القرآن آيات بينه واضحة لا تحتاج إلى بحث لأنها واضحة من ناحية المعنى .

وفي القرآن آيات واضحة ولكن بعض المفسرين قد حاول إثارة الجدل فيها
أو أخطأ في فهمها أو فسرهما بأسرائيليات أو انحرفت بها الأهواء على أي وضع
كانت ويشتد اهتمام مفسرنا بمثل هذه الآيات . . شارحا ومبينا ومحققا للحق
وكاشفا لزيف الباطل . . وينقل في سبيل ذلك عن القدماء ما يؤيد فكرته
ويتخذ من هذا التأييد كمصدر أول - القرآن نفسه فإنه يفسر بعضه بعضا
ويتخذ كذلك الأحاديث الصحيحة الشريفة عن رسول الله ﷺ كمصدر
آخر ثم ينقل عن العلماء القدامى وعن العلماء المحدثين ما يؤيد وجهة نظره ،
وهي في الأغلب الأعم وجهة نظر سليمة .

٤ - اهتمامه بذكر وجوه القراءات مع الترجيح بينها يقول في تفسير قوله

تعالى :

[فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ].

(آية ٣٦ من سورة البقرة)

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا : أى اذهبها عن الجنة وأبعدهما يقال : نزل عن مرتبته وزل عن ذلك : اذا ذهب عنك . . . وزل من الشهر كذا . . . وقال ابن جرير : فأزلهما بتشديد اللام بمعنى استزلهما . . . من قولك زل الرجل في دينه إذا هفا فيه وأخطأ فأتى ما ليس له اتيان فيه . . . وازله غيره إذ سبب له ما يزل من أجله في دينه أو دنياه . . . وقرىء (فأزلهما) بالألف من التنحية فأخرجها مما كان فيه من الرغد والنعم والكرامة .

لقد ذكر الإمام القاسمى كلا من القرائتين والمعنى على حسب كل قراءة ونقل من كلام العلماء ما يؤيد ما ذهب إليه .

أما عن العلماء الذين تأثر بهم الإمام القاسمى فأولهم الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وهويهم اهتماما واضحا بكل ما انفردا به من آراء : انه ينقل عن ابن تيمية رأيه في مجازات القرآن ، وهو من الآراء التي اشتهر بها ابن تيمية وخالف فيها كثيرا من العلماء وذكر ابن تيمية منهجه في التفسير ورأيه في مناهج المفسرين .

وتأثر في منهجه بهذا المنهج في التفسير .

ولقد أعجب القاسمى بالإمام محمد عبده ونقل عنه رأيه في وجوه التفسير وهراتبه نقلا عن مقدمة تفسير الإمام محمد عبده المشهور . . . لقد نقلها محبذا خا مقرا لكل ما فيها . . . ونستطيع أن نقول بحق : لقد تأثر القاسمى بهذا المنهج ونسق بينه وبين منهج ابن تيمية في تفسيره لكن هذا الإعجاب بالشيخ محمد عبده لم يمنعه من مخالفة الاستاذ الإمام في مسائل الملائكة وآدم وإليس والسحر وغير ذلك - لم يقل برأى الإمام في هذه الأمور وسار على رأى الجمهور في أنها حقائق وليست تعبيرا بالمثال والإرشاد والتفهيم .

ولعل هذا يكشف لنا جانبا هاما من جوانب الإمام القاسمي لقد كان يعجب بقدر وكان يتحكم فيما يختار ولا ينساق وراء الآراء تبعا لشهرة قائلها وانتشارها بين الناس .

ومن المعالم البارزة في هذا التفسير اعتناء المفسر بالربط بين الآيات المختلفة والكشف عن مظاهر الخلة في ترتيب القرآن . . في سورة البقرة مثلا يتحدث عن الانتقال من قصة آدم ودعوة بنه إلى الدين إلى الحديث عن بني إسرائيل في قوله تعالى :

[قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ] .

(البقرة : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠)

يتحدث عن الصلة بين الآيات فيقول :

ولما قدم الله تعالى دعوة الناس عموما وذكر مبدأهم . . دعا بني إسرائيل خصوصا وهم اليهود - لانهم كانوا أولى الناس - بالإيمان بالنبي ﷺ لانهم يحدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل فدعاهم تارة بالملاطفة وتارة بالتخويف وتارة بإقامة الخجة وتوبيخهم على سوء أفعالهم .

ونعود فنقول : إن التفسير تعبير حي عن الشيخ القاسمي في سعة علمه ووفرة مراجعه وحسن انتقائه وسلامة منهجه ودقته في التعبير واقتصاره على قدر الحاجة - وقد ضم عصارات الأفكار وخلاصة آراء العلماء في كثير من الآفاق العلمية والفكرية والعملية كما عبر عنها القرآن .

ومما يلاحظ على الإمام القاسمي في تفسيراته إن استمداده من الإمام ابن كثير بلغ حدا كبيرا . . انه يكاد يشبه تفسير الإمام ابن كثير في كثير من

الموضوعات في صورة تكاد تكون متقنة . . ومع ذلك فإن هذا التشابه القوي بينه وبين ابن كثير لا ينزله عن أصالته فإن هذا التشابه آت من اتحاد الرأي وتشابه الأفكار لا من النقل والتقليد.

وكما قلنا فالكتاب نخبه ممتازة يضم الأفكار القيمة والآراء الصحيحة في كل ما يتصل بالتفسير.

نموذج من تفسير القاسمي

قال تعالى :

[وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ] .
[أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ] .
[وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] .
[وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ] .

(سورة المؤمنون : ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤)

[وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ] .

أى لو كان ما كرهوه من الحق الذي هو التوحيد والعدل المبعوث بهما الرسول صلوات الله وسلامه عليه موافقا لاهوائهم المتفرقة في الباطل الناشئة عن نفوسهم الظالمة المظلمة لفسد نظام الكون لأن مناط النظام ليس إلا ذلك وفيه من شأن الحق والتنبيه على سمو مكانه ما لا يخفى « بل أتيناهم بذكرهم »

اضراب عن توبيخهم بكرايته وانتقال إلى لومهم بالنفور عما ترغب فيه كل نفس من خيرها أى ليس مكروها بل هو عظة لهم لو اتعظوا أو فخرهم أو متمناهم لأنهم كانوا يقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا من عباد الله المخلصين لفهم عن ذكرهم معرضون « أى بالتكوص عنه وأعاد الذكر تفخيا وإضافة لهم لسبقه وفي سورة الأنبياء (ذكر ربهم) لاقتضاء ما قبله له « أم تسألهم خرجا » أى جعلنا على أداء الرسالة فلا جل ذلك لا يؤمنون « فخراج ربك خير » أى عطاؤه « وهو خير الرازقين وانك لتدعوهم إلى صراط مستقيم وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون » .

أى منحرفون - قال القشاني : الصراط المستقيم الذى يدعوهم إليه هو طريق التوحيد المستلزم لحصول العدالة فى النفس ووجود المحبة فى القلب وشهود الوحدة والذين يحتجبون عن عالم التور بالظلمات وعن القدس بالرجس إنما هم منهمكون فى الظلم والبغضاء والعداوة والركون إلى الكثرة فلا جرم أنهم عن الصراط ناكبون منحرفون إلى ضده فهو فى واد وهم فى واد وقال الزمخشري : قد ألزمهم الحججة فى هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم بأن الذى أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله مخبور سره وعلنه خليق بأن يجتنب مثله للرسالة من بين ظهرائهم وأنه لم يعرض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ولم يجعل ذلك مسما إلى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذى هو الصراط المستقيم مع إبراز المكنون من أدوائهم وهو اخلاصهم بالتدبر والتأمل واستئثارهم بدين الآباء الضلال من غير برهان وتعللهم بأنه مجنون بعد ظهور الحق وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة وكراحتهم للحق واعراضهم عما فيه حظهم من الذكر .

الإمام محمد عبده وتفسيره

لعل خير ما يعرف بالشيخ محمد عبده ما كتبه عن نفسه ونقله عنه صاحب المنار في كتاب خاص سماه : تاريخ الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وفيه يقول :

عرفت أنى ابن عبده خير الله ، من سكان قرية محلة نصر بمركز شبراخيت من مديرية البحيرة ، ووقر في نفسى احترام والدى ، ونظرت إليه أجل الناس فى عيني . ومسكن من هيته فى قلبى مالا أجده لأحد من الناس اليوم عندى .

ويقول وجدت والدى يقرى الضيف . ويؤوى الغريب ، ويفتخر باكرام التزيل وذلك كان يزيد منزلته من نفسى علوا ، وأنا لا أفهم من هذا إلا أنه شىء يفخر به بدون أن أعقل له علة .. وبالجملة كنت أعتقد أن والدى أعظم رجل فى القرية وكل من فيها دونه . وهو بذلك كان أعظم رجل فى الدنيا فإن الدنيا عندى لم تكن أوسع من قرية محلة نصر .

أما والدتى فكانت منزلتها بين نساء القرية لا تنزل عن مكانة والدى ، وكانت ترحم المساكين وتعطف على الضعفاء . وتعد ذلك مجدا وطاعة لله وحمدا ، ولم أزل أجد أثر ما وعيت من ذلك فى نفسى إلى اليوم ..

أما عن تدرجه فى التعليم والطلب فيقول :

تعلمت القراءة والكتابة فى منزل والدى . ثم انتقلت إلى دار حافظ قرآن قرأت عليه وحدى جميع القرآن أول مرة . ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه فى مدة سنتين . بعد ذلك حملنى والدى إلى طنطا حيث كان أخى لأمى الشيخ مجاهد رحمه الله لاجود القرآن فى المسجد الأحمدي لشهرة

قراءته بفنون التجويد . وكان ذلك في سنة ١٢٧٩ هجرية . . ثم في سنة
احدى وثمانين جلست في دروس العلم وقضيت سنة ونصفا لا أفهم شيئا
لرداءة طريقة التعليم ، فادركنى اليأس من النجاح ، وهربت من الدرس
وحاول أخى اكراهى على طلب العلم فأبيت ، وانتهى الجدل بتغلبى عليه ،
فأخذت ما كان لى من ثياب ومتاع ، ورجعت إلى محلة نصر على نية أن لا
أعود إلى طلب العلم وتزوجت في سنة ١٢٨٢ على هذه النية .

ثم يواصل الحديث عن تدرج حياته في التعليم فيقول :
بعد أن تزوجت بأربعين يوما جاءنى والدى ضحوة نهار وأزمنى بالذهاب
إلى طنطا لطلب العلم ، وبعد احتجاج وتمنع واباء لم أجد مندوحة عن اطاعة
الأمر . . .

ولم يواصل السير إلى طنطا ، لقد تغلبت عليه نزعة الهرب من طلب العلم
والعزوف عن تحصيله فتخلف في قرية بها عدد كثير من أقاربه ، وانطلق مع
أقرانه من الشباب يلهو ويلعب وفي هذه القرية التقي بأحد أخوال أبيه وهو
الشيخ درويش .

وكان الشيخ درويش قد أخذ عن بعض الشيوخ طريقة الشاذلية ، وكان
يحفظ الموطأ . وبعض كتب الحديث ، ومجيد حفظ القرآن وفهمه ، ثم رجع
من أسفاره إلى قريته هذه ، واشتغل بما يشتغل به الناس من فلاح الأرض ،
وكسب الرزق بالزراعة .

وتدرج معه الشيخ درويش في ترويضه على العلم ، والعودة به إلى رحاب
المعرفة فأعطاه كتابا يحتوى على رسائل كتبها السيد محمد المدنى إلى بعض
مريديه بالأطراف وسأله أن يقرأ له فيها شيئا لضعف بصره ، ومازال به حتى قرأ
بضعة أسطر فاندفع يفسر له معانى ما قرأ بعبارة واضحة غلبت اعراضه
وسبقت إلى نفسه ، وقاومت نزعته إلى اللعب واللهو .

وان حى الا أيام قليلة حتى صار أبغض شيء إليه ما كان يحبه من لعب وهو

وفخفخة وزهو وعاد أحب شيء إليه ما كان يبغضه من مطالعة وفهم . . ثم
سأل الشيخ عن الطريقة فقال : الإسلام وعن الورد فقال : القرآن . ولم تمض
أيام حتى رأى نفسه يطير في عالم آخر غير الذي كان يعهد ، فاتسع له ما كان
ضييقا ، وصغر عنده من الدنيا ما كان كبيرا ، وعظم عنده من أمر العرفان
والتزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيرا وتفرقت عنه جميع الهموم ولم
يبق إلا هم واحد وهو أن يكون كامل المعرفة ، كامل أدب النفس .

ويتابع الشيخ حديثه فيقول :

وفي منتصف شوال من تلك السنة ذهبت إلى الأزهر . وداومت على
طلب العلم على شيوخه . مع محافظتي على العزلة والبعد عن الناس . حتى
كنت استغفر الله إذا كلمت شخصا كلمة لغير ضرورة وفي أواخر كل سنة
دراسية كنت أذهب إلى (محلة نصر) لأقيم بها شهرين - من منتصف شعبان
إلى منتصف شوال وكنت عند وصولي إلى البلد أجد خال والدي الشيخ
درويش قد سبقني إليه فكان يستمر معي بدراستي القرآن والعلم إلى يوم
سفري .

كان الشيخ يدارسه ويسأل ماذا قرأت ؟ ثم يوجهه إلى دراسة علوم أخرى
إني جانب ما يدرس بالأزهر كالمنطق والحساب والهندسة ، واستجابة لتوجيهه
كان يلتمس هذه العلوم عند من يعرفها فتارة كان يخطيء في الطلب وأخرى
يصيب إلى أن جاء السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر أواخر سنة ١٢٨٦ ،
فوجد عنده ما ابتغاه من العلوم وشاركه في الدعوة إلى الإصلاح ثم عرض
نفسه على مجلس الامتحان في سنة ١٢٩٤ هجرية للحصول على العالمية
فخرج منه بالدرجة الثانية ، وصار مدرسا من مدرسي الجامع الأزهر ، وأخذ
يقرا العلوم الكلامية والمنطقية وغيرها .

ومع ما وصل إليه في العلوم ظل يطلب العلم ، ويتحدث عن ذلك

فيقول :

بدأت بتعلم اللغة الفرنسية عندما كانت سني أربعاً وأربعين سنة . فبحثت
عن معلم فوجدت استاذاً لا بأس به . فتعلمت مبادئ اللغة الفرنسية .

وحصلت منها ما كان يمكنني من القراءة والفهم ، لكن ما كنت أستطيع الكلام .. سافرت بعد ذلك إلى فرنسا وإلى سويسرا عدة مرات في أيام العطلة في كلية جنيف ، وهذه الطريقة تعلمت اللغة الفرنسية في أوقات الفراغ مع اشتغالي بالقضاء في المحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف .
ونشط الشيخ في التأليف والتدريس بالأزهر وغير الأزهر فذاع صيته وطارت شهرته وعم النفع به ..

تفسيره

لم يكن التفسير عند الأستاذ الإمام بالشيء السهل ، بل كان من أصعب الأمور وأهمها .. ووجه الصعوبة فيه - فيما يرى الإمام من وجوه أهمها :
إن القرآن كلام سماوي تنزل عن حضرة الربوبية على قلب أكمل الأنبياء وهو يشمل على معارف عالية . ومطالب سامية ، لا يشرف عليها إلا أصحاب النفوس الزاكية والعقول الصافية ..

وكان الإمام في تصديه للتفسير راغبا بث الدعوة إلى أمرين عظيمين :
الأول : تحرير الفكر عن قيد التقليد . وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى . واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبثه . لئتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني ، وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم باعنا على البحث في أسرار الكون ، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة مطالبا بالتعديل عليها في أدب النفس واصلاح العمل .

الثاني : إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير . سواء كان في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها ، أو فيما تنشره الجرائد على الكافة منشئا أو مترجما من لغات أخرى أو في المراسلات بين الناس .

وللتفسير في نظر الإمام وجوه شتى :

أحدها : النظر في أساليب الكتاب ومعانيه وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة ، ليعرف به : علو الكلام وامتيازته على غيره من القول .. سلك هذا المسلك الزمخشري ، ونحا نحوه آخرون .

ثانيها : الاعراب .. وقد اعتنى بهذا أقوام توسعوا في بيان وجوهه وما تحتمله الألفاظ منها ..

ثالثها : تتبع القصص . وقد سلك هذا المسلك أقوام زادوا في قصص القرآن وما شاءوا من كتب التاريخ والإسرائيليات ، ولم يعتمدوا على التوراة والإنجيل والكتب المعتمدة عند أهل الكتاب وغيرهم . بل أخذوا جميع ما سمعوه عنهم من غير تفريق بين غث وسمين ولا تنقيح لما يخالف الشرع ولا يطابق العقل ..

رابعها : غريب القرآن .

خامسها : الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات والاستنباط منها .

سادسها : الكلام في أصول العقائد ومقارعة الزائغين . وصحابة

المختلفين . وللإمام الرازي العناية الكبرى بهذا النوع ..

سابعها : المواعظ والرقائق . وقد مزجها الذين ولعوا بها بحكايات المتصوفة

والجهاد ، وخرجوا ببعض ذلك عن حدود الفضائل والآداب التي وضعها

القرآن ..

ثامنها : ما يسمونه بالإشارة . وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية

الصوفية ..

ومن ذلك التفسير الذي ينسبونه لنشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي . وإنما

هو للقاشاني الباطني الشهير ، وفيه من التزعجات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه

العزیز .

وإذا كان الاكثار في مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج الكثيرين عن

المقصود من الكتاب الالهي ، ويذهب بهم في مذاهب تبهم معناه الحقيقي ،

فإن ما كان يعنى الإمام من التفسير هو فهم الكتاب من حيث هو دين .
وهداية من الله للعالمين ، جامعة بين بيان ما يصلح به أمر الناس فى هذه الحياة
الدنيا ، وما يكونون به سعداء فى الآخرة ، ويتبعه - بلا ريب - بيان وجوه
البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى ، وتحقيق الإعراب على الوجه الذى يليق
بفصاحة القرآن وبلاغته عند الحاجة إلى ذلك .

وللتفسير فى نظر الإمام مراتب :

أدناها : أن يبين بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتزيهه ، وينصرف
النفس عن الشر ، ويجذبها إلى الخير ، وهذه التى تيسر لكل أحد (ولقد يسرنا
القرآن للذكر فهل من مدكر) .

وأما المرتبة العليا فهى لا تتم إلا بأمر:

أحدها : فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن بحيث يجد المفسر
ذلك من استعمالات أهل اللغة ، غير مكتف بقول فلان وفهم فلان .

ثانيها : الأساليب ، فينبغى أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه
الأساليب الرفيعة ، وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته ، مع التفتن
لنكته ومحاسنة . والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه .

ثالثها : علم أحوال البشر . فقد ورد فى القرآن من الحديث عن أحوال
الخلق وقصص الأمم والسنن الإلهية فى البشر ما يجعل العلم بأطوار البشر
وأدوارهم ومناشئ اختلاف أحوالهم من ألزم الأمور .

رابعها : العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن بمعرفة ما كان عليه الناس
فى عصر النبوة من العرب وغيرهم وما كانوا عليه من العوائد .

خامسها : العلم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه ، وما كانوا عليه من علم وعمل
وتصرف فى الشئون دينيها وأخرويها .

والغرض الأول الذى دعا إليه فى قراءة التفسير ، استجماع تلك الشروط
لأجل أن تستعمل لغايتها وهى محاولة فهم المراد من القول ، وحكمة التشريع فى

العقائد والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح . ويسوقها إلى العمل
والهداية المودعة في الكلام... فالمقصد الحقيقي وراء كل تلك الشروط
والفنون هو الإهداء بالقرآن.. وفي سنة ١٣١٥ اتصل بالشيخ محمد عبده :
ان القرآن لا يحتاج إلى تفسير كامل من كل وجه . ولكن الحاجة شديدة إلى
تفسير بعض الآيات ..

ولم يزل به الشيخ رشيد رضا حتى اقنعه بقراءة التفسير في الأزهر ، وبدأ
بالدروس في غرة المحرم سنة ١٣١٧ هـ وانتهى منه في منتصف المحرم سنة
١٣٢٣ هـ عند تفسير قوله تعالى : [وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا] من
سورة النساء .

وعلى الرغم مما في تفسير الشيخ محمد عبده من محاسن . فإنه يحتاج إلى
نعقيب . ونكتفي هنا بمثال على ذلك :

انا جسيما نجل الشيخ محمد عبده . ومحترمه . وندين له بكثير من تخلص
الدين عن الخرافات والأساطير ولكن حينما نقرأ له تفسير قصة آدم . فنراه لا
يضع احتمال أنها تمثيل متساءل : لم ذكر الشيخ محمد عبده هذا الإحتمال ؟
حينما نتساءل حقيقة عن السر العميق - في الشعور وفي اللاشعور - نجد أن
الشيخ محمد عبده رأى أن فكرة التطور منتشرة في جميع أرجاء أوروبا . بل
والعالم ، وهي فيما يرى بظاهرها تتعارض مع التعاليم التي تنبئ أن آدم هو أول
البشر . وهو الذي خلقه الله وسواه . وخاطب الملائكة في شأنه وأمرهم أن
يسجدوا له .

رأى الشيخ محمد عبده أن كل ذلك لا يتلاءم كثيرا مع فكرة التطور
المزعومة فإذا صنع ؟ ذكر هذا الإحتمال . وبذلك يمكننا أن نؤلفها كيفما شئنا .
وما كنا نود أن يجيز ذلك إذ أنه يفتح للناس باب التأويل في صورة من
الاستفاضة الضارة ..

كما رأى الشيخ محمد عبده أن يفسر اختلاف رسالات الرسل وتعاقبها :

موسوية وعيسوية وإسلامية بتطور الإنسانية.

الان الإنسانية - حسباً برى - حسية فى زمن موسى . فكانت رسالة سيدنا موسى حسية .

ثم تطورت الإنسانية من الحس إلى العاطفة . فكانت رسالة سيدنا عيسى عاطفية .

ثم تطورت الإنسانية من الحس والعاطفة إلى العقل . فكانت رسالة سيدنا محمد عقلية .

ورأى أن الإنسانية لم تتطور هذا التطور وأن الإنسانية أينما سرنا وعند أى فرد رأينا ، فى أى مجتمع شاهدنا ، فإنما يتمثل فيها جوانب ثلاثة : الحسى والعاطفة والعقل . . .

ولكن فكرة التطور . وأن الإنسانية متطورة . انتهت بأن أصبحت مسيطرة على الكثيرين فانقادوا لها ، وأدخلوها فى المحيط الدينى ، فأفسدت كثيرا من القضايا . . .

ومن تفسيره :

قال تعالى :

[أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ، رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ، وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ] .

(سورة النازعات : ٢٧ . ٢٨ . ٢٩ . ٣٠ . ٣١ . ٣٢ ، ٣٣)

أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا : عود إلى خطاب أولئك المكذبين المغرورين لتقريبهم وتسفيه أحلامهم ، فى استبعاد ما يوعدون به من البعث وما يتبعه ، أو استبطاء أخذ الله لهم فى هذه الدنيا مع أنه هو الذى انشأهم وخلقهم أول مرة فإن كانوا

قد غفلوا عن أنه هو خالقهم فلينظروا إلى السماء وإلى الأرض ، فيعلموا أن من خلقها وأنشأها لا يصعب عليه خلقهم ، ولا يسعهم إنكار أن خالق السماء والأرض هو الله ، فكيف ينكرون أنه خالقهم ، وأنه القادر على إعادتهم كما بدأهم ؟ (أَشَدُّ خَلْقًا) أصعب انشاء ..

(بَنَاهَا) بيان لكيفية خلق السماء ، والبناء ضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض مع ربطها بما يمسكها حتى يكون عنها بيئة واحدة ، وهكذا صنع الله بالكواكب وضع كل منها على نسبة من الآخر مع ما يمسك كلا في مداره حتى كان منها عالم واحد في النظر سمي باسم واحد وهو السماء التي تعلونا ، وهي معنى قوله :

(رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا) والسماك قامة كل شيء ، فقد رفع اجرامها فوق رؤسنا .

(فَسَوَّاهَا) عدلنا بوضع كل جرم في موضعه (أَغْطَشَ اللَّيْلُ) أظلمه . وغطش الليل أظلم ونسبة الليل إلى السماء لأنه يكون بعقيب كواكبها (ضَحَاهَا) نورها وضوء شمسها ، قال تعالى واللهم وضحاها أي ضوؤها ، وتعاقب الليل والنهار واختلاف الفصول التابع لحركة بعض السيارات يهبط الأرض للسكنى ، وهو معنى قوله (وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ) تسوية السماء على الوجه السابق وإبراز الأضواء (دَحَاهَا) أي مهدها وجعلها قابلة للسكنى ، وذلك بأن (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا) بتفجير الينابيع والعيون والأنهار ، (وَمَرَعَاهَا) أي رعيها ، وهو النبات الذي يأكل منه الناس والدواب ، وتثبيت الجبال وجعلها مانعة من اضطراب الأرض من تنمة التمهيد واعداد الأرض لسكنى الأحياء ، وهو متأخر عن الاستعداد الأول لانيات النبات وإن كان برور الجبال سابقا على ذلك ، وقد جعل الله ذلك كله ليتمتع به الناس والأنعام أفلا يكون صانع ذلك كله هو صانعكم ؟ أفلا يكون خالقكم وواهبكم ما به تحبون ورافع السماء فوقكم ومهد الأرض تحتكم ، قادرا على بعثكم ، وهل يليق به أن يترككم سدى بعد أن دبركم هذا التدبير ، ووفر لكم هذا الخير الكثير ؟

الأستاذ رشيد رضا وتفسيره

أحد رجال الإصلاح الاسلامي : محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين القلموني المنشأ البغدادي الاصل الحسيني النسب . من الكتاب العلماء بالحديث والادب والتاريخ والتفسير . وهو صاحب مجلة المنار المشهورة التي كانت منارا للفكر والاصلاح الاجتماعي في العصر الحديث .

نشأ صاحبنا وترعرع في بلدة القلمون - من أعمال طرابلس الشام - ودرج فيها طالبا للعلم ساعيا في تحصيله فيها وفي مدينة طرابلس وجاشت عاطفته في صباه بالشعر وظهرت كتاباته في الصحف والمجلات فتمع نجمه وعرف من بين الكتاب .

وكانت مصر كنانة الله في أرضه منارا خاصا بأشهر العلماء ومنهم الأمام الأستاذ محمد عبده وطبقته من العلماء المشهورين في ذلك الوقت حتى إذا كان العام الخامس عشر بعد الألف والثلاثمائة للهجرة رحل الشيخ محمد رشيد رضا إليها واتصل بعلمائها وتتمذ على الشيخ محمد عبده الذي كان ثورة كبيرة بعلمه وآرائه الخلاقه في الإصلاح والاجتماع . ثم أصدر المجلة المشهورة التي عرفت بالمنار وذلك نبث آرائه في الإصلاح الديني والاجتماعي وأصبح الشيخ مرجع الفتيا في التأليف بين الشريعة الاسلامية الغراء والأوضاع العصرية المتجددة .

وعند ما أعلن الدستور العثماني سنة ١٣٢٦ زار الشيخ بلاد الشام لتسير آراءه وأبداء وجهة النظر الاسلامية في كثير من المسائل الهامة . وقد اعترضه - وهو على منبر الجامع الأموي بدمشق - أحد أعداء الإصلاح فكادت تكون فتنة كبيرة لولا حكمة الشيخ الذي عاد في ذلك الوقت إلى مصر .

وفي مصر نشطت حركته فأنشأ (مدرسة الدعوة والارشاد) وأمدّها بروحه القوية وكرس جهوده لخدمتها . ثم قصد سورية في أيام الملك فيصل بن الحسين وانتخب رئيساً للمؤتمر السوري فيها ثم غادرها على أثر دخول الفرنسيين إليها سنة ١٩٢٠ فأقام في مصر مدة رحل بعدها إلى الهند والحجاز واروبا وعاد فاستقر بمصر إلى أن توفي فجأة في سيارة كان راجعا فيها من السويس إلى القاهرة ودفن بالقاهرة عام أربع وخمسين وثلاثمائة وألف للهجرة النبوية .

مؤلفاته وآثاره : -

لقد غصت المكتبة العربية بمؤلفات الشيخ رشيد رضا الكثيرة ومن أشهرها :

مجلة « المنار » وقد أصدر منها ٣٤ مجلدا .

تفسير القرآن - في ١٢ مجلدا .

تاريخ الاستاذ الامام الشيخ عبده في ثلاثة أجزاء .

نداء للجنس اللطيف .

الوحي المحمدي .

يسر الاسلام وأصول التشريع العام .

المخالفة .

الوهابيين والحجاز .

محاورات المصلح والمقلد .

ذكرى المولد النبوي

شبهات النصارى وحجج الاسلام .

هذا وقد ألف الامير شكيب أرسلان كتابا في سيرة الشيخ محمد رشيد
رضا سماه « السيد رشيد رضا : أو أنا أربعين سنة »

مهجه في تفسيره :

للشيخ رشيد رضا منهج واضح في تفسيره غايته فهم القرآن ومعرفة اهدافه
وأغراضه والانتفاع بها كما اراد الله هذه الامة حتى تكون خیر امة اخرجت
للناس وعلى ذلك فالذين يفيدون من القرآن فقها وعلمًا طائفة خاصة من
الناس هم من يقول عنهم صاحب المنار :

« إنما يفهم القرآن وينفقه فيه من كان نصب عينه ووجهه قلبه في
تلاوته في الصلاة وفي غير الصلاة ما بينه الله تعالى فيه من موضوع تنزيله وفائدة
ترتيبه وحكمة تدبره من علم ونور ، وهدى ورحمة وموعظة وعبرة وخشوع
وخشية وسنن في العالم مطرده ، فتلك غاية انذاره وتبشيريه ويلزمها عقلا وفطرة
تقوى الله تعالى بترك ما نهى عنه . وفعل ما أمر به بقدر الاستطاعة : فانه كما
قال : (هدى للمتقين) .

ثم ينعي الشيخ رشيد رضا على المسلمين حظهم بسبب ما اشتملت عليه
كثير من التفاسير مما ابعدها عن مقاصد القرآن أساسا فيقول :

« كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن
مقاصد القرآن العالية ، والهداية السامية ، ففنا ما يشغله عن القرآن به لبحث
الاعراب وقواعد النحو ونكت المعاني ومصطلحات البيان . ومنها ما يصرفه عنه
بجدل المتظلمين ، وتخرجات الاصوليين واشتباكات الفقهاء المقلدين وتأويلات
المتصوفين وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض وبعضها يلفته عنه
بكثرة الروايات ، وما مزجت به من خرافات الاسرائيليات . . .

نعم ان أكثر ما ذكر من وسائل فهم القرآن . فنون العربية لا بد منها
واصطلاحات الاصول وقواعده الخاصة بالقرآن ضرورة أيضا كقواعد النحو

والمعاني . وكذلك معرفة الكون وسنن الله تعالى فيه كل ذلك يعين على فهم القرآن .

ثم يقول - مبينا ما وقع فيه غيره من المفسرين عن خرافات واضاليل اجتنبها هو في تفسيره .

وأما الروايات الماثورة عن النبي ﷺ وأصحابه وعلماء التابعين في التفسير . فمنها ما هو ضروري أيضا . لأن ماصح من المرفوع لا يقدم عليه شيء . ويليها ماصح عن علماء الصحابة فيما يتعلق بالمعاني اللغوية أو عمل عصرهم . والصحيح من هذا وذاك قليل . وأكثر التفسير الماثور قد سرى إلى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب كما قال الخافظ ابن كثير وجل ذلك في قصص الرسل مع اقوامهم . وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم . وفي تاريخ غيرهم كأصحاب الكهف ومدينة أرم ذات العباد وسحر بابل . . . وفي أمور الغيب من اشراط الساعة وقيامتها وما يكون فيها وبعدها . وجل ذلك خرافات ومفتريات صدقهم فيها الرواة . . . وكان الواجب جمع الروايات المفيدة في كتب مستقلة كبعض كتب الحديث وبيان قيمة اسانيدها . ثم يذكر في التفسير ما يصح منها بدون سند كما يذكر الحديث في كتب الفقه لكن يعزى إلى تخرجه كما نفعل ثم يقول :

وغرضنا من هذا كله أن أكثر ما روى في التفسيره حجاب على القرآن وشاغل لنا فيه عن مقاصده العالية المزكية للانفس المنورة للعقول . الفضول للتفسير الماثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات التي لا قيمة لها اسنادا ولا موضوعا . كما أن المفضلين لسائر التفاسير لهم صوارف أخرى كما تقدم .

فكانت الحاجة شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الايات الكريمة المنزلة في وصفه . وما أنزل لاجله من الانذار والتبشير والهداية والاصلاح . . . ثم العناية إلى مقتضى حال هذا

العصر في سهولة التعبير ، ومراعاة اقبال صنوف القارئ ، وكشف شبهات
المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها إلى غير ذلك مما تراه قريبا هو
مايسره الله بفضله لهذا العاجز . . .

والناظر في تفسير الشيخ رشيد رضا يجد فيه روح الشيخ الأمام محمد عبده
وكلامه واراؤه ووقفاته الكريمة لفهم كتاب الله الحكيم .

رحم الله الشيخ رشيد رضا واستاذه الامام محمد عبده وجزاهما عن
المسلمين خير الجزاء .

نموذج من تفسيره

قال في قوله : [أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ]

(سورة البقرة : ٥)

هاهنا اشارتان : والمشار إليه عند الجمهور واحد وهو ما في الايتين
السابقتين [الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ] (سورة البقرة :
٣) والذين يؤمنون بما انزل (إليك) ، من غير أهل الكتاب والمؤمنين منهم ،
وكرر الاشارة للاعلام بأنه لا بد عن تحقيق الوصفين لتحقيق الحكم بأنهم على
هدى وأنهم هم المفلحون . كما قال بعضهم وهو تكلف ظاهر وكذا قوضم : ان
تنكير « هدى » هنا للتعظيم ، وشيخنا قد جعل الاشارتين لنوعى المؤمنين
المذكورين في الآية السابقة بأسلوب اللف والنشر المرتب .

قال : ان الاشارة الأولى [أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ] في هذه
الآية للفرقة الولي : وهم الذين ينتظرون الحق لانهم على شيء منه - كما يدل
عليه تنكير « هدى » الدال على النوع ، وينتظرون بيانا من الله تعالى ليأخذوا به

وكذلك تقبلوه عندما جاءهم، فقد أشعر الله قلوبهم الهداية بما امنوا به من الغيب، وأقاموا الصلاة بالمعنى الذي سبق وانفقوا مما رزقهم الله .

وأما الفرقة الثانية: وهم المؤمنون بما جاء به محمد ﷺ فعلى هدى تشترك فيه تلك الفرقة الاولى لكن على وجه أكمل.. لأنها مؤمنة بالقرآن وعاملة به .

وقوله «على هدى» تعبير يفيد التمكن من الشيء كتمتكن المستقر عليه كقولهم: ركب هواه، ولقد كان افراد تلك الفرقة (أي الأولى) على بصيرة وتمكن من نوع الهدى الذي كانوا عليه، فان كان هذا غير كاف لاسعادهم وفلاحهم فهو كاف لاعدادهم وتأهيلهم لهما بالايمان التفصيلي المنزل ولذلك قبلوه عندما بلغتهم دعوته .

والى الفرقة الثانية وقعت الاشارة الثانية وأولئك هم المفلحون كما هو ظاهر، وهم المفلحون بالفعل لاتصافهم بالايمان الكامل بالقرآن، وبما تقدمه من الكتب السماوية واليقين بالآخرة - لا مطلق الايمان بالغيب اجمالاً... ويرشد إلى التباين بين مرجع الاشارتين ترك ضمير الفصل «هم» في الأولى وذكره في الثانية ولو كان المشار إليه واحدا لذكر الفعل في الأولى لأن المؤمنين بالقرآن هم الذين على الهدى الصحيح التام فهو خاص بهم دون سواهم لكنه اكتفى عن التنصيص على تمكنهم من الهدى بحصر الفلاح فيهم .

ومادة الفلح تفيد في الأصل معنى الشق والقطع . . ويطلق الفلاح والفلح على الفوز بالمطلوب، ولكن لا يقال: افلح الرجل إذا فاز بمرغوبة عفوا من غير تعب ولا معاناة، بل لا بد في تحقيق المعنى اللغوي لهذه المادة من السعى إلى الرغبة والاجتهاد لادراكها، فهؤلاء ما كانوا مفلحين إلا بالايمان بما أنزل إلى النبي ﷺ وما أنزل من قبله، واتباع هذا الايمان بامثال الأوامر واجتناب النواهي التي نيط بها الوعد والوعيد فيما انزل إليه ﷺ مع اليقين بالجزاء على جميع ذلك في الآخرة ويدخل في هذا كله ترك الكذب والزور وتركية النفس من سائر الرذائل كالشر، والطمع والجبن والهلع والبخل والجود والقسوة وما

ينشأ عن هذه الصفات من الافعال الذميمة : وارتكاب الفواحش والمنكرات والانغماس في شرور اللذات ، كما يدخل فيه الفضائل التي هي اصدار هذه الرذائل المتروكة ، وجميع ماسماه القرآن عملا صالحا من العبادات وحسن المعاملة مع الناس ، والسعى في توفير منافعهم العامة والخاصة مع التزام العدل والوقوف عند ما حده الشرع القويم والاستقامة على صراطه المستقيم .

وجملة القول :

أن الإيمان الذي أنزل إلى النبي ﷺ هو الإيمان بالدين الاسلامي جملة وتفصيلا فما علم من ذلك بالضرورة ولم يخالف فيه مخالف يعتد به فلا يسع أحدا جهله . فالإيمان به إيمان والاسلام لله به اسلام ، وأنكاره خروج من الاسلام ، وهو الذي يجب أن يكون معقد الارتباط الاسلامي وواسطة الوحدة الاسلامية وما كان دون ذلك في الثبوت ودرجة العلم فهو كقول إلى اجتهاد المجتهدين ، ولا يصح أن يكون شيء من ذلك مثار اختلاف في الدين .

زاد الاستاذ هنا بخطه عند قولنا « اجتهاد المجتهدين » ما نصه أودوق العارفين ، أوثقة الناقلين بما نقلوا عنه ليكون معتمدهم فيما يعتقدون بعد التحري والتحريض ، وليس لهؤلاء أن يلزموا غيرهم ما ثبت عندهم ، فإن ثقة الناقل بمن ينقل عنه حالة خاصة به لا يمكن لغيره أن يشعر بها حتى يكون له مع المنقول عنه في الحال مثل ما للناقل معه فلا بد أن يكون عارفا بأحواله واخلاقه ودخائل نفسه ونحو ذلك عما يطول شرحه ، وتحصل الثقة للنفس بما يقول القائل :

وأقول :

معنى هذا أن بعض أحاديث الاحاد تكون حجة على من ثبتت عنده واطمأن قلبه بها ولا تكون حجة على غيره يلزمه العمل بها - ولذلك لم يكن الصحابة رضي الله عنهم يكتبون جميع ما سمعوا من الاحاديث ويدعون إليها مع دعوتهم إلى اتباع القرآن والعمل به . وبالسنة العلمية المتبعة الميينة له إلا

قليلاً من بيان السنة كصحيفة على كرم الله وجهه المشتملة على بعض الاحكام
كالدية وفكاك الاسير وتحريم المدينة كمنكة .

ولم يرض الامام مالك من الخليفتين : المنصور والرشيدي أن حملا الناس
على العمل بكتبه حتى - « الموطأ » وإنما يجب العمل بأحاديث الاحاد على من
وثق بها رواية ودلالة ، وعلى من وثق برواية أحد وفهمه لشيء منها أن يأخذه
عنه ، ولكن لا يجعل ذلك تشريعاً عاماً ، وأما ذوق العارفين فلا يدخل شيء
منه في الدين ، ولا يعد حجة شرعية بالاجماع إلا ما كان من استفتاء القلب في
الشبهات والاحتياط في تعارض البيانات .



تفسير ابن باديس

وابن باديس هو عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكى بن باديس . ولد في أسرة صنهاجية من اعزق الاسر في العلم والنسب . ومكانة الاسرة في العلم يصف جانباً منها ابن خلدون حينما يقول :
انه اجتمع اربعون عمامة من أسرة باديس في وقت واحد في التدريس والافتاء والوظائف الدينية .

وهذا العدد في أسرة واحدة في وقت واحد دليل كاف على صحتها الوثيقة بالعلم والاسرة تنحدر عن الصنهاجيين الذين كانوا ملوكا وحكاما . وكان من انبهم المعزبن باديس .

ولد ابن باديس في سنة ١٣٠٨ هـ ١٨٨٩ م ميلادية وأخذ منذ الطفولة في التعليم بحفظ القرآن الكريم كما ألف الوسط الذي يعيش فيه من بدئهم بحفظ القرآن الكريم . ثم أخذ يتزود من علوم العربية وعلوم الاسلام .

ثم شد الرحال الى جامع الزيتونة بتونس الذي كان مزدهرا بالعلم والعلماء . ارتحل الى الزيتونة وهو كبير السن وقد تزود بقسط وافر من العلوم . وانتهت دراسته بها سنة ١٩١٢ ثم سافر الى الحج والزيارة . وهناك التقى ببعض الجزائريين النابيين . منهم الشيخ البشير الابراهيمي . واخذوا يتدارسون الوضع السياسي في الجزائر والاحتلال الفرنسي الجاثم على صدرها . يدبر الامر في عنف لجعلها فرنسية لغة وثقافة . واتفقوا على أن النهضة المستقرة الناجحة اما تقوم على اساس من الايمان الوثيق . وبدون الايمان لاتنجح نهضة في اشرق الاسلامي ولاتستقر .

ومن هنا كان السر في انشاء « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » سنة ١٩٣١ م وكانت سن ابن باديس اذ ذلك ٤٢ عاما .

وكان ابن باديس حلقة في سلسلة معينة من التيار الفكري الذي ينتسب اليه كثير من الذين يتجهون الى الاصلاح على نهج جمال الدين الافغانى .
وفى ذلك يقول الشيخ البشير الابراهيمى رحمه الله :

« ان هذه النهضة المباركة المنتشرة اليوم فى الاقطار الاسلامية بشير خير ، بقرب رجوع المسلمين الى هذه الهداية ، لان هذه النهضة بنيت اصولها على الدعوة الى كتاب الله وتفهمه والعمل به »

وقد كان من بواكير ثمار هذه النهضة فى باب التأليف : تفسير الامام النقاد : « محمود الالوسى » على ما فيه من تشدد فى المذهبية . وتفسير الامير « صديق حسن خان » .

ثم جاء امام النهضة بلا منازع ، وقارس الحلبة بلا مدافع الاستاذ الامام « محمد عبده » فجلا بدرسه فى تفسير كتاب الله عن حقائقه التى حام حولها من سبقه ولم يقع عليها وكانت تلك الدروس آية على أن القرآن لا يفسر الا بلسانين :

« لسان العرب ، ولسان الزمان » .

وبه وبشيخه « جمال الدين » استحكمت هذه النهضة واستمر مريرها .

ثم جاء الشيخ « محمد رشيد رضا » جاريا على ذلك النهج الذى نهجه محمد عبده فى تفسيره القرآن ، كما جاء شارحا لارائه وحكمته وفلسفته فى الدين والاخلاق والاجتماع .

ثم جاء اخونا وصديقنا الاستاذ الشيخ « عبد الحميد بن باديس » قائد تلك النهضة بالجزائر ، بتفسيره لكلام الله على تلك الطريقة وهو ممن لا يقصر عن ذكرناهم فى استكمال وسائلها من ملكة بيانية راسخة . وسعة اطلاع

على السنة وتفقه فيها وغوص على أسرارها ، واحاطة وباع مديد في علم
الاجتماع البشري وعوارضه ، والمام بمنتجات العقول ومستحدثات
الاختراع ومستجدات العمران ، بمد ذلك قوة خطابية قليلة النظير ،
وقلم كاتب لا تغفل له شباة .

ولقد مكث ابن باديس يدرس تفسير القرآن الكريم في مدى خمسة
وعشرين عاما دون فتور أو انقطاع ، وحينما اتمه كان يوم عيد في الجزائر وعن
ذلك يقول الشيخ البشير « بارك الله في عمر الاستاذ فاتم تفسير كتاب الله ببيانه
المشرق في خمس وعشرين عاما . من غير ان تخل اعماله العلمية الكثيرة . ولا
اعماله المستغرقة لدقائقه في سبيل النهضة .

وعرفت الامة الجزائرية قيمة ما اتم الله على يد الاستاذ فاحتفلت بهذا
الحتم كأعظم ماتحتفل أمة ناهضة باثر ناجح من جهودها .

وكان من الاحسان في هذا العمل العظيم ومن الاحسان للنهضة أن تسجل
من هذا الاحتفال صورة منبهة على حقيقته فصدر عدد من (الشباب) وهو
لسان حال هذه النهضة - خاصا بهذه المنقبة . مخلدا لهذا الاثر . مسجلا
لبعض أوصافه وما قيل فيه .

ونحن بما لنا من الصلة الوثيقة بهذه النهضة . ومن العمل التزر فيها نغبط
بهذه الخطوة السديدة . وهذه المرحلة الجديدة . التي تمت بنجم التفسير .

وعن ابن باديس يقول الدكتور : محمد البيه :

« والامام عبد الحميد بن باديس « رئيس جمعية العلماء بالجزائر ، وباعث
النهضة الاسلامية العربية فيها . وقائد الثورة ضد الاستعمار الفرنسي في هذه
البلاد العزيزة . واحد العلماء المصلحين المفكرين الرواد في الوطن الاسلامي
والعربي . وهم - مع الاسف - لم يكونوا كثرة في العدد وان كانوا قوة في
الاثر » .

ودخل بن باديس في صراع لا هوادة فيه مع الاستعمار والمستعمرين ، ومن
طريف ما يرويه في ذلك قوله :

« اذكر اني - ابن باديس - لما زرت المدينة المنورة ، واتصلت فيها
بشيخى الاستاذ أحمد الويسى ، وشيخى أحمد الهندي ، أشار على الاول
بالمهجرة الى المدينة ، وقطع كل علاقة لي بالوطن وأشار على الثانى ، وكان عالماً
حكماً بالعودة الى الوطن وخدمة الاسلام والعربية فيه بقدر الجهد فحقق الله
رأى الشيخ الثانى ورجعنا الى الوطن بقصد خدمته ، فنحن لانهاجر ، نحن
حراس الاسلام والعربية والقومية في هذا الوطن .



تفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربي

من فضلاء العلماء في هذا القرن : الشيخ عبد القادر المغربي الأديب العالم المتضلع من علوم اللغة ومعارف الدين .

كان له نشاط مشكور في الحركة العلمية والادبية في عصره ، اذ ضم الى حسن المحاضرة - وفرة المعلومات ، وغزارة الافكار ، ودقة الفهم ، وعمق التحرى فيما يتحدث عنه .

وقد تولى عضوية المجلس العلمي بدمشق ، والمجمع اللغوى بمصر ، وظل يتنقل بين القطرين مع امتداد رحلته الى غيرها من الأقطار .

وكان له معرفة بفضلاء عصره ، يسمعهم ويستفيد منهم ، ويقدم لهم ما عنده من العلم ويفيدهم وهو في كل ذلك لا يهدأ عن الحركة ، ولا يتوقف عن العمل .

ومن روائع كتبه ، فضلا عن هذا التفسير ، كتابه عن جمال الدين الافغانى الذى اشتمل على ذكريات نادرة محببة ، فيها كشف لجوانب طيبة ممتعة عن جمال الدين ، كما كان له آراء جيدة ، - ومواقف علمية سديدة فيما يتصل بمباحث اللغة ومشكلاتها .

أما تفسيره لجزء تبارك ، فقد كان له أسباب بعثت عليه ، وأمور وجهت نحوه ، ويتحدث هو عن ذلك في مقدمة تفسيره ، فيقول :

أما بعد : فان جزأى « عم » و« تبارك » من أكثر الاجزاء شيوعا بين طلاب المدارس ، وتداولها بين عامة المسلمين ، وأيدى صغارهم ، وآياتها أشد علوقا بالنفس ، وترديدا في الافواه ، من سائر آيات الكتاب ، فمن ثم

كانا جديرين بأن يفسر كل منهما تفسيراً حسن الوضع ، صحيح الأسلوب .
يقرب من أذهان العامة ولا تتجافى عنه عقول الخاصة فيقتصر فيه من القول
على ما يكشف الغموض عن الآيات من جهة اللغة والأعراب ، ثم يشرح فيه
المعنى المتبادر شرحاً وسطاً مجرداً عن التنطع بالمشاغبات وإيراد الخلافات
والخرافات .

وقد وضع مولانا الأستاذ الشيخ محمد عبده رحمه الله تفسيراً لجزء « عم »
توخى فيه هذا النمط والأسلوب ، فجاء من خير الكتب وفاء بالغرض ،
وإصابة لمواضع الحاجة ، فلا غرو إذا تناولته اللسان بالثناء وتلقته القلوب
بالقبول .

وقد رغب إلى بعض الفضلاء في أثناء إقامتي بمصر بين سنتي ١٣٢٣ ،
١٣٢٧ هـ (١٩٠٥ - ١٩٠٨ م) أن أضع تفسيراً لجزء « تبارك » أتوخى فيه
طريقة استاذنا الجليل فيما علقه على جزء « عم » من جهتي الصحة في التعبير ،
والاقتصار على المفيد من القول ، فقلت له : بلغني أن الأستاذ رحمه الله قد
فسر جزء « تبارك » وهو مازال في تساويد مبعثرة محفوظة عند صديقة المرحوم
« حسن باشا عاصم » .

وبعد البحث عن تلك التساويد ، علمنا أن الأستاذ لم يشرع في تفسير
جزء « تبارك » بالفعل وإنما كان هياً صحائف بيضاء رقم في رءوسها آيات
ذلك الجزء ، وتركها غفلاً من الكتابة على أمل أن - بصطحبها معه في بعض
أسفاره ، ويملاها تفسيراً وتعليقاً ، كما كان من أمره في تفسير جزء « عم » الذي
ألفه في غضون سفره إلى البلاد المغربية ، لكنه اخترمته منيته قبل أن تتحقق
أمنيته .

ثم كان ذلك الصديق الفاضل كلما زارني أوصادفني سألتني عن التفسير والح
على بالشروع فيه ، فكنت أعتذر إليه بنقص الكفاية ، وصعوبة الأمر ، وفقد
الإداة اللازمة لسلوك هذا الطريق الوعر ، ولا سيما أن تفسيري لجزء « تبارك »
لا ينظر إليه الناظرون لذاته ، من حيث نسبته إلى صاحبه ، وإنما تنعمد فيه

الموازنة بينه وبين ما كتبه الاستاذ على جزء « عم » فيحط قدره في عيون القراء ، وينسخ ظلامه بالضياء وبضدها تتميز الاشياء .

ثم ضرب الدهر ضربا ، فكان من أمره أن نزلت دمشق أول سني الحرب الاولى نزولا حسبه لاما ، فاذا هو قد استلى شهورا وأعواما ، فتجددت لي وأنا فيها دواع حفزتي لتحقيق الامل . ومباشرة ما كلفت من العمل ، فوضعت هذا التفسير مستعينا بحول الله وقوته ، وأكملته على مثال تفسير شيخنا وطريقته .

بيد أني رأيت أن أتوسع قليلا في التعليق والتفسير والاستشهاد والتنظير - ولا سيما في المباحث اللغوية - بأكثر مما فعله الاستاذ رحمه الله في تفسير جزء « عم » مراعيًا في ذلك حال قراء جزء « تبارك » ومقدرا في نفسى أنهم سيكونون أكبر سنا ، وأتم استعدادا ، وأشد اهتماما بالتحصيل من قراء جزء « عم » وقد قت في تفسيري هذا بفعل ما أطيق وأملك : من تحرى الحق والصواب فيما أولت وفسرت ، وبسط العبارة وتهديها فيما أنشأت وحررت وتصحيح النية وجعلها خالصة لوجهة الكريم فيما اخترت ورجحت .

وقد وفي الشيخ بما وعد به في مقدمة تفسيره ، ويتضح ذلك بذكر نموذج منه :

قال الله تعالى :

[وَإِنَّهُ لَتَذْكُرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ، وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ، وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ، وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ، فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ]

(سورة الحاقة : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢)

جعل ختام السورة كنتيجة للكلام السابق ، مرتبطة به أشد ارتباط ، فهو

يقول :

إذا ثبت أن القرآن وحى من الله ، لم يتقوله محمد ﷺ على ربه - كان هذا القرآن تذكرة وعظة ينتفع بها المتقون .

فضمير « وانه » يرجع الى القرآن الذى ان لم يتقدم له ذكر صريح ، فقد تقدم ما يعينه ويومئ اليه ، فان قوله تعالى :

[وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ] لم يرد به الا القرآن الذى كان يزعم المشركون أنه أقاويل وأساطير ، والله نفى ذلك واحتج على كذبهم وصدق القرآن .

وقوله « للمتقين » يريد بهم أولئك الذين صفت نفوسهم عن كدورات الاوهام ، وخلصت من شوائب الجمود والتقليد ، ومالت بفطرتها الى قبول الحق ، والاذعان له تنفى بذلك سخط خالقها ، وتحذر عقابه ، أمثال هؤلاء هم الذين استعدت نفوسهم لقبول القرآن والاستهداء به ، أما أولئك المكذبون الجامدون على ما ورثوه من آبائهم ، فان الله توعدهم بقوله :

[وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ]

وليس المراد به افادة أنه تعالى يعلم بالمكذبين فقط ، بل المراد أنه تعالى محيط بهم ، راصد لهم ، غير تارك عقابهم ، فاستعمال العلم بهذا المعنى كاستعمال المعرفة ، يقال : « أنا أعرف المحسن منكم والمسيء » أى لا يخفى على ذلك منكم ولا أغفل عن مقابلة كل بما يستحقه ، ومنه قول ابن الفارض :

« روحى فذاك عرفت أم لم تعرف » أى كافتيتى بالخشى أم لم تكافئى .

فهؤلاء المكذبون الذين يعلم الله ، وهو من ورائهم ، كيف يكون حالهم فى مستقبل الايام فى الدنيا ، اذا أظهر الله نبيه ، ونصر حزبه ، وفى الآخرة اذا أزيح الستار وبطلت الاعذار ؟ لا جرم أن تكذبتهم سيكون عليهم حسرة ، وهذا معنى قوله تعالى :

« وانه لحسرة على الكافرين » فضمير « انه » يرجع الى التكذيب المفهوم

من قوله « المكذبين » ومراده « بالكافرين » نفس المكذبين المذكورين قبله .
وكان الظاهر الاضمار ، أى أن يقول « وانه لحسرة عليهم » لكنه أتى بالاسم
الظاهر ليتناول به وصفا جديدا لهؤلاء المكذبين وهو كونهم كافرين ويحتمل أن
يرجع ضمير « وانه » الى القرآن أى القرآن سيكون حسرة على المكذبين فى
الدنيا اذا ظهرت تعاليمه وانتشر فى الخائفين نوره ، أو فى الآخرة اذا رأوا نجاة
المصدقين به ، المتمسكين بحبله ، وعود ضمير « وانه لحسرة » على القرآن
أنسب ، وبذلك ينتظم شمله مع ضمير « وانه لتذكره » الذى قبله وضمير ،
« وانه لحق اليقين » الذى بعده فانها للقرآن .

ومعنى « وانه لحق اليقين » ان القرآن هو اليقين . أى الحق الثابت الذى
لاشبهه فيه ولا ريب ، والجملته من مقوله تعالى ، يثبت بمضمونها قلب نبيه
ﷺ ، فلا يلين فى الدعوة ولا يضعف عزمه لتكذيب أولئك المكذبين ورميهم
له بمختلف التهم وملفق الدعاوى .

ومعنى « فسبح باسم ربك العظيم » اذا كان من عاقبة المكذبين ما ستعلمه
يا محمد وسيعلمونه هم ، وكان القرآن وخيا من الله يقينا لم يبق الا ثباتك فى
أمرك ومضيك فى ماندبت له من تبليغ رسالتك ، واستعن على مهمتك هذه
بتسبيح ربك ، والشكر له ، على أن اختصك بكرامة النبوة . وعلو المرتبة .
فهو ربك الذى أحاطك بعنايته ، والعظيم الذى يصغر كل شىء اذا قيس
بعظمته ، وهو تعالى وحده الذى يجب أن تسبحه وتشكر له . وترجوه وتخافه ،
ودع عنك أولئك المكذبين جانبا .

التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور

والشيخ المفسر توفى منذ عامين تقريبا ، وهو من بيت عريق في العلم والنسب في ضواحي تونس العاصمة .

تعلم في صاحيته التي نشأ فيها القرآن حفظا وتجويدا وقراءات . وتعلم شيئا من العربية ثم التحق بالزيتونة . والزيتونة تنافس الأزهر فيما مر بها من قرون . وهي مسجد من المساجد العتيقة التي نشرت العلم على نطاق واسع . والتي علت فيها كلمة الله في مختلف العصور .

التحق الشيخ محمد الطاهر بالزيتونة في أوائل هذا القرن الهجري . ونبغ في العلوم الإسلامية على مختلف ألوانها ، واستمر حتى انتهى من الدراسة في أرقى مستوياتها وتخرج من الزيتونة ليعمل في مختلف المناصب ائدينية .

ولم يكن عمله في هذه المناصب عرّ حاجة مادية ، وإنما كان عمله رسالة آمن بها ، وقد أسس نفسه لها تأسيسا أصيلا . وساعده على ذلك هذه المكتبة الضخمة التي تضم نوادر المخطوطات ونفائس المطبوعات . في مختلف الفنون الإسلامية . وكانت ميراث اجيال من ذوى العلم في أسرته وهي من المكتبات المشهورة في العالم .

وقد أسهم الشيخ رحمه الله اسهامًا فعالاً في الحركة الوطنية بتونس . وكان زميلاً من زملاء الجهاد مع الشيخ الأكبر محمد الخضر حسين التونسي الذي تولى مشيخة الأزهر بمصر . .

كلاهما كان عالما ممتازا ، وعلى ايمان قوى ، ودخلا السجن ، ونالا من المتاعب في سبيل وطنهما ودينهما الكثير . .

ولم تكن هذه المتاعب من المستعمر فحسب ، وإنما كانت أيضا من الذين يصطنعهم المستعمر والذين يوجدون في كل قطر من ذوى النفوس الخسيسة ، ولكن الله كان معها . فقد هيا سبحانه للشيخ الخضر مشيخة الاسلام في مصر ، وهيا للشيخ الطاهر مشيخة الاسلام في تونس وكان قد تولى قبلها القضاء ثم تولى الافتاء .

ولكن الشيخ الطاهر اضطرته الظروف للالتحام في معركة من معارك الرأى الاسلامى في تونس مع ذوى الرئاسة اذ ذاك : -

لقد انتصر لدينه قوة ، وانتصر في أمر هو من أصول الدين ومن بدهياته وأعلن الشيخ رأى الدين في صراحة ، وفي وضوح ، وفي قوة ، لم يدار ، ولم يداهن ولم يتملق .

فلما رأى الحاكمون أنه لم تجد معه الرهبة ، ولم تفد معه الرغبة ، أصبح أهل تونس يرون في الصحف أنه أخرج من مشيخة الاسلام .

وكان هذا أقل ما يتوقع بالنسبة له . . .
فالتزم بيته يدرس ويكتب . ويستمتع بالنفائس التى تضمها مكتبة الاسرة ، وكان يفكر منذ زمن بعيد أن يكتب تفسيرا ، وفي ذلك يقول : -
كان أكبر امينى منذ أمد بعيد تفسير الكتاب المجيد ، الجامع لصالح الدنيا والدين . . .

ويقول : -

ولكنى كنت على كلنى بذلك اتجهم التقحم على هذا المجال . واحجم عن الترج في هذا النضال ، اتقاء ماعسى أن يعرض له المرء نفسه من متاعب تنوء بالقوة وقلبات سهام الفهم وأن بلغ ساعد الذهن كمال الفتوة ، فبقيت اسوف النفس مرة ومرة ، اسومها زجرا ، فان رأيت منها تصميا احلتها على فرصة أخرى ، وأنا آمل ان يمنح من التيسير مايشجع على قصد هذا الغرض العسير . . .

وفيا انا بين اقدم واحجام ، اتخيل هذا الحقل مرة القناد وأخرى الثمام ،
اذا انا باملى قد خيل الى أنه تباعد أو انقضى ، اذ قدر ان تسند الى خطة
القضا ، فبقيت مثلها ولات حيت مناصر ، واضمرت تحقيق هاته الامنية
متى اجمل الله الخلاص .

وكنت احادث بذلك الاصحاب والاخوان ، واضرب المثل بأبي
الوليد بن رشد في كتاب البيان ولم ازل كلما مضت مدة يزداد التمني وارجو
انجازها ، الى أن اوشك ان تمضي عليه مدة الحياة فاذا الله قد من بالنقله الى
خطة الفتيا ، وأصبحت الهمة مصروفة الى ماتصرف اليه المهم العليا ، فتحول
الى الرجاء ذلك الياس ، وطمعت أن أكرن ممن أوتي الحكمة فهو يقضى بها
ويعلمها الناس . . .

هنالك عقدت العزم على تحقيق ماكنت اضمرته ، واستعنت بالله تعالى
واستخرته ، وعلمت أن ما يهول من توقع كلل أو غلط ، لا ينبغي أن يحول
بينى وبين نسج هذا النمط ، اذا بذلت الوسع من الاجتهاد ، وتوخيت طرق
الصواب والسداد . . .

اقدمت على هذا المهم اقدم الشجاع على وادى السباع ، متوسطا في
معتك انظار الناظرين . . .

ويتحدث المؤلف عن التفاسير التي تقدمت تفسيره ، فيتحدث عن أخذ
بعضها من بعض ويقول :

والتفاسير - وأن كانت كثيرة - فانك لا تجد الكثير منها الاعالة على كلام
سابق بحيث لاحظ لمؤلفه الا الجمع على تفاوت بين اختصار وتطويل .

وان أهم التفاسير تفسير الكشاف ، والمحزر الوجيز لابن عطية ، ومفاتيح
الغيب لفخر الدين الرازي ، وتفسير البيضاوي الملخص من الكشاف ومن
مفاتيح الغيب بتحقيق بديع وتفسير الشهاب الالوسي ، وما كتبه الطيبي
والقزويني والقطب والتفتازاني على الكشاف وما كتبه الحفاجي على تفسير

البيضاوى ، وتفسير ابى السعود ، وتفسير القرطبي والموجود من تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسى من تقييد تلميذه الابى ، وهو بكونه تعليقا على تفسير ابن عطية اشبه منه بالتفسير ، لذلك لاياتى على جميع اى القرآن وتفسير الاحكام ، وتفسير الامام محمد بن جرير . . الطبرى وكتاب درة التزليل ، المنسوب لفخر الدين الرازى ، وربما ينسب للراغب الاصفهانى . .

ويتحدث المؤلف عما يمتاز به تفسيره فيقول :

فجعلت حقا على أن أبدى في تفسير القرآن نكتا لم أر من سبقنى إليها ، وأن اقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها ، واونة عليها . . فان الاقتصار على الحديث المعاد ، تعطيل لفيض القرآن الذى ماله من نفاذ . . لقد رأيت الناس حول كلام الاقدمين أحد رجلين : -

رجل معتكف فيما شاده الاقدمون ، وآخر أخذ بمعوله في هدم ماضت عليه القرون وفي كلتا الخالتين ضرر كثير . .

وهناك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير ، وهى أن تعتمد الى ما اشاده الاقدمون فنهبه ونزیده ، وحاشا ان ننقضه أو نبيده ، علما بأن غض فضلهم كفران للنعمة ، وجحد مزايا سلفها من حميد خصال الأمة ، فالحمد لله الذى صدق الامل ، ويسر الى هذا الخير ودل . .

ولقد اهتم في تفسيره فضلا عن ذلك ببيان وجوه الاعجاز ، ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال .

واهتم أيضا ببيان تناسب اتصال الاى بعضها ببعض ، وهو مترع جليل قد عنى به فخر الدين الرازى ، والى فيه برهان الدين البقاعى كتابه المسمى « نظم الدرر » فى تناسب الاى والسور الا أنها لم ياتيا فى كثير من الاى بما فيه مقنع ، فلم تزل انظار المتاملين لفصل القول تتطلع أما البحث عن تناسب مواقع السور بعضها اثر بعض فلا اراه حقا على المفسر .

ولم اغادر سورة الا بينت ما احيط به من اغراضها لثلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصورا على بيان مفرداته ، ومعاني جملة ، كأنها فقر متفرقة ، تصرفه عن روعة انسجامه ، وتحجب عنه روائع جماله . . .

واهتمت بتبين معاني المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق ماخلت عن ضبط كثير من قواميس اللغة .

وعسى ان يجد فيه المطالع تحقيق مراده ، ويتناول منه فوائد ونكتا على قدر استعداده ، فاني بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن واعجازه خلت عنها التفاسير ومن أساليب الاستعمال الفصيح ماتصبو اليه النحارير ، بحيث ساوى هذا التفسير على اختصاره مطولات القهاطير ، ففيه أحسن مافي التفاسير ، وفيه أحسن مما في التفاسير . . .

اما اسم التفسير فانه يقول عنه :

وسميته تحرير المعنى السديد ، وتنوير العقل الجديد ، من تفسير الكتاب الجيد .

واختصرت هذا الاسم باسم التحرير والتنوير من التفسير .

ومن نماذج هذا التفسير مايلي : -

قوله تعالى : [وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ

الرَّاكِعِينَ] (سورة البقرة : ٤٣)

امر بالتلبس بشعار الاسلام عقب الامر باعتقاد عقيدة الاسلام ، فقوله : (وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ) الآية راجع الى الايمان بالنبي ﷺ ، وما هو وسيلة ذلك وما هو غايته . . .

فالوسيلة : [اذْكُرُوا نِعْمَتِي - الى - فَأَرْهَبُونَ]

والمقصد : [وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ]

والغاية : [وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ]

وقد تخلف ذلك نهى عن مفاصد تصدهم عن المأمورات ، مناسبات
للاوامر ، فقله (واقموا الصلاة) الخ . . . أمر بأعظم القواعد الاسلامية
بعد الايمان والنطق بكلمة الاسلام وفيه تعريض بحسن الظن باجابتهم ،
وامثالهم للاوامر السالفة ، وانهم كملت لهم الامور المطلوبة . . .

وفي هذا الامر تعريض بالمنافقين ، ذلك أن الايمان عقد قلبي لا يدل عليه
الا النطق ، والنطق اللساني امر سهل قد يفتحه من لم يعتقد اذا لم يكن
ذاغلو في دينه ، فلا يتحرج أن ينطق بكلام يخالف الدين ، اذا كان غير
معتقد مدلوله ، كما قال تعالى : [وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا
آمَنَّا] (سورة البقرة : ١٤)

ولذلك امروا بالصلاة والزكاة ، لان الاولى عمل يدل على تعظيم الخالق
والسجود اليه وخلع الآلهة ، ومثل هذا الفعل لا يفعله المشرك لانه يغيظ الهته
بالفعل ويقول : الله اكبر ولا يفعله الكتابي لانه يخالف عبادته ، ولان الزكاة
انفاق المال وهو عزيز على النفس فلا يبذله المرء في غير ما ينفعه الا عن اعتقاد
نفع آخرى لاسيما اذا كان المال ينفق على العدو في الدين فلذلك عقب الامر
بالايمان بالامر بإقامة الصلاة وابتاء الزكاة ، لانها لا يتجشمها الا مؤمن
صادق ، ولذلك جاء في المنافقين : [وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا
كُسَالَى] (سورة النساء : ١٤٢) وقوله : [فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ
عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ] . . . (سورة الماعون : ٤ ، ٥)

وفي الصحيح أن صلاة العشاء اثقل صلاة على المنافقين . . .
وقوله [وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ] تأكيد لمعنى الصلاة ، لان لليهود
صلاة لاركوع فيها ، فلكى لا يقولوا إننا نقيم صلاتنا دفع هذا التوهم بقوله :
واركعوا مع الراكعين . . .

الشيخ المراغى وتفسيره

ان المفسر الذى نتحدث عنه ليس هو المرحوم الشيخ احمد مصطفى المراغى صاحب التفسير الكامل للقرآن الكريم المسمى : « تفسير المراغى » .
وانما هو الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الازهر الاسبق ، وقاضى قضاة السودان الاسبق ، وقد ولد رحمه الله تعالى بقريه « المراغة » سنة ١٢٩٨ هـ -
وذلك يوافق سنة ١٨٨١ م ، واخذ يتعلم القرآن وشيئا من العربية فى قريته ،
ولما استأهل لأن ينتسب الى الازهر سافر الى مصر والتحق بالازهر .
واظهر نبوغا وذكاء وجدا فى التحصيل والدرس ولازم دروس الاستاذ
الامام الشيخ محمد عبده ، ونهل من معينه ، وهو يعد من مدرسته .
ونال شهادة العالمية فى سنة ١٩٠٤ على حداثة سنه ، فلم تكن العادة فى
الازهر ان ينال الانسان العالمية فى سن الخامسة والعشرين ، وربما كان اذ ذلك
اصغر من نال شهادة العالمية .
وفى السنة نفسها عين قاضيا فى السودان فى بلدة « دنقلة » واخذ ينتقل فى
مناصب القضاء فى السودان حتى عين قاضى قضاة السودان .
وكان الشيخ فى هذا المنصب الذى يعتبر اكبر منصب دينى فى السودان
باحتفاظ للمنصب بكرامته وللإسلام بعزته .
ولقد كان الانجليز اذ ذلك متصرفين فى السودان فى كل كبيرة وصغيرة ،
وكان مندوبهم الانجليزى اكبر شخصية هناك .
وفى يوم من الايام اقيم احتفال دينى ، وكانت العادة ان يجلس قاضى
القضاة على يمين المعتمد الانجليزى ويتصدر المعتمد الحفل ، ولكن الشيخ

المراغى اتى الى الحفل وتصدر المجلس ولم يكن هناك بد من أن يجلس المعتمد على يمينه او ان ينسحب الشيخ الجليل فتحدث ثورة الانجليز في غنى عنها .
وجلس المعتمد البريطانى فى المكان الثانى واحتفظ الشيخ بكرامته كقاضى القضاة وقد ظل الشيخ فى منصب قاضى القضاة حتى سنة ١٩١٩ ثم جاء الى مصر وعين فى سنة ١٩٢٠ رئيسا للمحكمة الشرعية العليا .

وجاء حدث فى اثناء تولية رئاسة المحكمة ان قضية ميراث ضخمة عرضت على المحكمة ودرسها الشيخ بما تستحق من عناية ودقة ، سهر فيها ليلا ، واطال النظر فيها نهارا حتى استبان له الحق من الباطل ، والزيف من الصواب ، وعلم اهل الباطل اتجاه الشيخ فارادوا عرقلة ذهابه الى المحكمة فرشوه وهو فى طريقه الى المحكمة بماء الناس ، وقدر الله ان تكون المسألة خفيفة فاصر الشيخ على الذهاب الى المحكمة معارضا كل ما اراده اصدقائه من عدم الذهاب وحكم الشيخ بما رآه الحق .

وللشيخ امثال هذا كثير .

وفى مايو سنة ١٩٢٨ عين شيخا للازهر ، عين وسنه ثمانية واربعون عاما فكان اصغر شيخ عين شيخا للازهر .

وبدا الشيخ فى قوة يعلن عن مبادئه فى الاصلاح بمذكرة مدوية اثار الكثير من الجدل والنقاش والمعارضة ، واشتد الامر حتى لقد آثر الشيخ ان يدع العمل وبقى قرابة ست سنوات بعيدا عن الازهر حتى عاد اليه مكرما معززا فى سنة ١٩٣٥ واستمر به حتى وافاه القدر المحتوم فى رمضان سنة ١٣٦٤ هـ .

والتفسير الذى نعينه هنا ليس تفسيرا متكاملا ، وانما هو تفسير السور او لاجزاء من بعض السور ، ونشر عدة مرات فى الازهر ، وفى احد اعداد كتاب الهلال .

وها هو نموذج من التفسير :

[وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ

أَعْيُنٍ ، وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا] . (الفرقان : ٧٤)

قُرَّةُ العين : هي السرور والفرح ، مصدر من قرت عينك قررة ، اي فرحت وسررت ، لأن الفرحة يجعل العين قارة ، اولاً لأن دمة العين من السرور باردة .

والامام : الحجة المقتدى به ووحدت لانها مصدر ، ولا تكاد العرب تجمع المصادر ووحد الامام لانه ذهب به مذهب الاسم لا الصفة ، واذا ذهب به هذا المذهب وخذ ، ويكون معناه : حجة ، تقول : هم امام - اي حجة ، كما تقول : هم بينة ، وقال بعضهم : ان الامام جمع آم ، كصيام في جمع صائم .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمة جاهلة ، على اشد حالة بعث عليها نبي في فترة ، ما يرون ديننا افضل من عبادة الاوثان ، فجاء بفرقان فرق بين الحق والباطل ، وفرق بين الوالد وولده ، حتى كان الرجل يرى ولده ووالديه واخاه كافرا وقد فتح الله قلبه للاسلام ، وهو يعلم انه ان مات قريب له من هؤلاء دخل النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم ان حبيبه في النار ، لذلك كان المسلمون يطلبون من الله ان يهب لهم من ذرياتهم وزوجاتهم من يطيع الله ويعبده لتقر عينهم بهذا ، ومن الطبيعي في النفوس ان يحب الشخص لذريته واهله ما يحب لنفسه ، وان يتمنى الا تكون البيئه التي هو فيها تجعل العيش مريرا . وتذهب بالفكر وتقسمه ، فلا يستقيم عيش ، ولا تتجه النفس انجاها كاملا الى الخيرات والعبادات والنفع العام .

من صفات عباد الرحمن ان يطلبوا ذرية صالحه مؤمنة وازواجا مؤمنات ، ومن صفاتهم ان يطلبوا من الله زوجات عاليات في التقوى والطاعة يشار اليها :

[أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا

خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا [(سورة الفرقان : ٧٥ و٧٦)

الغرفة : العلية ، وكل بناء عال فهو غرفة ، وقد ذكرت الغرفة واحدة والمراد الغرفات . للدلالة الواحدة على الجنس بدليل قوله سبحانه :

[وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمُنُونَ] (سورة سبأ : ٨٧)

وقوله : [لَهُمْ غُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ]

(سورة الزمر : ٢٠)

والمراد بها الدرجات العالية في الجنة والتحية : الدعاء بالتعمير ، والسلام : الدعاء بالسلامة .

بين الله سبحانه انه اعد لعباده الموصوفين بالصفات السابقة جميعها جزاء على صالح اعمالهم هو الدرجات العالية في الجنة ، وفيها تلتقاهم الملائكة بالتحية والسلام فيدعون لهم بالتعمير والخلود ، ويدعون لهم بالسلامة ، هذه الدرجات استحققتها هؤلاء بصبرهم على الطاعات وعلى ترك الشهوات ، وعلى اذى الكفار ومجاهدتهم ، وعلى الفقر والمصائب ، وغير ذلك مما يعرض للمؤمن من المكروه ، وهذا دليل على ان المؤمنين يستحقون الجنة باعمالهم ، وهذا الاستحقاق بوعد الله سبحانه ، وهو صاحب الفضل في وعد عباده بالجنة وبهذا الوعد استحققت الجنة .

يقول تعالى : [مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فِضَاعِفَهُ

لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ] (سورة الحديد : ١١)

القرض : ما يدفع من المال على شرط رده ، واذا وصف الله بالكرم فعناه احسانه وانعامه الظاهران .

واذا وصف الانسان بالكرم فهو اسم للافعال والاخلاق الحمودة التي تظهر عليه . ولا يقال هو كرم حتى يظهر ذلك منه ، وكل شيء شرف في بابه يقال له كرم .

سمى الله سبحانه قرضا ما ينفق في سبيله وفي وجوه الخير ابتغاء مرضاته .
والقرض - كما سبق بيانه - ما يعطى على شرط الرد ، ففي ذلك دلالة
على انه سيرده الى المنفق ، ثم ذكر صراحة انه سيعطيه اجرا كريما وانه
سيضاعف هذا الاجر الكريم ، ولا يوجد ما هو ابلغ في الحث على الصدقة
والاحسان من هذا التعبير يقول الله سبحانه : هذه يدي بسطتها اريد قرضا
سارده وسأجزى عليه لكل كريما مضاعفا ، فمن يسمع هذا ولا يبادر الى
الاجابة ويتم عقد القرض مع الله ؟

فالجملة مسوقة مساق التمثيل ، واثرها ظاهر في النفس ، وهي ابلغ من كل
عبارة تقال في الحث على الصدقة ، وقد ذكروا ان يهوديا قال عند نزول هذه
الآية : ما استقرض اله محمد حتى افتقر ، فلطمه ابوبكر ، فشكا اليهودى الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لابي بكر : ما اردت بهذا ؟ قال : ما
ملك نفسي ان لطمته ، ولم يقلها اليهودى الا استهزاء وحمقا وجهلا .
وقد ذكروا في شروط القرض الحسن وجوها :

ان يكون حلالا ، فان الله طيب لا يقبل الا الطيب ، وان لا يكون رديثا
وان يعطى للاحوج فالاحوج ، وان يكتم الصدقة ولا يتبعها المن والاذى ،
وان يقصد بها وجه الله دون الرياء ، وان لا يستكثرها وان كانت كثيرة ، وان
تكون من المال المحجوب عنده وان لا يرى لنفسه عزة الغنى ويرى للفقير ذلة
الفقر ، وان يكون الانفاق في حال رجاء الحياة وطول الامل .

وقد اكثر الله سبحانه في القرآن من الحث على الصدقات وباساليب
مختلفة ، وفي سورة البقرة طائفة من الايات نورد بعضها هنا تمة لموضوع
الصدقة .

[الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا
انْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا

هُمْ يَحْزَنُونَ ، قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى
وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ] .

[وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ
أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ،
فَإِنْ لَمْ يُمْسِكْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] .

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا
أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ
بِأَخْذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ]

[إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُوتُوهَا
الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ] .

[وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ
اللَّهِ . وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ] .

(سورة البقرة : ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٢)

ففي هذه الايات ترغيب في النفقة ، وفيها شروط القرض الحسن التي ، مر
ذكرها وهناك احاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرغبة في الصدقة ،
وكل هذا يدل على روح الاسلام وانه وجه للتعاود والتناصر ، تحقيقا للوحدة
التي يبتغيها ، وتزهيدا في المال اذا وجدت مصارفه ، وبيان موضوع الحق فيه .

وهذا يدل على قيمة المال ، وعلى ان له قدرا عظيما ، فانه وسيلة الى
تحصيل الاجر العظيم من الله ، ووسيلة الى ان يعقد المؤمن مع الله قروضا .

وهو وسيلة في اعزاز البلاد واعزاز الدين اذا ما تعرض المسلم للجهاد ، فلا يجوز التزهيد في المال على معنى عدم طلبه وعدم جمعه وانما يكون التزهيد فيه على معنى عدم جمعه وحبه الحب الموجب للادخار وكيف يزهد في المال مع ان الله وعد منفقته بالاجر العظيم ، وبالامن والمسرة حيث قال : [لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ] .

استمر السلف الصالح يفهمون هذه الآيات ويعملون بها ، فصانوا بلادهم وانفسهم وايدوا الوحدة الاسلامية والتضامن بين افراد الامة وقويت الروابط بينهم . فلم يحقد الفقراء على الاغنياء ولم ينظر الاغنياء الى الفقراء نظراً المدلل الفخور .

ثم نسي ذلك وقست القلوب . فظلم الناس في جمع المال . وظلموا في ادخاره . ولا سبيل الا بالرجوع الى الله وكتابه ، ولا فلاح الا بالايان والتقوى والانفاق في سبيل الله .



تفسير الشيخ محمود شلتوت

كان الشيخ شلتوت رحمه الله من الشخصيات التي لا تهدأ : كان حركة وبحثا وانتاجا وجدلا هنا وهناك .

وكان لا يحب الروتين في عمله ، وكان يتسم دائما بسمة التجديد ، والناس حينما يألون شيئا يعتقدون أنه حقيقة ويستكينون إليه ، ويرضون به ، فاذا ما انسان خطأ بعض مفاهيمهم ، وقلب بعض الأوضاع التي يسبرون عليها ، فأنهم لايسكتون عنه وإنما يشتبكون معه في جدال ونقاش ، قد يكون أحيانا حادا عنيفا ، كذلك كان الامر مع الشيخ شلتوت وقد اشتبك في معارك علمية كثيرة وهاجم ودافع وكان له أنصار وكان له خصوم .

ولم تكن حياته بسبب ذلك هادئة رخاء ، فقد فصل في يوم من الأيام من الأزهر لأنه مجدد ومخرج ، وثار على الأوضاع المعروفة ، واستمر فصله مدة طويلة ، ثم اعيد إلى الأزهر من جديد فلم يترك منهجه في السلوك . وهو أول من اقترح على الاذاعة أحاديث الدين الصباحية ، ورأى القائمون على الاذاعة وجاهة الاقتراح فعهدوا إليه بالامر فترة طويلة من الزمن ، وكان صوته يجلجل كل صباح متسا بالحيوية القوية ، والاسلوب الطيب ، والفكرة الجديرة بأن تسمع .

واشترك مع غيره من علماء الدين النابيين في التقديم للقرآن الكريم حينما يتلى في الاذاعة وكان هذا تجديدا أيضا في برامج الاذاعة وكان هذا التقديم متابعا متاليا يقدم الربع من القرآن الكريم ، ثم يقرأ القارئ فيكون المستمع على علم بمضمون ما يسمع من التلاوة .

وكان مركز الشيخ شلتوت يقوى ويتركز يوما فيوما حتى وصل به الامر إلى مشيخة الأزهر .

وولد الامام الاكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الازهر السابق في قرية منية
بنى منصور بمحافظة البحيرة سنة ١٨٩٣ ودرس العلم بمعهد الاسكندرية
الديني . . واستمر في طريق التعليم مرحلة بعد مرحلة حتى نال شهادة العالمية
النظامية سنة ١٩١٨ .

هذا عن تعليمه :

أما عن تدرجه في الاعمال فقد عمل مدرسا بمعهد الاسكندرية ، ثم
انتقل إلى التدريس بالقسم العالي . . وعمل بعض الفترات بالمحاماه ، ثم نال
عضوية جماعة كبار العلماء سنة ١٩٤٢ وتدرج في مناصب الازهر حتى اختير
شيخا للازهر سنة ١٩٥٨ .

وكان له نشاط بارز في البحوث الدينية والمؤتمرات العلمية ومجال التأليف
الذي كان أنضج ثمراته تفسير القرآن الكريم .

ويمثل تفسير الشيخ شلتوت الدراسة العلمية الموضوعية التي تجعل القرآن
اصلا للبحث وأساسا للتشريع ، فيجمع إلى الآية التي يقصد تفسيرها ما يناسبها
من آيات وما يرتبط بها من موضوعات العلوم ، ثم يعالج موضوع الآية
معالجة عامة شاملة تبرز موقف القرآن بل الدين عامة من هذا الموضوع .

ويمتاز هذا التفسير بوضوح الفكرة وسهولة الاسلوب وجمال التنظيم .

وقد اعتبره مؤلفه مظهرا من مظاهر نشاط المسلمين في خدمة القرآن
الكريم وقد تحدث في مقدمته عن جهود المسلمين في خدمة القرآن فقال :

« لانكاد نعرف علما من العلوم التي اشتغل بها المسلمون في تاريخهم الطويل
إلا كان الباعث عليه هو خدمة القرآن الكريم من ناحية ذلك العلم :

فالنحو الذي يقوم اللسان وبعضه من الخطأ أريد به خدمة النطق

الصحيح للقرآن وعلوم البلاغة التي تبرز خصائص اللغة العربية وجمالها أريد بها
بيان نواحي الاعجاز في القرآن والكشف عن اسراره الادبية وتتبع مفردات

اللغة والتماس شواردها وشواهدا وضبط الفاظها وتحديد معانيها ، أريد بها
صيانة الفاظ القرآن ومعانيه أن تعدوا عليها عوامل التحريف والغموض .
والتجويد ، والقراءات لضبط اداء القرآن ، وحفظ لهجاته .
والتفسير لبيان معانيه والكشف عن مراميه .
والفقه لاستنباط احكامه .

والأصول لبيان قواعد تشريعه العام وطريقة الاستنباط منه .
وعلم الكلام لبيان ما جاء به من العقائد واسلوبه في الاستدلال عليها .
وقل مثل ذلك في التاريخ الذى يستدل به المسلمون تحقيقا لما أوحى به
الكتاب الكريم في مثل قوله :

[نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ] (يوسف : ٣)
[وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِتُ بِهِ فُؤَادَكَ]

(هود : ١٢٠)

[وَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ] (القمر : ٤)
وقل مثل هذا أيضا في علوم تقويم البلدان وتخطيط الاقاليم الذى يوحى به
مثل قوله تعالى :

[سِيرُوا فِي الْأَرْضِ] (آل عمران : ١٣٧)

[فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا] (الملك : ١٥)

وفي علوم الكائنات التى يوحى بها مثل قوله :

[أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا

فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا] (الانبياء : ٣٠)

[أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ، يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ] (النور : ٤٣)

وهكذا علوم الفلك والنجوم والطب ، وعلوم الحيوان والنبات وغير ذلك من علوم الانسان لا يخلو علم منها أن يكون الاشتغال به في نظر من اشتغل به من المسلمين مقصودا به خدمة القرآن ، أو تحقيق أبحاث أوحى به القرآن . حتى الشعر انما اشتغلوا به ترقية لاذواقهم ، وتربية لملكاتهم ، واعدادها لها كى تفهم القرآن وتدرك جمال القرآن .

وحتى العروض من أسباب عنايتهم به أنه وسيلة لمعرفة بطلان قول المشركين أن محمدا شاعر وأن ما جاء به شعر . وانتقل الشيخ شلتوت إلى بيان مناهج المفسرين واللوان تفسيرهم ومنها ما يغلب عليه بيان نواحي البلاغة والاعجاز . ومنها ما يهتم بالفقه والتشريع وبيان أصول الاحكام . . وهكذا .

ثم علق على ذلك بقوله :

لهذا كله اعتقد أنى لأتجاوز حد القصد والاعتدال اذا قلت : أنه لم يظفر كتاب من الكتب سماويا كان أو أرضيا في آية أمة من الأمم قديمها وحديثها بمثل ما ظفر به القرآن على أيدي المسلمين ومن شارك في علوم المسلمين . . ولعل هذا يفسر لنا جانبا من الرعاية الالهية لهذا الكتاب الكريم الذى تكفل الله بحفظه وتخليده في قوله :

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

فما كان الحفظ والتخليد بمجرد بقاء الفاظه وكلماته مكتوبة في المصاحف مقرؤة بالألسنة متعبدا بها في المساجد والمحارب ، وإنما الحفظ والخلود بهذه العظمة التي شغلت الناس وملأت الدنيا ، وكانت مثارا لأكبر حركة فكرية اجتماعية عرفها البشر .

ولم يقتصر الشيخ شلتوت على عرض الجهود ، وكشف مظاهر خدمة المسلمين للقرآن بل نبه إلى أشياء ينبغي تنزيه القرآن عنها ، فقال :
وإذا كان المسلمون قد تلقوا كتاب الله بهذه العناية ، واشتغلوا به على هذا النحو الذي افادت منه العلوم والفنون ، فإن هناك مع الأسف الشديد ناحيتين كان من الخير أن يظل القرآن بعيدا عنها ، احتفاظا بقدسيته وجلاله ، هاتان الناحيتان هما :

ناحية استخدام آيات القرآن لتأييد الفرق والخلافات المذهبية .

وناحية استنباط العلوم الكونية والمعارف النظرية الحديثة منه .

وبهنا هنا تفصيل الناحية الثانية وتتمثل فيما يرى الشيخ شلتوت في طائفة المثقفين الذين أخذوا يستندون إلى ثقافتهم الحديثة ويقسيون آيات القرآن على مقتضاها .

ومن الامثلة على ذلك أن يفسر بعض الناظرين في القرآن الكريم قوله

تعالى : -

[فَأَرْتَقِبُ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ، يَغْشَى النَّاسَ هَذَا

عَذَابٌ أَلِيمٌ] (الدخان : ١٠ ، ١١)

بما ظهر في هذا العصر من الغازات السامة والغازات الحارقة التي انتجها العقل البشري فيما أنتج من وسائل التخريب والتدمير ، يفسرون الآية بهذا ويفعلون عن قوله تعالى :

[رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ، أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى
وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ، ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ، وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ] .

(الدخان : ١٢ ، ١٣ ، ١٤)

ثم يقول : ولسنا نستبعد - اذا راجت عند الناس في يوم مانظرية داروين
مثلا -- أن يأتي إلينا مفسر من هؤلاء المفسرين الحديثيين فيقول :

« ان نظرية داروين قد قال بها القرآن منذ مئات السنين »

وهذه النظره للقرآن خاطئة من غير شك ، لأن الله لم ينزل القرآن ليكون
كتابا يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ، ودقائق الفنون ، وأنواع
المعارف .

وهي خاطئة من غير شك لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل
القرآن تأويلا متكلفا يتنافى مع الاعجاز ولا يسيغه الذوق السليم .

وهي خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان
ومكان والعلوم لاتعرف الثبات ولا القرار ولا الرأى الاخير ، فقد يصح
اليوم في نظر العلم مايصبح غدا من الخرافات .

فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة لعرضناه للتقلب معها
وتحمل تبعات الخطأ فيها ولا وقفنا انفسنا بذلك موقفا حرجا في الدفاع عنه .

وحسبنا أن القرآن لم يصادم - ولن يصادم - حقيقة من حقائق العلوم
تطمئن إليها العقول ولا يتأني أن ننقل نموذجاً كاملاً من هذا التفسير لاعتماده
على الناحية الموضوعية واسهابه في الكلام عما يتعرض له من آيات .

وعن قبه تعالى : [لَأَخْبِرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ
بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ
ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا] (النساء : ١١٤)

يشير إلى أن الاعمال وخاصة ما ذكر في الآية يكون لصاحبها الاجر العظيم اذا فعلها خالصة بها نية مبتغيا بها مرضاة ربه .

هذا هو الاساس في فهم الفضيلة: ترسم أوامر الله وتنفيذها ابتغاء مرضاة الله ومن هنا جهد المؤمنون بالله في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وأهلهم وعشيرتهم، وكان ذلك في نظرهم الحياة الخالدة، والغنى الدائم والسعادة الابدية .

وهناك فريق من الناس يرون أن اساس الفضيلة هو تلبية الضمير فيما يعتقدون خيرا للمجتمع ويرون ان هذا كاف لسعادة الانسان ومد الضمير كفيل بتقدير الخير ومعرفته دون الرجوع إلى الله، وما يرسم لعباده من شرع وخلق، وأنهم بهذا ليسوا في حاجة إلى الوحي وان الوحي إذا كان قائما يحتاج إليه لإرشاد من ليسوا بأرباب الضمائر الحية المستيقظة .

وقد فات هؤلاء أن فهم ما ينفع الهيئة الاجتماعية وما لا ينفعها كثيرا ما تختلف فيه الانظار والآراء وقلما تجد في تاريخ هذه النظرية قديمة وحديثة - اتفاقا على نفع جزئية معينة أو ضرر جزئية معينة وفاتهم أيضا أن النظر الواحد أو الضمير الواحد كما يعبرون كثيرا ما يتغير في معرفة الخير والفضيلة .

وقد عدل كثير من الفلاسفة عن آرائهم الاولى واستحدثوا آراء أخرى جديدة . . ولهذا تعترك في عصرنا الحاضر المذاهب الاجتماعية، من ديمقراطية وفاشية ونازية وشيوعية واشتراكية بل يتنازع أرباب المذهب الواحد، بل يتناقض الفرد الواحد مع نفسه ورايه، في وقتين مختلفين وكل هؤلاء يتحاكمون إلى الضمير أو يتحاكمون إلى الادراك البشرى وفي معرفة الفضيلة وهو تحاكم - كما نرى - إلى أساس غير ثابت ولا منضبط ولا مأمون العاقبة .

وهو في الوقت ذاته سير بالنفس وبالعالم في طريق محفوفة بالمخاطر تهدد العالم في امته واستقراره وتشعل فيما بين جوانبه نار الحروب والتدمير .

ولا سبيل إلى الاستقرار في هذا العالم ، وسلامته من أثر الآراء المشتجرة
بالإلّا بالرجوع إلى أساس ثابت منضبط ، صادر عن عليم بطيات النفوس .
ونزعات البشرية ، يبصرهم ذلك الأساس بالخير والفضيلة التي ارتسمت في
لوح الوجود الحق الذي لا يكتبه إلا خالق الوجود ومدير الكون على ما يعلم فيه
من سنن وشئون ، وليس ذلك المبصر إلا وحى العليم الحكيم :

[إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ
يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا .]

(الإسراء : ٩)



تاج التفاسير لكلام الملك الكبير للإمام محمد عثمان الميرغني

انه تفسير في جزأين ، كل منها يقرب من ستمائة صحيفة ، وهو مؤلف على سبيل الايجاز على غرار تفسير الامامين الجليلين : جلال الدين المحلي ، وجلال الدين السيوطي .

أما مؤلف هذا التفسير الجليل : فهو امام من كبار الائمة في العصر الحديث وكان له أثر كبير في نشر الدعوة الاسلامية في افريقيا ، وكان من أثر تبشيره أن اعتنق الاسلام على يديه عشرات الألوف من الوثنيين .

ولقد اتخذ الاسلوب الموفق للدعوة وذلك أنه كان صوفيا قد تجرد من الطمع والشهه واخذ الاجر على دعوته .

كان متواضعا ، رفيقا ، راهدا ، عابدا ، ذاكرا صاحب اورداد وحضرات ، فكان بذلك يجذب العدد الكثير إلى الاسلام .

ولد رضي الله عنه في الطائف في سنة ١٣٠٨ هجرية ، وفقد والديه صغيرا فكفله عمه ، وأخذ الامام في الدراسة والتعليم ، فحفظ القرآن وتعلم العلم وأصبح في مكانة علمية مرموقة ودفعته نزعته الدينية وشعوره الروحي الفطري أن يتلمس الطريق إلى الله على مذهب التصوف وبعد دراسة علمية عند هؤلاء وأولئك استقر به المقام عند الشيخ أحمد بن ادريس الفاسي الذي كان يتخذ من مكة مقاما ، وهو الذي وجهه إلى الرحلة التبشيرية .

سافر الامام إلى مصر والحبشة واريتريا ، وتوقف في اريتريا فترة من الزمن هاديا مرشدا ، وقد كان يسكن جبال اريتريا كثير من القبائل الوثنية فانغمس فيهم ، ولما رأوا النور فيه والاشراق تابعوه وأخذوا عليه العهد ، ولما اطمأن إلى خلفائه في اريتريا ذهب إلى صعيد مصر ، ومكث فترة سافر بعدها إلى السودان

متنقلا بين سهوله وجباله شرقا وغربا ، ولما وصل كردفان أسس فيها مسجدا كعادته في كل مكان يطيل فيه الاقامة السنية التي تسمى الآن الختمية . أما مدينة سواكن فانه أسس بها ثلاثة مساجد .

ومن الطريف أنه أسس في هذه المدينة مدرسة لتعليم المرأة فكانت أول مدرسة أسست للمرأة في السودان . ومن هذه المسألة تبين افقه الواسع وفكره الثاقب .

وفي أثناء هذه الرحلات الكثيرة كان يؤلف في المسائل التي تعرض له أثناء سياحته .

ان مشاكل المجتمعات كثيرة ، ولا بد لها من حل فكان الامام كلما عرضت له مشكلة ألف فيها حتى لاتكون فتواه كلاما ينسى على مر الزمن .

ومن مؤلفاته ، وربما كان اهمها كتابه « تاج التفاسير » الفه في الربع الثاني من القرن الثاني عشر الهجري . يقول بعض من كتبوا عنه :

« وقد امتاز تفسيره بوضوح الاسلوب والخلوص من مصطلحات العلوم والفنون . فهو يتناول الآيات الكريمة ويفسرها تفسيراً يقوم على الدلالات اللغوية وربطها بما ترمى إليه من المعاني الشرعية والروحية في أسلوب مبين ، وعبارة موجزة واضحة لاليس فيها ولا غموض .

وقد خلا هذا الكتاب من الاسرائيليات ومن الاسهاب في القصص التاريخي . والتزم بما جاء في أوائل السور المرموزة من التفسير الاشاري ، وان كان لا يتعرض اليه - فيما عدا ذلك - إلا قليلا مما لا يتعارض مع ما يرمى اليه النظام الحكيم - هذا مع العناية بالقراءات في غير اسهاب ولا تطويل . بالاضافة إلى ذكر الاحاديث النبوية الواردة في فضائل السور .

أما المؤلف نفسه فانه يقول في تواضع جم :

« لقد رنسخ في الخاطر البغائر منذ سنوات مع التماس بعض الاحباب

الأكابر . والاختلاء أصحاب الخاطر العاطر . تأليف تفسير لكلام من لا يحيط .
 بعلوم سواه . ولا يعلم اجمال وتفصيل مابه العلوم غير مصطفاه . ولكن عبر
 كل وحسب ما اقتبس من مشكاة بحر انواره . فافتقت الاثر . واستمددت
 منه ومن كتب احباره المستمدين منه فوضعت هذا التفسير واختصرته
 الاختصار الذي لا يفيد دونه الصغار ولا الكبار وجعلته في عبارة سهلة يفهمها
 العوام والخواص ومزجه بالسنة الغراء . أ . هـ

وهناك نموذجاً من تفسيره . . يقول تعالى :

[إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ،
 لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ] (المائدة : ١١٨ ، ١١٩)

يقول : [إِنْ تُعَذِّبُهُمْ] أى تعذب من كفر منهم ﴿ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾
 لا شريك لك فيهم ﴿ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ أى تغفر لمن آمن منهم : « فَإِنَّكَ أَنْتَ
 الْعَزِيزُ الْقَادِرُ عَلَى الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ » الْحَكِيمُ فى تنزيل كل أحد منزله .

وفى الصحيحين : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قام فينا رسول
 الله ﷺ بموعظة فقال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْكُمْ تَحْشُرُونَ إِلَى اللَّهِ حِفَاةَ عِرَاقِ غُرْلَا ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ
 نَعِيدُهُ وَعَدَا عَلَيْنَا أَنَا كُنَّا فَاعِلِينَ ، أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يَكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا وَانْه يَجَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ
 فَأَقُولُ : يَا رَبُّ أَصْحَابِي فَيَقَالُ : إِنَّكَ لَا تَهْدِرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ ؟ فَأَقُولُ كَمَا
 قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ : « وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ
 الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ، إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ

تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم « فيقال لى : « انهم لم يزالوا مرتدين على اعقابهم منذ فارقتهم » .

وفى الحديث أنه قام ﷺ ليلة كاملة بآية ، والآية : **إِنْ تُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .**

١٠ قال الله هذا يوم ، وقرىء يوم ، أى يوم القيامة « ينفع الصادقين » الذين صدقوا فى معاملة الله « صدقهم » .

وفى الحديث عنه ﷺ أنه قال : « عليكم بالصدق ، فإنه باب من أبواب الجنة وإياكم والكذب فإنه باب من أبواب النار » .

« لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » محتوية على أشرف النعم بفضل الغفار « خالدين » فيها أبدا « لا يخرجون منها » رضى الله عنهم « وأحلهم بحبوحه رضاه » ورضوا عنه حيث أولاهم نعماء ودخول حماه ، وشهود محياه .

[ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ] وكيف لا وقد احتوى على النظر لوجه الله الكريم « أ . هـ .

ونموذج آخر من تفسيره : يقول الله تعالى :

[**إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ، ذَلِكَمُ اللَّهُ فَالِقُ الْفَجْرِ يُفَكِّكُونَ .**

فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ . قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ] .

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ
فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا تُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ
طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ، وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا
وغيرَ مُتَشَابِهٍ ، انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . (الأنعام : ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩)

يقول :

« إن الله فالق » شاق « الحب » بالنبات « والنوى » من النخل « يخرج الحى
كالإنسان والطير » من الميت « كالنطفة والبيضة » ويخرج الميت « كالنطفة
والبيضة » من الحى « من الإنسان والطير » ذلكم الله « هو القادر على ذلك »
فانى « فكيف » « تؤفكون » تصرفون عن توحيدده ، مع هذه الدلائل الواضحة -
« فالق الإصباح » شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل - وقرىء الأصباح بفتح
الهمزة ، فالق بالنصف « وجعل الليل سكنا » يسكن فيه الخلق من التعب ،
لأن فيه النوم ، والنوم به الراحة ، وقرىء . . وجعل الشمس والقمر وقرىء
بالجر ، وقرىء بالرفع « حسبانا » تحسب بهما الأوقات « ذلك » تسييرهما
بالحساب « تقدير العزيز » مقدرة لها على السير المطلوب منها العليم بكيفية
سيرهما « وهو الذى جعل » خلق « لكم النجوم » رحمة منه لتتهدوا بها « فى
سيركم » فى ظلمات البر والبحر وتعرفوا بها الجهات « قد فصلنا » بينا الآيات
الدالات على كمال قدرتنا « لقوم يعلمون » وفى ذلك يتفكرون ، وفى الخبر قال
عليه السلام : « تعلموا من النجوم ما تهتدون به فى ظلمات البر والبحر ، ثم انتهوا »
أخرجه ابن مردويه فى تفسيره « وهو الذى انشأكم » خلقكم « من نفس
واحدة » أى آدم « فستقره فى الاصلاب ومستودع فى الإرحام ، « قد فصلنا
الآيات » بينها « لقوم يفقهون » وعن الله يفهمون « وهو الذى أنزل من السماء »
لاغاثة عباده « ماء » مطرا « فأخرجنا » لرزق عباده « به » الضمير للماء « نبات »
نبت كل شىء من أصناف المنبت « فأخرجنا منه » أى من النبات « خضرا »

شيئا أخضر «نخرج منه» الضمير للخضر «حبا متراكبا» سنابل «ومن النخل» من طلعتها وهو أول ما يخرج منها «قنوان» عراجي «دانية» قريب بعضها من بعض «وجنات» بساتين «من أعناب» أي من عنب وهو من أشرف الفواكه وأحسنها وألطفها، وفيه يقول الله لموسى في مكالمته: «يا موسى لو كنت آكلا لأكلت الخبز بالعنب» وفي الجاف منه يقول النبي ﷺ: «عليكم بالزبيب فإنه يكشف المرة ويذهب بالبلغم، ويشد العصب، ويذهب العياء، ويحسن الخلق، ويطيب النفس ويذهب الهم» رواه أبو نعيم.

«والزيتون» هو شجر أيضاً شريف فيه بركة كثيرة «والرمان» وهو من ألطف الفواكه وأحسنها «مشتبهاً وغير متشابه» في الألوان والطعوم «انظروا» معتبرين «إلى ثمره إذا أثمر» كيف يثمر ضعيفا كأنه لا ينتفع به «وينعم» كيف يعود ضخما ينفع ويلذ «ان في ذلكم» من الأشياء المذكورة «آيات» تدل على كمال قدرة الحق «لقوم يؤمنون» فإن نور الإيمان هو الذي به يهتدى.

ضياء الاكوان للشيخ احمد سعد العقاد

حينما تحدث علماء التفسير عن شروط المفسر فإنهم رأوا أن من بينها: أن يكون المفسر تقياً. وما من شك أن التقوى من مصادر الالهام والفهم الصافي، حينما تتوافر الشروط الاخرى في المفسر، وقد نشأ مؤلفنا في بيئة دينية صالحة تقية. فقد كان من سلالة علماء صالحين اتقياء.

ولد بمدينة الفيوم عام ١٣٠٧هـ وتوفي عام ١٣٧٣هـ.

وبعد أن درس في بلدته القرآن حفظاً وتجويداً وأخذ حظاً من علوم العربية، أخذ أهفته إلى مركز النور والمعرفة: الأزهر - الذي كان محط أنظار الطامعين المؤمنين واجتهد في الدراسة فكان مرموقاً لجدته وذكائه.

وأرادت العناية الالهية به أن يلتقى بالعارف بالله السيد محمد ماضى أبو العزائم فوجهه نحو الاستقامة التي نشأ في رحابها مؤلفنا وأصبحت الاستقامة بالنسبة له فطرة وتعلماً، سلوكاً ودراسة، ونشأ مؤلفنا اذن نشأة الشاب الذى لا صبوة له.

ولما انتهت الدراسة بالأزهر عينته وزارة الأوقاف أمماً وخطيباً في مسجد من كبار المساجد فاشتغل فيه بالتدريس للعامّة وشرح كتاب الله وتعليم الفقه وغير ذلك من العلوم، وكان يقيد ما يدرس فخرج من ذلك بمجموعة كبيرة من الكتب في العلوم الإسلامية.

منها ما طبع، ومنها ما زال مخطوطاً، لم يطبع:

١ - الدين النصيحة.

٢ - كنوز العارفين في ميراث الأنبياء والمرسلين.

٣ - كتاب الهجرة النبوية.

٤ - كتاب مواهب الإنسان .

٥ - الأنوار القدسية في شرح أسماء الله الحسنى .

٦ - السعادة في الدخول من باب التوبة .

ومن كتبه التي ما زالت مخطوطة :

١ - الفقه على المذاهب الأربعة .

٢ - رُحمان العارفين في حكمة أحكام الدين .

٣ - الشرف الأعلى في اسراء من « دنا فتدلى » .

٤ - الإنسان الكامل .

٥ - مقامات أهل اليقين .

وأجل كتبه هو ما تقدمه اليوم : « ضياء الأكوان في تفسير القرآن » .
يقول في مقدمته :

« فقد عزمت بحول الله تعالى وقوته على كتابة تفسير للقرآن الكريم يكون سهل العبارة ريق الإشارة يجمع بين جهال تفسيره وأسرار تأويله ، متحريرا في ذلك الصحيح من الأقوال مجتنباً الخشو والتطويل .

وان الكثير من التفاسير فيه أقوال ضعيفة وتواريخ مكذوبة ، وارااء متعارضة ، وسأتحرى بمشيئة الله ما يوافق الشرع ويتمشى مع العقل .

وقد وضع المؤلف لكتابه مقدمة : « تكشف لقارئها بعض أسرار القرآن » .

ومن هذه المقدمة يقول تحت عنوان : « الآيات القرآنية » :

كل آية في القرآن بمنزلة دواء مستقل أو كثر للسعادة ، منها آيات يخاطب الله بها العقول على قدرها بقوله :

[إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] (الروم : ٢٤)

والعقل هو الذى يتقبل الآيات بالموازن والقوانين ويحكم على الأشياء

بقدر ما وهب له من الاستعداد النوراني ، ويخاطب الله الألباب بقوله :

[إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ] .

واللب هنا هو الروح التي بها حياة القلب التي بها الاستعداد للتلقى عن الله ، ومنها آيات يخاطب الله بها الفكر في قوله تعالى :
[إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] (الروم : ٢١)
والفكر قوة تتجول في الآثار وترجع بالمعلومات وتعرضها على العقل فيثبت منها ما شاء فهو وزير العقل .

ومن الآيات ما يخاطب الله به القوة الذاكرة ، وهي المعبر عنها بالحافظة في قوله : [إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَذَكَّرُونَ] .

والذاكرة قوة تبحث عن معلوماتها الأولية التي اشتغلت عنها بالمظاهر الحسية ، فبالتذكر يصل العبد إلى ذكر العهود الأولية ، وذكر النعم الالهية الظاهرة والباطنة .

ولم ترد آية في القرآن تقول : إن في ذلك لآيات لقوم يتخيلون أو لقوم يتوهمون فما أوقع الناس في التيه والغرور الا شيطان الوهم وزخارف الخيال والقرآن يتكلم في صميم الحقائق والرجل من تباعد عن الخيالات والأوهام وتمسك بالحقائق الناصعة .

ومن الآيات ما يخاطب بها أهل العلم والعرفان بقوله :

[إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ] (الروم : ٢٢)

ويخاطب أهل الإيمان بقوله :

[إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] (الروم : ٣٧)

والإيمان قوة في القلب تفتح له عيوننا يشرف بها على معاني الهيبة الالهية والجلال فيؤمن بالغيب ويرى أن كل السمعيات التي وردت عن الشارع الحكيم كأنها مشهودة أمامه ويخاطب الله أهل السمع بقوله :

[إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ] (الروم : ٢٣)

والسمع الحقيقي اذن واعية في القلب صاغية لنداء الرب . والاذن الخسية
منزلة الساعة التي توصل للقلب الخطاب .

ومن الآيات ما يخاطب الله بها أهل الكشف النوراني والذوق الروحاني
بقوله : [**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ**] (الحجر : ٧٥)
والمتوسم هو الذي يعرف العوالم بسياهم ويكشف ما وراء أستار المادة
بأنور الألفى في ضميره .

ومن آيات ما يخاطب الله بها أهل اليقين بقوله :
[**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**] .

واليقين قوة خفية تكسب العبد رسوخا وثباتا وتكشف عنه الحجب .

ويخاطب الله المحسنين : والإحسان قوة في القلب تجعل العبد يحسن الفاظه
وأعماله ونيته . وبلاحظ أن الله معه بسمعه ويراه . قال تعالى :

[**إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**] (آخر آية في سورة العنكبوت)

ويخاطب الله أولى الأبصار بقوله :

[**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ**] .

والبصر ما يدرك ظواهر الكون ويوصلها الى حدقة عين القلب . والبصيرة
ما تدرك الأمور الخافية ولا يكمل العبد إلا إذا كان يتدبر في الآيات الظاهرة
ويتجول في الآيات الباطنة .

فإذا قال الله [**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**] فإنه يقول :

يا أهل العقول اني أتحدث معكم الآن فتدبروا واعتبروا . وإذا قال :

[**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**] (الروم : ٣٧)

كأنه يقول : يا أهل الإيمان سلموا تسعدوا ، وإذا قال لقوم يتفكرون
قال : يا أهل التفكير تجولوا في الآثار فتغنموا ، فانزل كل آية في رتبها الخاصة
وتناول دواءها الخاص حتى تعرف الأدوية الروحية القرآنية «والله أعلم» . هـ .

والآن نأتي بنموذج من تفسيره :
قوله : [وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ] (البقرة : ٤٥)

أراد الحق تعالى أن يصف دواء نافعاً للأمراض القلبية فين دواء مركباً من
عنصرين :

الأول : الصبر . وهو حبس النفس عن شهواتها صب لثواب من الله
تعالى . والصبر أساس كل فضيلة . وما وصل إنسان إلى المعالي الاعلى معراج
الصبر . والصبر أقسام :

- صبر على طاعة الله وجهاد النفس . وصبر عن معصية الله ومحارمه .
- وهناك صبر مذموم وهو الصبر عن حبيبك وهو الله تعالى فتنساه وتسلي
بغيره

ومنى تعود العبد الصبر وتخلق به صار صبوراً والصابر يعنى أجره بغير
حساب . قال تعالى : [إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ] .

والصوم من الصبر لأنه يمنع النفس عن شهواتها .

قوله : « والصلاة » هى الخضوع والخشوع لله بالقلب والجوارح . ومنى
تمكن العبد من الصبر فى طوايا نفسه واخشوع فى ضميره وجوارحه فقد
استعان على تركية نفسه وتطهيرها واقبالها على الله . وكان النفس وحفظها
كجيش محارب والسلاح الذى يقهرها هو الاستعانة التى وصى بها الله بالصبر
والصلاة .

قوله : [وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ] يعنى الصلاة كبيرة يعنى ثقيلة على النفوس .

قوله : [إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ] يعنى الاستعانة بالصلاة سهلة لذيدة
على أهل الخشوع وهم الذين عرفوا الله وطلبوا رضاه واعتقدوا أن الدنيا دار
سفر فصبروا على مشاقها وأن الصلاة قرأ أعينهم لأنها تدخلهم فى حضرة
مولاهم وتونسهم بجنابه . أ . هـ وتنبهت القلوب وكأنها قالت : يارب بين أهل
الخشوع لنعرفهم . فقال تعالى :

[الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ] (البقرة : ٤٦)

يعنى يوقنون ويعلمون علم يقين أنهم سيلقون الرب تعالى ومعنى لقاءه تعالى - هو كشف الستائر الحاجبة للعبد عن الله فيراه قريبا مجيبا محيطا ، العارفون بالله يكرمهم الله بلقائه هنا ، فتشهد عيون أرواحهم أنوار وجهه الجميل ، وأسرار تجلياته فيأنسون به في كل مشهد ومظهر ، وإنما عبر هنا بـيظنون ولم يقل يوقنون رحمة بعباده فإنهم يشهدون من تجلياته على قدرهم ، والحقيقة في غيب الغيب والحق تعالى يقول في الحديث القدسي :

« أنا عند حسن ظن عبدي بي » فالظن منك في شهود الأنوار يقين عند الله واليقين هو كشف الأمر على ما هو عليه وهو لا يتمكن منه أى مخلوق عند مواجهة الحقيقة ولقاء الله الحق عند الخاصة يكون كرامة لهم هنا بعيون الروح لا بعيون الرأس ، وفي الآخرة يكون بالعينين .

قال تعالى : [وَجُودٌ يُؤْمِنُ نَاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ] .

(القيامة : ٢٢ ، ٢٣)

قوله : [وَأَنَّهُمْ إِلَىٰ يَدِ اللَّهِ رَاجِعُونَ] يعنى بالموت ومفارقة الحياة :

ينسلخون من الغواشي والهيكل وتتخلص أرواحهم من الظلمات وترجع إلى أصلها ، وهو النور فيتجلى لها النور جل جلاله ، أ . هـ .

ونموذج آخر :

[وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ] (البقرة : ١٢٤)

سبق في علمه تعالى أن يبتلى العباد ، والابتلاء هو الاختيار والامتحان الذى يكشف مكنون النفوس ويوضح غوامض الضمائر ولم يكن الامتحان لتجديد علم بل الحق تعالى يعلم ضمائر الخلق ، ويرى الملبى والمخالف ولكن قدر ذلك لتظهر تلك الحقائق مشهودة للخلق فتكون شرفا للمطيع وحجة وسندا للمؤمن وتكون بلية على العاصي وإظهارا للكامن في نفسه من الخبث والقساوة

والجحود والامتحان قدره الله على الملائكة في خلق آدم وعلى ابليس في السجود لآدم وعلى الأنبياء في تحمل البلياء ، وعلى الأولياء في القيام بالجهاد الشديد للنفس والدنيا وقدره على بني الإنسان أجمع ليقف كل إنسان عند حده فلا يدعى الولاية الشديدة مخالف ولا يدعى التقوى عاص ، حكمة بالغة ، قال رسول الله ﷺ : « أشدكم بلاء الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل ، فالأمثل » والذي يثبت في الامتحان وينال شهادة من الله بها رفعة شأنه وعلو قدره واحترامه في الدنيا والآخرة والكلمات هي الأوامر الإلهية التي كلف الله بها خليله وقدرها عليه فصبر وثبت ورضى ، فمن ذلك : ابتلاه بالرمي في النار ، ومن ذلك ابتلاه بأخذ السيدة هاجر وابنها إسماعيل والتوجه بهما إلى أرض الحجاز بجوار الكعبة حيث لا ماء ولا ظل ولا أنيس ، فثبت وسلم ولده وزوجه لله تعالى فهو أرحم من إبراهيم بولده وزوجه ، ومن ذلك ابتلاه بذبح ولده إسماعيل وكلفه بيناء البيت والقيام بإرشاد الحق له بأعمال الفطرة الحنيفة فنفذ الخليل كل ذلك ، فشهد له الحق بقوله (فاتمهن) يعني قام بالواجب بصدر رحب وعزم صادق فلما وفى نال مقام الوفاء فنحه الله مقام الصفاء وأعلى ذكره في القرآن وبشره بعد الثبات في الامتحان بقوله : « قال إني جاعلك للناس إماما » يعني صيرتك قدوة للعباد ، والسيد إبراهيم محبوب عند كل طوائف الامم ومعناه أب رحيم وهو من ذرية سام ابن نوح عليه السلام ، وكان الحق تعالى يقول إني لم أمنع خليلي رتبة التقدم والامامة إلا بعد الامتحان والنجاح فيه وقد امتحن الله المؤمنين بقوله :

[أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ] .

(العنكبوت : ٢)

ولما بسط الحق بساط الانس والمال للخليل وبشره بالبشرى التي تشرح الصدور بقوله [إني جاعلك للناس إماماً] طمع الخليل في وسعة الحق وكرمه فطلب منه نفحة لذريته بقوله [قَالَ : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي] يعني اجعلهم ائمة للعالم ، فقال الحق [قَالَ : لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ] (البقرة :

(٢٤) يعنى لا يدعوك تلتقى معك وأنتك بعطى أن أغير شيئاً مما فى علمى
فاجعل الظالم مقدماً محترماً فإن كل مخالف من ذريتك لا ينادى عهدى يعنى
مودتى وكرمى ورحمتى ونعمى . وفى هذا الرد على الخليل من الحق ما يجعل
قلوب العارفين تخشع وتمتلىء بالهيبه من جلال الحق . وقد قال العارفون : اذ
انبسط لك الحق بجباله فانقبض وتأدب معه وإذا تجلى لك بجلاله فانقبض
وافرح . فى حضرته فهما أعطاك فكن على حذر فالسيد الخليل مع جلاله قدره
طلب لذريته مطالب فأجابته فى البعض ولم يجبه فى الآخر فلا تركز الى أهلك
وشرفه ومجده وانظر هل أنت ظالم لنفسك أم عادل ؟



تفسير محمد فريد وجدى

مفسرنا هو الاستاذ الجليل محمد فريد بن مصطفى وجدى . من أعلام العصر الحديث ومن مشاهير العلماء والفلاسفة ورجال الصحافة .
برز نشاطه في كل مجال من المجالات . وثبتت أقدامه على طريق الحياة الطويل في دنيا الفكر والتأليف الذى قضى فيه ما يزيد على الخمسين عاما .
ولد الاستاذ وجدى بمدينة الاسكندرية ، وانتقل منها إلى دمياط فامضى بها فترة الشباب . ثم انتقل إلى السويس فأصدر بها مجلة الحياة . ثم انتقل إلى القاهرة فأنشأ مطبعة في حياة البحث والتأليف حتى انتهت به الحياة .
كان حار الدفاع عن الحق . شديد التمسك بما يعتقد صوابا . سلس الأسلوب واضح الفكرة ، بعيدا بهدفة في الحياة . ولقد تحدث عن العوامل التى أثرت في فكره ، ورسمت معالم شخصيته فقال :
كنت في سن السادسة عشرة ، طالبا بالمدرسة التحضيرية ، وكان أبى (مصطفى وجدى) موظفا في الحكومة المصرية ، وحدث أن اختير وكيلا لمحافظة دمياط . فكان لابد من انتقالى مع عائلتى إلى هذه المدينة التى اشتهر أهلها الدمامة لاختلاف والتفقه في الدين .
ولما نزلنا هذه البلدة مع أبى أقبل علماؤها وكبار أهلها يرحبون به ، فكان يجتمع في دارنا عدد كبير منهم وكنت إذا ناقشت احد العلماء في مسألة تتعلق بالكون والخلق أسرع إلى قفل باب المناقشة . وأمرنى الا أخوض في المسائل الدينية أو أبدى فيها رأيا فامتعضت لذلك وقلت في نفسى . : لابد أن يكون ما يدرسونه من الكتب عقيا ومن هنا تزلزلت عقيدتى . وشرع الشك يتسرب إلى نفسى حتى صرت لا أرتاح إلى رأى واحد يتضمنه كتاب . ولا انتصر على

فكرة ، ينة يجتهد بعض العلماء في اثباتها بما أدلى من قوة الحججة وساطع البرهان .

وجعلت أتناول بالقراءة والدرس جميع الكتب الدينية والكونية والاجتماعية وسائر ما يتعلق منها بعلم النفس ، واكبت على ذلك عدة سنين ، فأكتسبت علما غزيرا ، واتسع أمامي نطاق الحياة ، وجمال نظري في الكائنات جولات أفادتني فيما أتناوله بالحديث والدرس حتى صرت لأقتنع بفكرة دون أن أعنى بدرسها وتمحيصها معتمدا في ذلك على تجاربي الذهنية التي مرت بي . وقد أفادني هذا التعمق استقلالاً في الفكر واما إذا على النفس .

ورغبة في استيعاب ما يقع بين يدي من الكتب على اختلاف أنواعها بمصر كما أفادني دقة في البحث حتى ازال الشك عني وارتاحت نفسي إلى عقيدة ثابتة .

وبدا طريق الحياة العلمية الجادة على أسس قوية من العقل والروية والتفكير وفي سنة ١٩٠١م اصدر كتابه « الاسلام في عصر العلم » وهو كتاب في جزئين مناسين في وضوح أن الاسلام حث على العلم واشاد به ، ودفع المسلمين إليه وأنه لا تعارض مطلقا بين الاسلام والعلم وما وصل إليه العلم في العصر الحاضر من آفاق مادية وحضارة صناعية ، فان ذلك كله لا يتعارض منه شيء مع الاسلام ، بل أن ذلك كله يؤيده الاسلام وكلما تقدم العلم كان تأييدا للاسلام .

وتفرغ للبحث والتأليف فغطى الصحف اليومية الشهيرة بمقالات وبحوث ، ومن أبرز هذه الصحف : الاهرام ، والجهاد ، ثم اشتغل بتحرير مجلة الأزهر وظل رئيسا لتحريرها حتى وافاه الموت في فبراير سنة ١٩٥٤م سنة ١٣٧٣هـ .

والناظر في حياة مفسرنا الجليل يجد أن نشاطه العلمي كان يمثل تيارا دافقا بالحياة ، وأنه قضى حياته الطويلة يدافع عن اهداف محدودة بوضحها ويشرحها ويدفع عنها كل تحريف أو اتهام . وهذه الاهداف : هي الاسلام ، والدين ، والروحية .

ولعل أهم ما شغل فكره وظهر في نتاجه الكبير قضية الروحية والمادية والدفاع عن الروحية تجاه المادية ، واقامة الادلة على الروح ، وما إلى ذلك مما هو نابض في كل مؤلف من مؤلفاته .

ولقد استطاع تطويع اللغة العربية للتعبير عن النواحي الفلسفية والافكار العلمية بأسلوب بارع رشيق ، حتى لقد صاغ بعض أفكاره ومناقشاته في صورة مقامات كمعلقات بديع الزمان الهمداني ومقامات أبي القاسم الحريري وغيرهم ، وقد جمعت تلك المقامات في كتاب باسم الوجديات ، وقال في مقدمته بعد أن ذكر بعض من كتب بهذا الاسلوب من الادباء والعلماء فرأينا أن نحتذى مسالكهم ونترسم خطواتهم بوضع مقامات أدبية ترمى لاغراض تعليمية وزدنا على متقدمينا بأن جعلنا الصفة الفلسفية فيها تغلب على سواها حرصا منا على الغرض الرئيسي الذي حدانا لنشرها .

وبين غرضه من تأليفها فيقول :

تصوير مثل عليا للحياة الفاضلة ، وامتداد النفوس بالقوى الادبية الضرورية لها .

وقد أثمر كفاحه العلمي الطويل عدة مؤلفات قيمة من أبرزها :

١ - دائرة معارف القرن العشرين في عشرين مجلدا ، وأتمها فيما يقرب من ثلاث سنين وهو عمل تنوع به طائفة كثيرة من العلماء ، ولكنه بدل على هذه العزيمة القوية النادرة التي تحلي بها وجدى وعلى ما تحلى به أيضا من تنظيم دقيق لوقته وعلى ما تحلى به من ذاكرة واعية لما يقرأ ومن حسن تصرف فيما يقرأ وقدرة على الانتفاع به إلى أكبر مدى من الانتفاع .

٢ - السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة وهو كتاب جميل حاول به فريد وجدى أن يقرب حقائق السيرة إلى اذهان شبابنا وأن يحببهم فيها ليتخذوها مثلا أعلى يحتذونه وهذا هدف شريف ، ولقد قام به في أسلوب رصين ، وفي دراسة تتسم بروح العصر وبأسلوبه .

٣ - - « الإسلام دين عام خالد » بين فيه الأسس والاصول والمبادئ التي قام عليها الإسلام في صورة من الأسلوب الرائع والعرض السهل .

٤ - نقد كتاب في الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين .

٥ - فضلا عن العديد من الابحاث والمقالات في كثير من الجرائد والمجلات . وقد ترجم كتاب على اضلال المذهب المادي . وهو ان كان ترجم اجمل وأدق ماتكون الترجمة فانه احتوى على كثير من آراء فريد وجدى الشخصية تعليقا وشرحا . بل ان الكتاب كله يمثل رأى فريد وجدى نفسه وتسرى روحه في كل جزء منه .

٦ - وكان تفسيره صفوة العرفان في تفسير القرآن المعروف بالمصحف المبسر من أعماله السامية .

ملاحع من حياته :

عاش وجدى مايزيد على خمسة وسبعين عاما . قضى أكثرها في البحث والتأليف . وقد امتاز في حياته بالجدية ومثانة الخلق ووضوح الهدف والتأني في تحقيقه .

حكى الأستاذ العقاد أنه عطل جريدة الدستور لعسر حالته . وباع آلاتها لتسديد أجور العمال مليا بمليم . ورفض في نفس الوقت عرضا سخيا من حكومة تركيا الفتاة ليكون لسان حافيا وناشرا لأفكارها في بلاد الشرق .

وكان معنيا بصحته . مراعى لسلامة الجسم والنفس عاملا بما يقول :
نمودجا طيبا بسلوكه كما كان نمودجا طيبا في تفكيره وتأليفه وكان نباتيا .

وكانت وفاته بعد حياة حافلة ١٩٥٤ . سنة ١٩٧٣ هـ بمصر .

ولقد دخل فريد وجدى في الحياة الفكرية الإسلامية في عصره دخولا

حكيا .

لقد درس مشكلات العصر وكتب في الكثير منها كتابات مستفيضة سواء تعلقت بإصلاح المجتمع أو المسائل الفلسفية أو أو الجوانب الروحية .

ولقد اضطره ذلك إلى أن يدخل في جدل مستفيض مع الذين يرى أنهم ليسوا على الحق لقد دخل في جدل طويل مع المرحوم الشيخ رشيد رضا . واستمر النزاع بينهما فترة طويلة من الزمن ودخل في جدل مع المرحوم الشيخ عبد الواحد يحيى الذي كان يرى أن تحضير الأرواح تعامل مع الجن . أو مع كائنات أخرى . من كائنات لأصلها بالارواح حقيقة . وثار نزاع ونقاش بينهما في المجلة التي كانت تصدر في سنة ثلاثين بعنوان « المعرفة » .

ولم يهدأ فريد وجدى طيلة حياته بحثا وعرضا لآرائه ومناقشة خصومه وبيانا لوجهة نظره التي يرى أنها الحق .

وكان من عاداته الجميلة أنه كان يستقبل زائريه كل ليلة في بيته بعد صلاة المغرب مباشرة إلى وقت صلاة العشاء . يجيب عن استفساراتهم ويوضح مشكلاتهم . ويبين الحق فيما يثور من جدل في الصحف والمجلات .

ولو قيض الله سبحانه وتعالى لهذه الجلسات من سجلها لآبانت عن كثير من الحقائق في مسائل مختلفة من العلم والاجتماع .

وبعد : فإن فريد وجدى يقول :

« يجب على أن أنبه إلى أني أستخلصت هذا التفسير من الآراء المجمع عليها لدى أئمة المفسرين وأقطاب أهل السنة فلم أخرج به عن سنتهم قيد شعرة ليوافق مذهبا من المذاهب أو يؤيد رأيا من الآراء الفردية . ولو اضطرنى الكلام ببعض الآيات على أن أورد لي . أو لأحد من غير أهل السنة نيهت إليه وعزوته لقائله حتى يكون القارئ على بينه من أمره » .

وهذا النهج الذي أتبعه فريد وجدى هو النهج المستقيم الذي يجب اتباعه فيما يتعلق بالتفسير .

والمنهج الذي ذكره جدي للتفسير حاول تحقيقه خصوصا فيما يتعلق بسهولة التعبير وسر الشرح والعناية بمعاني الالفاظ ، وكل صحيفة من القرآن في هذا التفسير يحيط بها هامشان احدهما للمعنى والآخر للالفاظ ، وخير لهذا التفسير أن تأتي بصحيفة كاملة من القرآن الكريم توضح لنا في صورة دقيقة منهجه وطريقته .

وقد طبع هذا التفسير عدة طبعات وظن الناس أن فريد وجدي لم يقم في تفسير القرآن وبيان اهدافه إلا بهذا الكتاب الذي بين أيديهم .

وهذه الفكرة ليست بصواب ، وهي تصوير خطأ لعمل فريد وجدي في تفسير القرآن وذلك أن فريد وجدي قبل أن يفسر القرآن كتب مقدمة مستفيضة تعتبر وحدها كتابا نفسيا ، بين هذه المقدمة المستفيضة ما يستفيض فيه الباحثون من مسائل القرآن كالبعث مثلا والجنة والنار ، والالوهية والنبوة ، يقول فريد وجدي عنها :

هذه المقدمة طبعها فريد وجدي من عشرات السنين ونفدت طبعتها من زمن بعيد ولم يطبعها الذين طبعوا المصحف المفسر ، فاعتقد الناس أن هذا هو العمل الوحيد لفريد وجدي فيما يتعلق بتفسير القرآن .

والواقع أن هذه المقدمة ضرورية لكل قارئ لتفسير وجدي ، وأنها هي والتفسير عمل متكامل ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يشرح صدور الطابعين لهذا التفسير لطبع المقدمة معه في الطبعات التالية .

أما ما يؤخذ على تفسير وجدي وعلى وجدي نفسه ، فهو أن صلته بالحديث لم تكن وثيقة ، ومن أجل ذلك نجد في كتاباته من آن لآخر ، وعلى قلة الأحاديث الضعيفة ، وكنا نتمنى أن لو كانت صلته بالحديث أوثق .

كما أنه لم يخل في كتاباته من أن يوطئ بعض النواحي الدينية للتيارات الفلسفية فيحاول في رفق شرحها بحسب الوضع الفلسفي ، والوضع الفلسفي وضع بشري لا يثبت على حال .

ومن نماذجه :

يقول الله تعالى : [الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ،
يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا
يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ، وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا
السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالَمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ
ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ] . (سورة سبأ الآيات ١-٢)

تفسير الألفاظ :

[مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ] أى ما يدخل في الأرض يقال : ولج يلعج ،
ولوجا ، أى دخل ، والذي يلعج في الأرض هو الغيث وما يدفن فيها من
مقتنيات وموتى .

[وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا] كالنباتات والمعادن والعيون . . . [وَمَا يَنْزِلُ مِنَ

السَّمَاءِ] كالملائكة والوحي والأرزاق .

(وَمَا يَعْزُبُ فِيهَا) كالملائكة وأعمال العباد . الخ يقال : عرج يعرج ،

عروجا ، أى صعد .

« بَلَى » حرف جواب قد أتى رد النفي كما في هذه الآية أو جوابا لسؤال
منفي نحو قوله تعالى : « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ » قالوا : بَلَى : « لَا يَعْزُبُ » أى
لا يغيب يقال : عزب عنه الشيء يعزب ، ويعزب عزوبا بعد وغب وخنق ،
أما عزب الرجل يعزب عزبة وعزوبة ، فعناه صار عزبا ، أى بلا زوج « فِي
كِتَابٍ » هو اللوح المحفوظ الذى فيه ما كان ويكون إلى يوم القيامة .

تفسير المعاني:

الحمد لله الذي له ما في السموات والأرض خلقا وإبداعا، وله الحمد في الآخرة على جميل إحسانه ورحمته وهو الحكيم الخبير، يعلم ما يدخل في جوف الأرض وما يخرج منها، وما يهبط من السماء وما يصعد إليها، لا تخفى عليه صغيرة ولا كبيرة مما يحصل في ملكه الذي لا ينتهي إلى حد وهو الرحيم والغفور.

وأنكر الذين كفروا مجيء يوم القيامة، قل: بلى والله عالم الغيب، لتجيئنكم لا يخفى عليه ثقل ذرة من هباء في السموات والأرض. ولا أصغر ولا أكبر منها، إلا في كتاب مبين هو اللوح المحفوظ. اهـ.

التفسير الواضح للشيخ محمد محمود حجازى

رحم الله الشيخ محمد حجازى - لقد عرفناه واحبيناه . احبيناه لخلقه
السمع وادبه الجم . وعلمه الغزير . اما عن خلقه فانه كان سمحا صفوحا لا
تستثيره المهاترات : انه كان يعرض عنها وكان قلبه طاهرا طهر الماء الصافى لا
يحمل حقدا لاحد . ولا ضغينة لانسان وكان من الذين اذا مروا باللغوا مروا
كراما . ولذلك قل اعداؤه وانكمش هؤلاء الذين ينفسون على العالم علمه وعلى
المؤلف تأليفه . وعاش حياته فى هدوء نسبي متفرغا للعلم . دائبا على
الدراسة .

ولد الشيخ فى محافظة الشرقية عام ١٩١٤ ودرس العلم فى معهد الزقازيق
وكان مثالا للطالب المجد الذى لا شأن له بغير ما قدم اليه وهو العلم . ولم تكن
مغريات الحياة قد انتشرت فى مدينة الزقازيق . فلم تجذبه زينة الحياة الدنيا .
وكان المعهد يأخذ طلبته بالجد الصارم فانصرف الطالب الى التحصيل .

ولما انتهى من دراسته فى معهد الزقازيق بم وجهه شطر القاهرة دارسا
بكلية اللغة العربية . ولم يشغله زخرف القاهرة فجد حتى نال العالمية . ثم عين
مدرسا بمعهد الزقازيق الذى تخرج منه والقريب من بلده .

لقد عاد الى المعهد الذى درس فيه طالبا : عاد اليه شيخا مدرسا وكانت
سعادته عظيمة وفرحته لا تحصى حين مشى بسمته الازهرى الجميل فى فناء هذا
المعهد . واخذت عيناه تفحصان الامكنة التى مشى فيها . او جرى نحوها . او
لعب فيها . او تلقى الدرس فى رحابها وها هو يتحدث سعيدا مع بعض طلبة
المعهد من بلده . الذين كانوا قد انتسبوا الى المعهد حين اوشك هو على
مغادرته . او الذين انتسبوا اليه من بعده . لقد كان ابناء بلده يعترفون به .
ويعتز هو بهم . فيوجه اليهم النصيح فى صورة صديق وفى صورة اخ اكبر .

وكانوا يحمدون فيه تواضعه وعاطفته الجياشة بحب الازهر وبحب ابناء
بلدته .

واخذ في السنوات الاولى من التخرج يعد نفسه لمستقبل علمي زاهر ،
وانجبه على الخصوص الى التفسير .

كتب الشيخ حجازي تفسيره وهو مازال مدرسا بمعهد الزقازيق ، وكان
طموحه ان يكون بين اعلام اساتذة كلية اصول الدين ، فاخذ يعد رسالة لنيل
الدكتوراه واختار لها موضوعا دقيقا عميقا ، هو : « الوحدة الموضوعية في
القرآن الكريم » .

ولعل اختياره لهذا الموضوع لم يكن اختيارا بالمعنى العادي للكلمة ، وذلك
انه يشبه ان يكون قد فرض نفسه ،

انه يقول في مقدمة رسالة الدكتوراه :

« ولقد راعني وانا اكتب « التفسير الواضح » هذا النسق العجيب في سور
القرآن وترتيبها في المصحف ، فهذه سورة مدنية يجوار سورة مكية ، وهذه
سورة مدنية وسط عدد من السور المكية وهكذا .

ثم اذا نظرت الى نفس السورة وآياتها تجد العجب العجيب ، تجد السورة
وقد جمعت آيات متعددة ، وان تكن متناسبة ومتلائمة ، ولكنك تجد السورة
تحدث من موضوع خاص ، فم اذا قرأت غيرها تجدها تحدث هي الأخرى
عن نفس الموضوع ، ولكن بشكل خاص ونسق يلتئم مع جو السورة التي قيل
فيها ، هذه ظاهرة استرعت البحث والنظر ، اما السابقون فتخلصوا من هذا
بالقول بالنسخ فالآية المتأخرة نسخت التقدمة وهكذا .

واما نحن فقد هدانا الله الى القول بنظرية « الوحدة الموضوعية في القرآن
الكريم » .

لهذا كانت تلك النظرية جديدة على الاسماع فرفضها البعض وحاول منع
نقاشها بجامعة الازهر ، ولكن الحق يظهر دائما ولا بد ان يبدو الصبح لذي

عينين واما المنصفون والمعتدلون فطالبوا بالدليل ، والبيان ، وضرب الامثلة ،
مع الحججة والبرهان .

ثم هم بعد ذلك طالبوني بتعميم الفائدة ، ونشر هذه الرسالة فاجبت
الطلب والله المستعان .

ثم يقول في تواضع جم :

وبعد : فهذه رسالة أتقدم بها الى كلية اصول الدين بجامعة الازهر لنيل
الدكتوراه وعنوانها : (الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم) .

والحق يقال : انني لست من رجال هذه الابحاث الدقيقة العميقة المتصلة
بالقرآن الكريم ، ولكنها محاولة ، دفعني اليها حب البحث في كل ما يتعلق
بكتاب الله ، فان اصبحت فذلك الفضل من الله والا فهي محاولة .

والله يهدي الى الحق وهو نعم النصير هـ . أ . هـ

اما عن التفسير فانه بعد محاولات عدة وتجارب في الوان التفسير استقر رأيه
على كتابة تفسير للقرآن يكون مختصرا واضحا متأشيا في ذلك بما كان الامر
عليه في الصدر الأول للإسلام وذلك ان المسلمين في الصدر الأول من
الإسلام كانوا يختصرون في التفسير الى درجة انهم كانوا يقتصرون تقريبا على
تفسير الكلمة او على تفسير الآية بكلمات قليلة او تفسيرها بحديث من
الاحاديث الشريفة او بأثر عن صحابي جليل .

واثر الشيخ محمد حجازي هذا المنهج واقتنع بحكمة القدماء في ترك القرآن
دائما غضا نضرا تفهم النفس منه مباشرة الهداية والرشاد ، وترتفع معه النفس
الى الافق السامي الذي احبه الله للمسلمين وبينه في القرآن الكريم ، وقد
اهدى التفسير الى : « الى الذين اذا ذكروا الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت
عليهم آياته زادتهم ايمانا الى الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ، الى اخواننا
المسلمين في مشارق الارض ومغاربها اهدى هذا واحسب اجري عند الله » هـ . أ . هـ

ويقول في مقدمته للطبعة الاولى :

« وبعد فهذا هو القرآن الكريم بل هذا هو الهدى والنور . كتاب شرحه بلغة سهلة واضحة لا تعمق فيها ولا ابعاد . خالية من المصطلحات العلمية الفنية تفسر للشعب كل ما فيه من صوغ المعنى الاجمالي للآية . بلغة العصر مع البعد عن الخشو والتطويل والخرافات الاسرائيلية والاعتدال في الرأي . فلم يهدم كل قديم . ولم يرفع كل جديد . وان يكن لكل فارس كبوة .

ولا طاقة للناس الآن بالاطالة فيما لا شأن له باصل الغرض من التفسير اذ لهم ان يفهم القرآن اكبر عدد ممكن من المسلمين .

الم بأن للحق ان يدحض الباطل كما دحضه في صدر الاسلام . وقد يكون ما تراه من الجمعيات الاسلامية والمواخاة الدينية جذوة فيها ضوء يسطع ليصر من اراد ان يسعد عاجلته وآجلته وفيها نار تحرق هؤلاء الشياطين الذين لم يستمعوا من الله . ولا من الحق فجعلوا من جاههم ونفوذهم حربا على الاسلام ابقاء على زخرف كاذب وفرارا من حقوق اخوانهم في الدين والانسانية قبلهم .

وها نحن الآن قد عزمنا « والعون من الله وحده » على الكتابة في التفسير على ان يخرج الجزء الاول ثم الذي يليه وهكذا . فان كان للعمر بقية ومن الله تأييد . تم هذا العمل الذي نقصد به وجه الله .

ولا انكر انه عمل ضخم ليس لمثلئ ان يتعرض له ولكن : -

واكذب النفس اذا حدثتها ان صدق النفس يزرى بالامل

وسنظل والحمد لله ندفع بايدينا وبالسنتنا وباقلامنا عن حمى هذا الدين حتى يظهره الله او نهلك دونه . ولن يضيعنا الله .

وصدق الله اذ يقول : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ

يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ] (محمد : ٧)

ويقول في مقدمة الطبعة الثانية : « حمدا يارب حمدا » :

لقد طوقت جهدي بفيض توفيقك . وغمرتني بنور هداك . فضيت
احوم حول قرآنك الابدى الخالد ودستورك السلم القويم . على اظفر بما يجلو
ويوضح فخامته . لا يثيني وصب ولا نصب حتى تنفس للمتردد صبح .
وانبلج للسارى نور . وبدت معانيه لمن حرماو التعنى لتراكم اثقال الحياة
عليهم . اوفاتهم ركب العلم سهلة واضحة تين لهم عن رحيب قدرتك .
وواسع وشامخ عظمتك وشكرا ايها الحافلون يجهدى شكرا .

لقد شجعتني اقبالكم فديت الاشواك : واقتحمت المصاعب ومضيت
غير عابئ بتعب او مال غايى وجه الله فى افهام ما ينطوى عليه القرآن من
معنى ظاهر باوجز لفظ وايسر عبارة واسهل اسلوب ليغزو شعاعه كل قلب .
ويعمر هداه كل نفس فيزدادوا ايمانا على ايمانهم وتسكن نفوسهم بنور ربهم
وقد احسست ان حقا واجبا فى عنقى لمن افلتت من ايديهم الاعداد الاولى
من : «التفسير الواضح » لن تبرأ منه الذمة حتى استجيب لرغباتهم الملحة
الهاتفه .

وها انذا اللى بحمد الله وعونه . واتبح الفرصة لمن فاتتهم الفرصة فاضع
بين ايديهم الطبعة الثانية .

وان فيها لاعتصارا جديدا لجهدى . وفى سبيل الله يهون الاعتصار . وانها
ايها الاخوان تحفة مدققة فيها الكثير فاستدركت ما زلت به سرعة الطباعة .
واستودعتها ما وقفت عليه من جديد .

والله ارجوان يرضى به عملا . ان يهئى من لدنه القوة والسداد حتى اتم
ما بدأ انه لنعم النصير والظهير . وهو ولى التوفيق .

يقول الله تعالى : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى
وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا

اللَّهُ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .

(سورة البقرة : ٢٣٨ ، ٢٣٩)

المفردات :

« حَافِظُوا » داوموا عليها بانقائان (الْوَسْطَى) المتوسطة او الفضلى والمراد بها صلاة العصر على الاصح (قَائِتِينَ) ذاكرين الله فى القيام مداومين على الضراعة والخشوع .

المعنى :

الصلاة عماد الدين والركن العملى الاول الذى يكرر فى اليوم خمس مرات لما لها من الاثر الفعال فى تطهير النفس وهى كالبثر يغتسل منه المصلى خمس مرات فى اليوم والليله فهل يبتى عليه من درن ؟

ولهذا كله امرنا بالمحافظة عليها ووضعها بين الاحكام التى تتعلق بالبيوت والاسر اشارة الى انه يجب الا تشغلنا البيوت وما فيها ولا انفسنا عن الصلاة وللإشارة الى ان الصلاة والاتصال بالله مما يصفى الروح ويزيل كدرتها التى كثيرا ما تكون سببا فى ازمات تقع فى الاسرة .

« وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ » ، حافظوا على الصلاة مطلقا يحفظكم من كل هم وغم ويحفظكم من الفحشاء والمنكر خاصة الصلاة الوسطى وهى العصر لقوله صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب : « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر » .

ووقت صلاة العصر كما يقولون وقت وسط بين وقتى الظهر والمغرب فهى متوسطة بهذا المعنى ، وقوموا لله خاشعين ذاكرين الله دون سواه .

وللاشارة الى خطر الصلاة وانه لا يصح لمسلم ان يتركها لعذر قيل ما معناه لا عذر فى ترك الصلاة حتى فى مجال الخوف على النفس او المال او العرض بل صلوا على اى كيفية راكبين او ماشين سائرين او

واقفين ، على اى وضع كان ، فاذا زال الخوف فاذكروا الله فى الصلاة
كما علمكم مالم تكونوا تعلمون من كيفية الصلاة فى حال الامن
والخوف .

ونموذج آخر :

يقول الله تعالى : (وَاِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ
الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ إِنَّ الَّذِينَ
عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ) .
(سورة الاعراف : ٢٠٤)

المفردات :

(فَاسْتَمِعُوا) الاستماع يزيد عن السمع بالاتصال والقصد والنية .
(تَضَرُّعًا) من الضراعة والذلة والخضوع (وَخِيفَةً) خائفين (بِالْغُدُوِّ) الغدو
جمع غدوة وهى ما بين صلاة الفجر الى طلوع الشمس (وَالْآصَالِ) جمع
اصيل وهو ما بعد العصر الى الغروب .

المعنى :

اذا قرئ القرآن الكريم فاستمعوا له بانصات وادب وقصد مع السكون
والخشوع رجاء ان ترحموا من الله فانه لا يستمع لكلامه بادب وحسن استماع
الا المخلصون الذين فى قلوبهم نور الايمان وبرد اليقين اما من اهتمهم الدنيا
واقضت مضاجعهم حتى اصبحت قلوبهم خلوا من نور الايمان تراهم عند
سماع القرآن لا ينصتون ابدا بل ويتكلمون فى توافه الامور .

والآية عامة فى الصلاة والخطبة وغيرها ، ايليق بالمسلم ان يتكلم الله فلا

يستمع ويتكلم جاره فيستمع؟

واذكر ربك في نفسك وذلك بذكر اسمائه وصفاته وشكره واستغفاره
والمهم التذكر بالقلب الا بذكر الله تطمئن القلوب .

اذكره ضارعا متذللا خاضعا خائفا راجيا ثوابه، مع اتمام الاسم وعدم
استعمال ما يخل اذكره بلسانك وقلبك ذكرا دون الجهر وفوق السراي اذكره
وسطا بين هذا وذاك «ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك
سيلا» .

وانسب الأوقات للذكر وقت الصباح والمساء وبقية النهار وتحصيل
الرزق وإياك أيها المسلم ان تكون من الغافلين عن ذكر الله بقلبك، واعلم ان
الذين عند ربك من الملائكة والمقربين لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه في
الليل والنهار، وله وحده يسجدون فكيف بك؟

المنتخب في تفسير القرآن

ان الحاجة الماسة في العصر الحاضر تدعو الى ترجمة معانى القرآن الكريم ترجمة دقيقة بقدر الاستطاعة. وذلك ان الترجمات الموجودة في الاغلب الاعم منها، تقصر عن الترجمة الدقيقة في بعض الآيات وتضل في البعض الآخر. وذلك لقصور المترجمين في احدى اللغتين المترجم منها، او المترجم اليها، او لقصورهم في بعض العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم اتصالا وثيقا كالحديث النبوية الشريفة، او اسباب النزول، او السيرة النبوية.

من اجل ذلك لا تمثل الاغلبية من هذه الترجمات المعنى القرآنى تمثيلا صحيحا.

وهذا التمثيل الصحيح ضرورى لنشر الدعوة ولييان المبادئ الاسلامية للغرب. ولكل من لا يعرف اللغة العربية بيانا صادقا.

ولكن المجلس الاعلى للشئون الاسلامية في جد للقيام بهذا العلم، وهيا له كل وسائل النجاح، وجمع مجموعة ضخمة من العلماء، وأبان لهم الفكرة، ووضع لهؤلاء العلماء منهجا فيما بينهم، وبدءوا، ورأى المشرفون على العمل من العلماء أنفسهم ان هناك تفاوتاً بين مفسر واخر، وبين الاطالة والايجاز، ورأوا المشارب مختلف وتعدد، وهذا امر طبيعي، ولكن كان من الضروري ان يكون هناك نوع من الانسجام التقارب الوثيق اذا لم يتأت اتحاد المنهج اتحادا تاما، فولدت لجنة من كبار العلماء سميت لجنة التنسيق وأخذت تنسق ما يأتيها من موارد التفسير حتى يكون المنهج والطابع منسجما متقاربا.

وحيثما قطعت لجنة التنسيق شوطا لا بأس به في العمل واصبح المنهج والطابع مفهوما واضحا، انقسمت اللجنة إلى ثلاث لجان، وذلك للتمكن من السرعة في انهاء هذا العمل الجليل.

وفي هذه الاثناء كان الخبراء في الفنون المختلفة كالفلك، والاحياء، والطب يدرسون الايات المتصلة بعلومهم في القرآن الكريم ويضعون عليها تعليقات موجزة، وكانت لجنة التنسيق تنظر في كل ذلك حتى انتهت من العمل على خير اسلوب واصبح العمل معدا اعدادا متقنا للترجمة .

ولكن شاءت المقادير ان يكون هذا العمل الذي اعد اولا وقبل كل شيء للترجمة يصبح تفسيراً للقرآن الكريم يتهافت عليه الناس من مختلف الهيئات والبيئات ويصبح اكثر التفاسير القرآنية رواجاً .

لانه في متناول كل الناس على مختلف ثقافتهم .

ولانه موجز يتناسب مع طابع السرعة في العصر الحاضر، ولانه حقيقة الامر قد هيا الله سبحانه وتعالى له الدقة والتركيز والسهولة .

وهو تفسير يجمع إلى ايجاز العبارة: الوفاء بالمعنى المراد، بعيداً عن التعقيد قريباً من الهدف الذي يرجى من القرآن، وهو انتفاع المسلم العادى بما في كتاب الله مما فيه صلاح دينه ودنياه واخرته من اقرب طريق، فكان هذا التفسير الذى اسهم في اخراجه جمع من العلماء في المجلس الاعلى للشئون الاسلامية .

مميزات هذا التفسير:

١ - يمتاز هذا التفسير بانه وضع باسلوب عصري سهل واضح العبارة وجيز لا يخل ولا يمل .

٢ - يخلو هذا التفسير مما كثر في تفاسير السابقين من :

الخلافات المذهبية، والمصطلحات الفنية، والحشو، والتعقيدات اللفظية .

٣ - يخلو هذا التفسير من كثير مما في تفاسير السابقين من قصص أو ما يشبه الاساطير والحكايات والابخار الاسرائيلية .

٤ - روعى في هذا التفسير ان يكون في مقدور العلماء باللغات الاجنبية من ابناء العربية نقل معاني القرآن وترجمتها الى تلك اللغات الاجنبية حتى تظل رسالة المسلم هي التبليغ دائما امرا بالمعروف ونهيا عن المنكر وعملا بموجب كتاب الله سبحانه .

٥ - كل آية في هذا التفسير وضع لها تفسيرها بازائها حسب الارقام الواردة في المصحف فالآية رقم (١) تفسيرها تحت نفس الرقم (٢) تفسيرها تحت هذا الرقم (٢) وهكذا .

٦ - قد يلحق بتفسير بعض الآيات اشارات بالهامش تتعلق بالمعنى العام للآية او لايضاح لفظ او لبيان مسألة من المسائل ترتب على المعنى المفهوم من اللفظ او الآية على وجه العموم .

نماذج من هذا التفسير :

في قوله تعالى من سورة البقرة :

[قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى . وَاللَّهُ

غَنِيٌّ حَلِيمٌ] - (٢٦٣)

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى .

كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ . وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ . فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا .

لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا . وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْكَافِرِينَ] - (٢٦٤)

[وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ

أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكْلَهَا ضِعْفَيْنِ .

فَإِنْ لَمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] - (٢٦٥)

الآية (٢٦٣) تفسيرها:

قول تطيب به النفوس، وتستتر معه حال الفقير، فلا تذكر لغيره، خير من عطاء يتبعه ايداء بالقول أو الفعل، والله سبحانه وتعالى غنى عن كل عطاء مصحوب بالاذى ويمكن الفقراء من الرزق الطيب.

الآية (٢٦٤) تفسيرها:

لا تضيعوا ثواب صدقاتكم أيها المؤمنون بإظهار فضلكم على المحتاجين وايدائهم فتكونوا كالذين ينفقون أموالهم بدافع الرغبة في الشهرة، وحب الثناء من الناس وهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فإن حال المرائي في نفقته كحال حجر املس عليه تراب، هطل عليه مطر شديد فأزال ما عليه من تراب فكما إن المطر العزيز يزيل التراب الخصب المتج من الحجر الأملس، فكذلك المن والأذى والرياء تبطل ثواب الصدقات فلا يتتفع المتفعون بشيء منها، وتلك صفات الكفار فتجنبوها، لأن الله لا يوفق الكافرين إلى الخير والارشاد.

الآية (٢٦٥) تفسيرها:

حال الذين ينفقون أموالهم طلباً لمرضاة الله وتثبيتاً لأنفسهم على الإيمان، كحال: صاحب بستان بأرض خصبة مرتفعة، يفيد كثير الماء وقليلة، فإن أصابه مطر غزير أثمر مثلين وإن لم يصبه المطر الكثير بل القليل فإنه يكفى لاثماره لجودة الأرض وطيبها فهو مثمر في الحالتين، فالمؤمنون المخلصون لا تبور أعمالهم. والله لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

نرجو الله سبحانه وتعالى أن يجزى الذين قاموا به خير الجزاء

تم بحمد الله

فهرس موضوعات الكتاب

رقم الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة : في تصريف التفسير وأنواعه
١١	الإمام سفيان الثوري وتفسيره
١٧	الإمام ابن قتيبة وتفسيره
٢٣	معاني القرآن لأبي زكريا الفراء
٢٩	الإمام سهل بن عبد الله التستري وتفسيره
٣٩	الإمام الطبري وتفسيره
٤٧	معاني القرآن للزجاج
٥٣	تحصيل نظام القرآن للحكيم الترمذي
٦١	شيخ الحنفية ببغداد الجصاص وتفسيره
٦٧	الحاكم النيسابوري وتفسيره
٧٣	الإمام السلمي وتفسيره
٧٩	متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني
٨٥	الإمام القشيري وتفسيره لطائف الإشارات
٩١	شيخ الشافعية ببغداد الكيا الهراس وتفسيره
١٠١	الواحدى النيسابوري وأسباب النزول
١٠٥	الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل

رقم الصفحة	الموضوع
١١١	ابن العربي وتفسير أحكام القرآن
١١٧	تفسير ابن الجوزي زاد المسير
١٢٥	تفسير ابن عطية
١٣١	تفسير الإمام البغوي
١٣٧	المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني
١٤٥	الفخر الرازي وتفسيره
١٤٣	الإمام الطبري وتفسيره مجمع البيان لعلوم القرآن
١٦١	تفسير الإمام أبو الحسن الشاذلي - رضي الله عنه -
١٧٥	الإمام أبو العباس المرسى والتفسير
١٨٣	أبو حيان الأندلسي وتفسيره البحر المحيط والنهر الماد
١٩٣	البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن - لابن الزمكاني
٢٠٠	الإمام ابن تيمية ومنهجه في التفسير
٢٠٩	ابن جرير وكتابه التسهيل
٢١٥	الإمام النسفي وتفسيره
٢٢٣	الإمام ابن كثير وتفسيره
٢٢٩	بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزبادي
٢٣٥	الإمام النيسابوري

رقم الصفحة	الموضوع
٢٤١	الإمام البيضاوي ومنهجه في التفسير
٢٤٧	الدر المنثور في التفسير بالمنثور
٢٥٣	الإمام أبو السعود وتفسيره
٢٥٩	السراج المنير للخطيب الشربيني
٢٦٥	روح البيان في تفسير القرآن لاسماعيل حقي
٢٧٣	فتح القدير للإمام الشوكاني
٢٨١	الإمام الألويسي وتفسيره روح المعاني
٢٨٩	حاشية الإمام الصاوي على الجلالين
٢٩٥	الإمام جمال الدين الفاسي وتفسيره
٣٠٥	الإمام محمد عبده وتفسيره
٣١٥	الأستاذ رشيد رضا وتفسيره
٣٢٣	تفسير ابن باديس
٣٢٧	تفسير جزء تبارك للشيخ عبدالقادر المغربي
٣٣٣	التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور
٣٣٩	الشيخ المسراغي وتفسيره
٣٤٧	تفسير الشيخ محمود شلتوت

رقم الصفحة	الموضوع
٣٥٥	نتاج التفاسير : لكلام الملك الكبير - للإمام محمد عثمان انيرغني
٣٦١	ضياء الأكوان للشيخ أحمد سعد العقاد
٣٦٩	تفسير محمد فريد وجدى
٣٧٧	التفسير الواضح للشيخ محمد محمود حجازى
٤٨٥	المنتخب فى تفسير القرآن

